

الهيئة العامة لقصور الثقافة



me3refaty.maktoobblog.com

إبراهيم الكليب

معرفتي **

بتم
إبراهيم عبدالقادر المازني

**** معرفتی ****

me3refaty.maktoobblog.com

خاكرة الكفاة (١٨)

رئيس مجلس الإدارة

على أبوشادى

رئيس التحرير

د. عبد القادر القط

مدير التحرير

مسعود شومان

أمين عام النشر

محمد كشيك

الإشراف الفنى .

د. محمود عبد العاطى

المراسلات : باسم مدير التحرير

على العنوان التالى ١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى

رقم بريدى : ١١٥٦١

مستشارو التحرير

د. جابر عصفور

أ. محمود أمين العالم

د. محمود علي مكي

- **الكاتب:** إبراهيم الكاتب
- **المؤلف:** إبراهيم عبد القادر المازني
- **طبعة:** الشعب - ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م
- **الطبعة الثانية:** الهيئة العامة لقصور الثقافة / ٢٠٠٠م

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

الامتياز

إلى التي لها أحيا ، وفي سبيلها أسعى
وبها وحدها أعني طائعا أو كارها ...
إلى نفسي ...

« ابراهيم عبد القادر المازني »

القسم الأول

« كل الأنهار تجري إلى البحر
والبحر ليس يملآن ... »

الفصل الأول

« وكان مساء ... »

- ١ -

شوشو فتاه يقول لك جسمها أنها ناهزت التاسعة عشرة ويشهد حديثها وحركاتها أنها لم تجاوز السابعة عشرة . وهي ذات قامة معتدلة وجسم غنض ووجه صبيح مثالي ، ترتاح العين إلى النظر إلى معارفه جملة ، وتشغل بوقعها مجتمعية عن التعلق بواحد منها على الخصوص . وقد قضت هذا الشطر الأول من عمرها في عزلة ، قلما أتيح لها فيها أن تخالط الرجال الا أن يكونوا من ذوى قرابتها الأدينين ، فلم تألف أذن عبارات الإعجاب بحسنها ، وبقيت نفسها مرسلة على سجيئتها ، وخلا كل ما فيها ولها من ذلك العمل الذي يدرب الفتاة عليه تنبيه الشعور بنفسها وتوقعها من الجليس أن تأخذها عينه من فرعها إلى قدمها وأن تجس محاسنها وتنقدها . وقد انفردت عينها بمزينة : هي أن من يراها لا يحتاج أن يعدوها أو ينقل لحظه إلى سواهما ، ففيهما يجتلى نفسها وروحها وطبيعتها وجمالها ، مركزا . وهما سوداوان غير أنه سواد فيه من العمق أكثر مما فيه من الالتماع . يتحدث « فيه » تحديقك « في » بئر ، ولا ترنو إليه كما ترنو إلى رسم .

ومن الفتيات من لا يفطن المرء إليها على فرط حسننها ، لأول وهلة ، ولكن صاحبتنا هذه كانت من قوة الجذب بحيث لا يسعك إلا أن تحس وجودها وتشعر بما تفيضه حولها ، ولا تكاد تجلس إليها خمس دقائق حتى تلم بما فطرت عليه من جرأة الجنان الذي لا يدري أن في الدنيا ما يتقى ، ومن حرارة النفس الغريزة التي لم يصدمها من التجارب ما يطفئها ، ومن خفة الروح التي لا يثقلها إلحاح اللحم . ويعرف من يعرفها أن لها أحيانا تبدو فيها كالظلماء إلى مجهول ، أو كالتى تعتلج في صدرها خواطر واحساسات هي أغمض من أن تتولى الكشف عنها عبارة ، أو أوجع من أن ترفه عنها دمة . ولم تكن كذلك الآن في هذه الفترة التي زخرت فيها تيارات حياتها ، والتي نخصها بالذكر .

كانت الشمس قد غابت وراء الأفق ولقت الحقول في شملة من الظلام لا رقيقة ولا شفافة ، وكان اثنان يدثقان في الطريق بين المزارع على حمارين ، أحدهما مسرج ملجم ، يعاني الفتى الحضري الذي يمتطيه أشد البرح من تخطره ونزاعه إلى الانطلاق في العدو ، وهو لا يكاد يمسك نفسه فوقه من فرط التقلقل . وثانيهما — أى ثانی الحمارين — يخطو وأدعا ، ورأسه مدلى وأذناه مسترخيتان وليس على ظهره سوى لبدة عتيقة استقر عليها الراكب ولصق بها حتى لا تكاد رجلاه تتحركان ، كأنهما خشبتان مشدودتان إلى جانبي الحمار ، وكان الفتى في شاغل من متاعبه ، فقطعا أكثر الطريق في صمت إلى أن ألقت الفتى إلى رقيقه وقال :

— لم أعرف أسمك إلى الآن فهل تسمح لي به ؟

— اسمي ؟ آه ! أحمد الميت .

— الميت ؟ ولماذا يدعوئك الميت ؟

فقال القروي وهو مطرق كما كان ، وعيناه إلى أذني حمارة :
— لأنني مت .

فابتسم فتانا ساخرًا وقال :

— سبحان من يحيى العظام وهى رميم ، ولكنى أحسب يوم النشور لا يزال بعيدا ، فكيف عدت إلى الحياة قبل الأوان ؟

فرفع القروي رأسه فجأة والتفت إلى الفتى التفاتة المغضب وقال :
— لقد قلت لك أني مت وانتهى الأمر .

فاسترسل فتانا في سخره وقال ولم تزايله ابتسامته :

— إذن من الراكب على حمارك يارقيقى ؟ أهو عفريتاك ؟

فقهقه القروي وقال يطمثنه :

— عفريتى ، لا لا ! لا تخف ! أنا أحمد الميت .

— ولكن ألا تحدثني كيف حيت كرة أخرى ؟ ومن الذى رذك إلى الحياة ؟

.. لم يردني إلى الحياة أحد . لقد مت وانتهى الأمر .
فحملني الفتى في وجهه وهو مبهور وكف عن الكلام ، وقد دار في
نفسه خاطر لم يرتح معه إلى صحبة هذا الرفيق .
وبعد قليل قال أحمد الميت :

— ليست هذه أول مرة جئتنا فيها ؟
— بل هي الأولى . . (ثم بعد قليل) لوددت أني ماجئت !
رسكتا برهة ثم عاد القروي يصل ما انقطع :
— لقد حسبتك عرفت الدار من طول تحديقك إلى ناحيتها .
— وأنى لي برؤيتها وهذا الظلام أكثف من بجلد الفيل ؟
فضحك القروي ضحكة حفلت بالقرقرة ثم أمسك فجأة وقال :
— إنكم يا أبناء المدن لم تألفوا النظر في الظلام .
فقال الفتى وفي صوته مرارة ثم على ما يكتم من الألم الذي جره عليه
نشاط دابته :

— كلا ! لم يرزقنا الله مثلكم عيون القطط .
ثم ساد السكوت لحظة أخرى قال القروي بعدها :
— أحسبك تعرف قصة الباشا المرحوم مع أفندينا ؟
— كلا !

— أنها قصة ممتعة . لقد شرف أفندينا يومئذ ..
— من تعنى بأفندينا هذا ؟

— أفندينا اسماعيل ! لقد شرف يومئذ بلدتنا ولم يكن الباشا قد نال هذه
الرتبة ، ففرش له الطريق كله بالرمل ، ونصب على جانبيه الزينات التي لم
نرها لا قبلها ولا بعدها إلى الآن وأقام الأفراح أربعين يوما فسر أفند يتاجدا
وقال له ساعة هم بالركوب عائدا : إني جعلتك من يسكروا ويمكنك بعد أن
أرجع إلى مصر أن تزورني في أي وقت تشاء لأكافئك على كرم ضيافتك
وسخائك في استقبالنا . ومضت ستون بعد ذلك لا أذكر عدها ، وفي يوم
تذكر البيلك كلمة أفندينا فنهض وقال : أنى ذاهب إليه من توى . فلما

صار في مصر مضى إلى سراى أفندينا وقرع الباب ، فقال الخادم : ماذا تبني ؟
« فحكى له ما كان ، فقال له : « أن اسماعيل مضى وجاء غيره ، فعاد
وأخبر القرية أن اسماعيل الثاني . . »

— اسماعيل الثاني ؟ أظن يا صاحبي أن في تاريخك خطأ .
— كلا ! لا خطأ على الإطلاق ! إنها حكاية مشهورة ! وليس مثل
من يخطئ في الرواية ، أمن أجل أن كتبكم لا تحوى هذه القصة تكون
خطأ ؟ وأنا بعد لم أتمها لك ولم أخبرك بما وقع له مع اسماعيل الثالث . .
— إن هذا لا يطاق . كلا ! لن أحتمل اسماعيل الثالث . ووثب إلى
الأرض هن ظهر الدابة وتركها وسط الطريق ، ومال إلى حافته اليمنى
كأنما أراد أن يجعل بينه وبين رفيقه أطول بعد ممكن . ورأى القروى ذلك
فكف عن محادثته ، وجعل يقول لنفسه : ما أغرب هؤلاء الأفندية الذين
يجيئون من الأمصار ! أما والله لولا أنه عمت بالقزابة إلى الباشا رحمه الله . .
وبلغا البيت فنهرتهما الكلاب ، وأفزع الفتي نباحا وهيتا
الوحشية ، فدنأ من رفيقه بكرهه ، حتى كاد يدخل في ثيابه فزجرها القروى
عنه ، وصعد به السلم .

— ٣ —

قالت شوشو لقرينها بعد أن أصاب حظا من الراحة :
— تعال بنا إلى بهو السلم ، فإن الجو بديع في هذه الليلة .
— ولكن السلم يؤدي إلى الغيط مباشرة بلا حاجز ، و . . . والكلاب . .
— آه الكلاب ! أتخافها ؟ انها لن تؤذيك . . تعال . . تعال . . أصبح
أن تكون أضعف مني قلبا ؟

فمضيا إلى البهو وجلسا ، ثم شرعت فتاتنا تنادى : « مرجان ، بخيت .
مرزوق » فعجب الفتي وقال : « وما تصنعين بهؤلاء كلهم ؟ لا تتعجب الخدم
يا شوشو بلا داع » .

والتفت فإذا ثلاثة كلاب تصعد بسرعة على السلم وتقبل عليها وتوثب .

حولها وتمسح بثوبها وتحرك أذناها وتلحق حداثها ، فأشارت إليها فريض
واحد إلى يمين الفتى ، وثان أمامه ، والثالث إلى يساره ، وعادت هي
تحدث قريبها حتى عرضت مناسبة ، فنهضت وأخبرته أنها ستغيب عنه برهة
قصيرة ، ولم تنتظر أن تسمع ما هم أن يقول له إذا صح أنه فتح فيه ليتكلم !
وتركته .

فأسلم أمره لحظه ولها تيك الكلاب ، وجعل يلاحظها خلسة ، وشامت
بعوضه أن تلذعه في جبينه ، فرفع يده ليزبها ، فرفضت الكلاب الثلاثة
رءوسها وزامت !
فحط ذراعه .

وأراد الحظ أن تألم ساقه الوضع الذي كانت فيه ، فهم بتحريكها
فعادت الكلاب ترفع رءوسها وتزوم ، قركها مكانها .
وكثر البعوض فجأة ، وتوالى الإحساس باللدغ في الوجه واليدين والرجلين ،
وهو يتجلد إشفاقاً من هذه الكلاب الضارية ، حتى تجاوز الأمر الطاقة ،
وكاد يذهب رشده فصاح - وهو مسمر في مكانه ، ومن غير أن تتحرك
شعرة في جسمه : « ابعدوا عني هذه الكلاب ، والا قتت وتركتها !
تمزقني » .

وفي هذه اللحظة فتحت نافذة مطلة على البهو ، وظهرت منها شوشو
مستغرقة في الضحك .

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

الفصل الثانى

« وكان صباح ، يوما واحدا »

قضى فتانا إبراهيم — وهذا اسمه — ليلة هادئة عميقة النوم إذا استثنينا حلما
! قصيرا ركب فيه جوادا بلا لجام جمع به فى طريق وعر ، ينحدر على أحد
جانبيه نهر جاش ، وتعرضه فى بعض المواضع أقنية تختلف ضيقا وسعة ،
عليها ألواح من الخشب ، وقف الجواد الخبيث فجأة ، فوق واحدة منها
وأهوى برأسه وقادميته إلى الماء ليشرب !

وبدأ الصبح بأصوات العصافير ، ثم نهض ولبس حذاءه ومعطفه وطربوشه ،
وخرج متسللا كاللص . وكانت السماء غائمة ، والجو مطلولا لا تخلص
معه الأنفاس . وكان هو يكره الرطوبة ويتقيها ويشفق من عواقب التعرض
لها ، وكثيرا ما تنته عما يقصد إليه ، ولكن منظر الحقول فى هذه الساعة قبل
طلوع الشمس ، والضباب يسترها على مسافة متر ، ويشف شيئا فشيئا
عنها — وهو منظر لا عهد له به — أغراه بالمضى فانطلق على غير هدى ، حتى
وقف على ترعة صغيرة نزرة الماء ، تكسوا الحشائش جانبي مجراها ، ويفترش
الماء فى قاعها بساطا سندسياً ليناً . وجعل ينظر إليها تارة ، ويدير عينه فى
الحقول المستوية تارة أخرى . وكان المنظر من حوله مؤلفاً من عناصر إذا
اجتمعت ، كما هى الآن ، أحالت الحب فى النفس الحساسة قلقا ، وهوت
بالأمل إلى الشك ، وهبطت باليقين إلى مرتبة الرجاء ، ومنعت الذكرى أن
تحرك الأسف على فائت ، أو الرغبة أن تدفع إلى سعى . ذلك أنه كان أمامه —
على قلر ما وسعه أن يرى — هذه التربة السوداء ومن ورائها مثل الجدار
القائم . ومن خلفه هو أرض بعضها مرعى فيما يعلم ، وبعضها زرع لا يدرى أى
شئ هو . ثم فضاء غير مستو يقوم من بعده البيت الذى زايله منذ لحظة . وكل

ما حوله أشكال ليس لها معارف - كاللهم المسيح - توحى إلى النفس أى شىء ، ولا تنطق بشىء ، إذ كان الضباب لا يزال يكسوها ثوباً يزيد لها فى رأى العين والقلب عرياً وتجرداً . وكانت السماء دانية مسفة بحس المرء أنها تهم بالانطباق على الأرض . ثم بدأت الشمس تطلع حمراء قانية كبيرة القرص ، وأخذت تطلق أشعتها الطويلة المتوهجة من الشرق فتتلقاها فى الغرب السحب ، فأطراف المنازل ، والأكواخ والنوافذ ورعوس الأشجار ، فالأغصان النابتة على وجه الأرض فصارت الأنفاس كأنها خارجة من فوهة مدخنة ، لا من فم آدمى .

وأحس لطول ما وقف ، بالبرد يسرى من قدميه إلى سائر بدنه ، فثنى خطواته إلى الدار ، وما كاد يفتح الباب المؤدى إلى الجناح الذى أفرد له ، حتى طالعه زنجية لامعة الجلد ، منتفخة الأوداج ، كأنما حشيت أشداقها قطناً ، براقة الأسنان ، واسعة العينين حمراؤهما ، قد غرز رأسها المخصوب بين كتفها غرزاً ، واتصل بهما بلا واسطة . أما صدرها فعريض جداً ، وأما خصرها - إذا نجاز أن يسمى هذا خصرأ - فهضيم جداً ، حتى كأن ما نقص من هذا زيد فى ذلك ، ويلى الخصر ردقان ثقيلان تحتتهما ساقان قصيرتان كالقمعين فكأنهما زير عليه أبريق مقلوب فوقه كرة ذات ثقب ، والمرء بأيسر مجهود من الخيال يستطيع أن يتصورها متككة .

فابتدته الزنجية بقولها :

- أين كنت يا سيدى ؟

فلم يرتح إبراهيم إلى هذه المفاجأة ، ولم يسره لونها الأسود البراق بقدر ذلك الضباب الذى لبث فيه . وكان من أثقل الأشياء على نفسه أن يجأك عن روحاته وعدواته فقال لها :

- أين كنت ؟ وكيف يعينك هذا ؟

- لقد أزعجتنا جدّاً يا سيدى ، ولم نخطر لنا قط أنك قد خرجت فى مثل هذه البكرة المملوءة ، فخررت ماذا تصنع .

— لعلك لم تقلق أحداً من أجلى ؟

— نعم ، أيقظتهم جميعاً .

— أيقظتهم جميعاً ؟ ولماذا بالله ؟ أتريبنى طفلاً أم أنا هنا سجين ؟

ولم تكن المسكينة تتوقع أن يفضبه سؤالها وإشفاقها عليه ،
وأفزعها نظرتة أكثر مما أفزعها لهجته ، فرمت بعينها إلى الأرض
وأخذت تنسم :

— لا .. لا ياسيدى . عفوك ! إن هذا بيتك ..

— من قال لك أنى فى بيتى يضرب على نطاق من الخدم ؟

— أنا .. أنا .. لا ذنب لى . لقد أمرتنى سيدتى شوشو قبل أن تنام
أن أخبرها ..

فلم يمهلهما حتى تم كلامها ، وصاح بها وقد تملكه غضب شر ما فيه أنه
يعلم أن لا داعى له :

— إذا كانت سيدتك هى التى شاءت أن تسد فى وجهى الأبواب ،
فسأرحل هذا النهار . نعم لا بد من السفر ، فلست أنوى أن أعصب رأسى
وأسدل على وجهى قناعاً !

ودفع باب غرفته بعنف ، ودخل وهو يتم بصوت يزيده تهديجاً شعوره
بأنه مخطئ فى غضبه ، وأنه تهور بلامسوخ . وشرع يعد حقيته
ويفكر فى القيود التى تحيط بالمرء فى الريف ، ونسى أن للسجن أيضاً
قيودها ..

ولم يكن صاحبنا إبراهيم قد بلغ سن الفلسفة ، أو إن شئت فقل سن
التبلد أو الخزم أو ما تحب غيرها ، وأن كان بطبعه لا طباشراً ولا قليل التؤدة
وكان من ذلك الطراز الذى نستطيع أن نقول أن الله وهبه كل شيء ،
إلا القدرة على الإنتفاع بالحياة والتوفيق فى الدنيا ، وأن يكن أشبه بالنساء
فى المرونة ومرعة التكيف . وكان عظيم الاعتداد بنفسه شديد الاعتماد

عليها ، ولكن من غير أن يشوب ذلك الكبرياء والقتحم على الناس . وفيه أنفة كثيراً ما كانت تبلغ درجة البلاهة . وقد غلب عليه « الكاتب » وصار لقباً له وعلماً عليه ، كما حدث لعبد الحميد من قبله بقرون طويلات المدد . ولم تكن مزيتة الابتكار أو العمق بل أنه ما من فكرة يتناولها إلا وسعه أن يحلوها في أحسن معرض ، وإلا استطاع — إذا لم تكن مما ابتكر — أن يضيف إليها ويزيد عليها ما ليس دونها . على أن أبرز مزاياه كانت أن أسلوبه صورة لنفسه الحية الحساسة المتوقدة . وكان دأبه أن يدور بعينه في بنفسه ليطلع على كل ما فيها ، وأن يجيلها فيما هو خارج عنها ليعيط بكل ما وراءها ، ولكنه قلما رأى شيئاً خارجها إلا من خلالها . وكان على قوة طبعه شديد الحياء كثير الحذر ولا سيما مع النساء اللواتي لم يألف من مجالسهن إلا العائلية ، ولم يكن احترامه لهن كبيراً وإن كان على ذلك لا يحتقرهن . وعنده أن المرأة أداة لبقاء النوع ، وأن جمالها ليس إلا شركاً تنصبه الحياة ويحسن كثير أن يتجنب ، وأن الرجل أجمل من المرأة على العموم ، لأن جمال الرجل الجميل لا يستمد أكثر فتننة — كجمال المرأة — من الغريزة النوعية . وكان سلوكه إزاء المرأة مظهراً لرأيه فيها ونعني أنه كان يعدها مخلوقاً جديراً بالعطف والمداعبة في غير ضعف وبدون أن يمنع ذلك أن تحكمها دائماً وتلزمها طاعتك .

ومن سخر الأقدار أن هذه الطبيعة القوية المتمردة إلى حد كبير تكون

في جسم ضئيل هزيل لا يحتمل شيئاً ! فقد كان صاحبنا قصيراً ضامراً الجسم دقيق العظام واهى التركيب ، وليس فيه شيء ينم على هذه القوة التي انطوى عليها إلا وجهه ، أو بعبارة أدق جبهته الواسعة العريضة المتألقة ، وعيناه الواسعتان الحادثتان ، وهامته المستطيلة القوية ، وأنفه الكبير الأقنى ، وشفته المقوسنة الغليظة بعض الغلظ . على أن قوته تنحصر على الأكثر في جبهته وعينه . ولم يكن يخفى عليه هذا السر فكان يبلغ بنظرة يسدها ما لا يبلغه الرجل الضخم بالعصى في يده . ولكنه كان على ذلك رضى الطباع ، دمث الأخلاق ، سريع الفهم إلى الرضى . ودخلت عليه شوشو وهو لا يحسها ، ووقفت خلفه وهو مشغل

بترع غطاء حقييته ، ووضعت كفها على عينيه ، فأمسك بهما ونزعهما عنه برفق وقال :

- آه . شوشو !

- نعم أنا شوشو . من كنت تحسبني ؟
فاحمر وجهه الأسمر قليلا وابتنسم .

وكانت لآخر عهدها قبل عام طفلة ألفاها في هذه اللقية امرأة بارعة الشكل
ممشوقة القند ، تغترف العين بشارتها وترتاح النفس إلى نضارتها : سوداء
العينين عميقتهما ذهبية الشعر ترسله أمواجاً على كتفها ، بيضاء مشرقة ،
حمرء الخدين قرمزية الشفتين لينتهما . عينها نار ، ولحظها حب ، وصوتها
تغريد ، وقوامها أتم ما يكون استواء وصحة وعزماً ونشاطاً ، وحركتها
مملوءة ظرفاً ورشاقة ، رقيقة كأنها النسيم ، جليلة كأنها ملكة ، ذائبة حيناً ،
متدللة متجبرة أحياناً ، ساخرة طورا ، وطورا ساذجة غريزة ، جميلة
في كل حال . وقالت وهي تتعمد أن تتجاهل معنى ما يفعل :

- دعني أخرج لك ما تريد من الثياب . أن هذا عمل النساء
لا الرجال . أصعد أنت إلى « فوق » فأنهم ينتظرونك ليفطروا معك
وساعد لك كل شيء .

- ولكنك لا تعرفين ماذا أبغى ؟

- أعرف كل شيء ! وماذا تستطيع أنت أن تعرف أكثر مني ؟ أنك
كالطفل الصغير يحتاج حتى إلى من يلبسه الحورب ! .
فلم يدرك أعرفت وتجاهلت أم هي لا تعلم شيئاً مما يحدث ، وكانت نفسه
قد سكنت فائز أن يطوى الأمر ، وبدا له أن هذا خير ما يمكن أن يصنع ،
وقال مغالطاً : « ولكني لأعرف من أين أصعد » .

- إذن لنبدأ بالصعود وبعد ذلك نعود إلى هذه الحقيبة . أليس كذلك ؟

- نعم .

- هيا . أذن .

ووضعت كفها على كتفه اليمنى وجعلت تطفر إلى جانبه وتتواثب
كالفراشة .

الفصل الثالث

« كل لتكون فيك قوة . اذ تسير في الطريق . . »

صعد إبراهيم وشوشو - أم ترى ينبغي أن نقول شوشو وإبراهيم ؟ - إلى غرفة الطعام فالفيا حول المائدة « نجية » كبرى اخوات شوشو ، وابنيها . وهي سيدة جميلة الوجه ، ولكنها ضخمة الجسم مترهلة اللحم ، ذات معدة - وما لنا لا نقول « كرشا ؟ » تمشي أمامها . ولها إيمان راسخ بالمشائين في الظلام ، ونعني بهم الشياطين والعفاريت والأرواح ، وبأولياء الله الصالحين ، غير إن إيمانها بأولئك أقوى وأعمق منه بهؤلاء ، وأكثر ما تدور أحاديثها وقصصها بالليل عليهم ، وما أقل من لم تقل له « لاشك أنك رأيت عفريناً . لقد رأيتهم أنا بعيني هذه مرات عديدة في البيت وحوله . ولكنهم لا يؤذونك إلا إذا كلمتهم أو تعرضت لهم »

وللعفاريت معها حادثة لا تكف عن ذكرها كلما عرضت مناسبة . وتلك أنها فيما مضى من الزمن وفي مفتتح حياتها مع زوجها ، قامت بالليل إلى حاجتها واستصحبته معها نخادمتها فاطمة الزنجية التي عرفتها في الفصل السابق ، فلم تكذببلغ الحمام حتى سمعت وقع مخوافر المعيز صاعدة ونازلة على السلم ، وعابثة في المطبخ ، فصرخت وعادت تعدو إلى غرفتها ولكن زوجها أنى أن يصدق أو يلتفت إلى سبب فزعها « فلما أصبحنا وجدنا كل الأطباق التي كانت في المطبخ مكسرة ، ووجدنا ثلاثة من الغنم ميتة . فهل كسرت الأطباق نفسها ؟ ومع ذلك يأبى ابن عمي (أى زوجها) أن يصدق ! » .

وتضرب بطن يسراها على ظهر يمانها فوق كرشها الكروية ومن أجل هذا تعنى قبل الذهاب إلى مخدعها بأن تمر بغرفة بنينا ، ومن

تكون في ضيافتها من أخواتها ، وأن تمسح رءوسهم وتتلو آية الكرسي ثم
تستودعهم الله وتمضي .

وهي من الطراز المحافظ الذي يستنكر كل جديد ويعده بدعة يجب أن
يستغفر الله منها ويعاذ به من شرها . ولزوجها بيت في رمل الأسكندرية
مد إليه أسلاك الكهرباء فاعترضت وقاومت ما استطاعت ، فلما أعيأها
الأمر وأصر زوجها على الكهرباء أبت كل الأباء أن تدخلها غرفة نومها !
فرأى زوجها أن يرضيها بهذه التضحية الصغيرة . ولا يزال البيت تضيئه
الكهرباء إلا هذه الغرفة التي بقيت كأنها قطعة متلكئة من الزمن الغابر . وجهاز
زوجها الحمام بالأدوات الحديثة فأغضبها منه هذا ، وأصرت على الاستحمام
في « الطشت » وأهمال الحوض !

أما التليفون فله في بيتها بالرميل عشر سنوات ومع ذلك لا تعرف كيف
تستعمله ، وتقول شوشو عنها أنها تطلب الرقم هكذا « ٩ الرمل ١٥ » بدلا
من الرمل ١٥٩ مثلا !

ومقياس الصحة عندها مقدار ما يصيبه المرء من الطعام ، فأصح الناس
من يلتهمه التهاما ويأتي على ما أمامه كأنه لن يصيب رزقه غدا . بل قيمة
المرء رهن بذلك ، فأحق الناس بالإكبار الأكل البطين أما من يأكل بقدر
أو لا يأكل حتى يجوع فهو طفل لم يكبر ولم يشب عن الطوق ولو جلله الشيب
وقوست قناته السنون أو الحادثات . وأثنى ما تهديه من النصائح إلى المريض
أو الضعيف أو الحزين أن « كل ثم كل ثم كل » هذا عندها الدواء من الحمى
والغص والصداع النخ . ولا تصدق الأطباء فإنهم يميئون الناس قبل أن تنمرغ
آجالهم ! وما بعجيب بعد ذلك أن يصغر في عينها صاحبنا ابراهيم وإن كان لا
قد ناهز الثامنة والعشرين وماتت له زوجة وبنون لم يعيش منهم إلا واحد .
وجعلت تسأله على الطعام عن صحته ، وعن العملية الجراحية التي أجريت
له وكيف احتمل الكلوروفورم — أو البنج كما تعرفه — وعن المستشفى الذي
أقام به حتى شفى وتقول : « يا ابن خالتي ! كيف رضيت بالبنج ؟ » .

فيقول : « وهل كان من الممكن أن أحتمل العملية بغير ذلك ؟ »
فهمز رأسها غير مصدقة ، وتساءل : « وهل كانت العملية ضرورية ؟
لقد لبثت لا أنام منذ علمت بخبرها ، حتى طمأنني ابن عمي وأنبأني أنك
خرجت من المستشفى ، ومع ذلك لم أطمئن تماما إلا بعد أن علمت أنك
أت إلينا . وكيف صحتك الآن ؟ »
— كما ترين ، حسنة .

— لقد كان دخولك المستشفى حماقة ، فكر .. أن المستشفى كالمجزرة
ولا بد أنه مملوء بالعفاريت .

— لا . لا . لا عفاريت ولا ..

— كيف يمكن ؟ الدم .. والذين يموتون فيه . أن بيتنا هذا جديد ،
ومع ذلك فيه عفاريت . ولو كان زوجي هنا لقص عليك كيف تطاع وتنزل
كالمعيز على السلم الخشبي .
فقاطعتها شوشو قائلة :

— إن ابن خالتي ينام وحده في ذلك الجناح ، ولا يحسن أن يعرف
هذه الحكاية التي سمعناها مائة مرة .

فقال إبراهيم : « دعها يا شوشو تقصها ، فإن سير العفاريت لا تفرغني
ولكم تمنيت أن يظهر لي عفريت ! ولكم سرت عمدا بين المقابر في الظلام
الحالك ، آملا أن أرى واحدا . »

فصاحت به ليجية : « ماذا تقول ؟ أجنون أنت ؟ » .
فلم يغضب إبراهيم لأنه كان أعرف بها من أن يثيره كلامها ولم يزد على
أن قال لها :

— وما الضرر ؟

— الضرر ؟ أخطر أن تصنع هذا هنا ! لقد كان أحمد خادمتنا عائدا
على حمارة من المحطة في بعض الليالي ، فلما دنا من البيت وقف الحمار

بغته ، ونشر أذنيه وأدار رأسه ، ونظر أحمد فإذا الطريق قد سده مارد
ولكن الله ألهمه أن يتلو آيات من كتاب الله ، وأن يستحث الحمار فنجا
ولم يكد . فحاذر أن تخرج في الليل وحدك ! إنك لست في مصر ، ولا
آمن عليك أن خرجت ، وسأمر الخدم أن يخبروني كما هممت بذلك !
يجب أن تعود سليما إلى بيتك .



وكانوا قد فرغوا من الطعام ، فضت به شوشو إلى غرفة أخرى ،
وجلست إلى جانبه تستخبره عن المستشفى ، وكيف كان يقضى ليلته فيها ،
ومن كان يؤنسه في وحدته ، وكان يوجز ما استطاع في أجوبته ، وتأبى
هي إلا الإطناب وتلح فيه :

— قل لي . قل بالله (وأحاطت عنقه بذراعها اليمنى) أكنت تقضى الليل
كله وحدك ؟

— نعم :

— ألا يجالسك أحد ؟

— الزوار :

— وإذا لم يزرك أحد ؟

— أنا أحب الوحدة .

— ولكن هبني كنت مكانك : فأنا لا أحب الوحدة ولا أطيعها .

— هناك الممرضات .

— آه . أهن شابات أم عجائز ؟

— لا أعرف إلا المستشفى الذي كنت فيه :

— حدثني عنه إذن ! لماذا لا تتكلم ! أن هذه ليست عادتك ! أهنالك

شيء لا يصح أن أعرفه ؟

— كلا .

— إذن لماذا تأبى الكلام عن المستشفى ؟

— لأنها ذكرى . : تؤلمني .

— هذا صحيح ! ولكنك جدير بأن تحمد الله على شفائك مع ذلك؟
فصمت قليلا وقال وهو مطرق : « لأدرى ! »

فاعتدلت ونظرت اليه بعينها العميقتين ، ووضعت يمينها على جبينه ،
ورفعت رأسه وسألته : « كيف لاتدرى ؟ لست أفهم ! »
فقال وجفنه مرخي ، ونظرتة الى الأرض ، وأصبعه ينفض السيجارة
شوشوا اسمعي ! انك لاتزالين صغيرة .

كلا ! لست صغيرة ! أنا أطول منك . أما ترى .

ونهضت ورفعت أطراف كفيها الى كتفيها ، وعيناها الى صدرها
ثم هوت بيديها الى ركبتيها ووضعتهما عليهما ، وانحنت اليه ، وحدقت
في وجهه باسمة ، وهمت بالكلام ولكن هيئته صلدتها ، فأسرعت الى
مكانها بجانبه وجذبتة من كتفه وقالت :

— مالك ؟ قل لي !

— فقال وهو منحن الى الأرض :

لاشيء اطمئني ! كل شيء . . .

— كل ماذا ؟

فنهض ومضى الى النافذة ويداه في جيبي معطفة ، وجعل ينظر
من خلال الزجاج دون أن يرى شيئا ، ولحقت به ووقفت الى يساره
هنيهة ، فلما لم يلتفت اليها طوقته بذراعيها وقالت وهي تجذبه جذبة
بعد كل كلمة :

— ابراهيم ، ابن خالتي ! مالك ؟ ما تشكلم ! لست أفهم !

— ربما كان خيرا لك ألا تفهمي .

— فأدارت إليه وجهها وقالت :

— ولكني لا أستطيع أن أراك هكذا ! ألسنت بنت خالتك ؟ أم أنت

تستصغرنني ؟

— كلا يا شوشو .

— قل لى إذن ولا تدعنى أنألم من أجلك هكذا بسبب جهلى ما يؤلمك .

— ماذا أقول ؟ لقد دخلت المستشفى لأتداوى من مرض فشفيت

ولكنى خرجت بمرض جديد شر ما فيه أنه لا طبيب له إلا . . .

— إلا من ؟ قل أسرع !

— لا أقوى على أكثر من هذا يا شوشو . بل أقول أنى ما أتيت إلى

هنا إلا لأتداوى ولكن بلا جدوى على سنا يظهر .

فجرى ببال شوشو خاطر لحت إليه ومنعها الحياء والأدب والمحافظة

على كرامة ابن خالتها أن تفصح عنه وجعلت تتمم :

— أ . . . سامحنى ولكن أنت فى حاجة إلى . . . ما ..

فالتفت إليها بسرعة وقلب أدرك غرضها ولم يدعها تم الكلمة وصاح

وقد فاضت نفسه بالإحساس المكتوم :

— يا بلهاء !

وانطلق هاربا من الغرفة . وخلفها واقفة مبهوتة واجمة تمحلق فى أثره

وفى مفتوح من الدهشة حتى كأنما أحالها بصيحته هذه تمثالا للبلاهة .

الفصل الرابع

« الى ان يفيح النهار وتنهزم الظلال
انهب الى جبل المر والى تل اللبان . »

قبل أن نتقدم خطوة أخرى في هذا التاريخ — أو في هذه الفترة من حياة صاحبنا ابراهيم — نذكر راجعين بالقارئ بضعة أسابيع لنجمل ما عساه يكون مشكلاً مما أسلفنا قصه في الفصل السابق . وهي أوبة تردنا إلى أيام عشرة قضاها في مستشفى لا حاجة بنا إلى اسمه إذ كنا لن نعود إليه مرة ثانية ، وكانت طلبتنا عنده قد زايته . وكان كبير الأطباء صديقاً لابراهيم فأوصى به الخدم والمرضات ، وأطلق له الحرية في استقبال الزوار ، وأمرهم أن يتوخوا في ذلك مرضاته . وكان هذا شرط ابراهيم لما ألح عليه الطبيب أن يجرى له العملية ، فقبله واكتفى بأن ينهيه إلى وجوب الاقلال من تقبل الزيارات في الأيام الأولى على الأقل .

وفي صباح اليوم المضروب للعملية ذهب ابراهيم وحده إلى المستشفى دون أن يخبر أمه أو ابنه .. وهما كل أهل بيته إذا أسقطنا الخدم — كأنه ماض إلى عمله . وتقدم إلى غرفة الجراحة يجأش رابط ونفس — لا نقول مطمئنة — ولكننا نقول غير مكترثة لما عساه أن يكون . ومع أن الطبيب احتاج أن ينشقه مقداراً كبيراً من الكلوروفورم ، فإنه لم يكده يغسل يديه حتى كان ابراهيم قد فتح عينيه وأفاق إلى حد كبير ، فحملوه وهو متنبه ووضعوه في سريره وتركوا إلى جانبه ممرضة تعنى به ، فلبث نحو ساعة لا يتحرك ولا يتكلم ولا يصنع أكثر من أن يدير عينيه في السقف والجدران أو يرفع يديه من حين إلى حين ويمسح جبينه لغرض واحد هو أن يثبت لمرضته أنه مفيق . وهي تحدج به بنظرها ولا تكاد تحول لحظها عنه كأنما تعجب لجلده ، ثم لفت وجهه فجأة وقال : « ما أسمك ؟ » ولم يكن ذلك منه التفات سائل عادي بل كان أشبه بحركة متوجع .

ويظهر أن هذا آخر ما كانت تنتظر أن يسألها عنه ، فلم تجد
الجواب حاضرا وتلعثمت وهي تخبره أن اسمها « ماري » وحول وجهه
هنا قبل أن تنطق وعاد إلى صمته ، وكأنما توهمت أنه لم يسمع ونخشيت
أن يسرعه حسابانه أنها لم تجب أو كأنما ملت طول الصمت الذي ألزمها
إياه — والصمت أشق على النساء منه على الرجال — فالت إليه وحنّت
عليه وكفاهها على السرير لتعتمد عليه وقالت :
— أقول إن اسمي ماري .

فتصلبت عضلات وجهه وانزوى ما بين عينيه وتضاغطت شفتاه هنيهة
قبل أن يقول لها : « نعم سمعت .. أرجو ألا تضعي يدك على الفراش فيتحرك .. »
مؤقتا على الأقل .. » .

رفعت يديها بسرعة عن السرير وقد أدركت أن صمته تجلد وأنه يكابد
من الألم ما يود أن يكتبه لسبب ما ، ونهضت وقد حدثتها نفسها أن خير ما
تحسن به إليه هو أن تدعه وحده . وفطن هو أيضا إلى ما خطر لها فأومأ إليها
بعينيه فعادت إلى كرسبها فقال :

— هل تعلمين أن أهلي يجهلون أنني هنا ؟

— كلا !

وبدا عليها شيء من الدهشة فلم تدر ماذا تقول أكثر من « كلا » ومضى
هو في كلامه فقال :

— أرجو أن تغتفري لي ما أنا قائل . إن وجودك معي الآن على الأقل
لا يكاد يجديني . وأنت في الخارج أنفع لي منك هنا . كم الساعة الآن ؟
— التاسعة والرابع .

— لا يزال إذن في الوقت فسحة . إن أخى على موعد معي هنا . وهو
لا يعرف شيئا مما حدث ولا يتوقعه . وكل ما أطلعت عليه هو أنني سأعرض
نفسى على الدكتور .. وأنى أحب أن يكون معي . وسيحضر بعد قليل .

والآن افتحى الدولاب وناولينى الورقة التى فى الجيب الأيمن من ستري ..
أشكرك .. متى جاء أخى فأطلعيه على الحقيقة وهونى عليه الأمر ما استطعت،
وإذا طلب أن يرانى فقولى له إنى نائم - فإنى أخشى أن يكثُر من الأسئلة
الفارغة البلهاء .. وأكدى له أنى كذبت هذه الورقة بعد أن أفقت من العملية
وزال عنى ألمها وذلك ليطمئن قلبه - إنها كذبة ولكن الكذب يكون فى بعض
الأوقات ضروريا واطلبي منه أن يعمل بما فى الورقة حرفيا .. أحسبني
تكلمت أكثر مما يلزم فهل أستطيع أن أعتد على ذكائك وحسن تصرفك ؟
فطمأنته وأكدت له أنها ستؤدى الرسالة كما يجب أن تؤدى وسألته قبل
أن تنصرف حاجة أخرى ؟

- نعم أن تعودى قبل خروجه وتخبرينى بما فعلت . ويمكنك أن تقولى
له إنك آتية لترى أنا أم مستيقظ . وهذا من قبيل الاحتياط حتى أستطيع
أن أصلح ما عساه يقع من الخطأ وحتى أتوقى مالا أود حدوثه .

- ٢ -

وجرى كل شيء على ما رسم : زيارات قليلة قصيرة يؤديها له أهله
وخاصة خلصائه ، ووحدة طويلة تتخللها فترات جعلت تطول شيئا فشيئا
تؤنس فيها ماري بمحضرها وجديتها . فنشأت بينهما ألفة وعلم منها أنها سورية
الأصل وأنها تعلمت فى إحدى مدارس الراهبات فى سوريا ثم تزوجت
شابا إيطاليا جاء بها إلى الإسكندرية ولبت معه ثلاث سنين قضى نحبها بعدها
ونخلف لها طفلا ، فزاولت الحياة أولا ثم التمريض وما هى ذى إلى
جانبه .

ومن العسير أن يصف المرء « ماري » هذه وصفاً دقيقاً . ولعل من
المستحيل أن يستطيع المرء وصف إنسان ما على وجه الدقة . ولكن من
الممكن أن نقول - ومن الممكن أن يصدق القارىء - أن ماري كانت

تبدو في بعض الأحيان جميلة وفي البعض الآخر غير جميلة تبعاً لما لها
الصحية والنفسية . وندع هذا مع ذلك ونقول عن مظهرها الجثمانى أنها
ذات رجة ناطق دقيق المعارف ، وأن لونها أقرب إلى الشحوب ، وأنها
ضامرة الجسم ، وأن من يراها يخيل إليه أنها ظمأى كالعود من الزهر
انقطع عنه الماء ، وأنها لو سقيت هذا الشراب ، الذى تقرأ فى عينيها
ولونها التياجها إليه لربت واهترت . والمرء يستشف فى وجهها النزوع
إلى انتظار رأيك قبل أن تفضى إليك برأيها — وإلى انتظار عمالك أيضاً
على الأرجح قبل أن تقدم هى على عمل . ومما أكد هذه النزعة فيها ،
مزاوتها مهنة التمريض . والمستشفى كما يسهل أن يدرك القارىء — أشبه
ببقعة معزولة عن العالم أو منتزعة من أحشائه ، يكون فيه التفكير أكثر
من العجل والقلق والملال أكثر من التفكير ، ولا يجرى التفكير فيه ، حين
يجرى ، إلا فى دائرة ضيقة ، وقلمها يؤدى إلى نتائج خيالية . ولكنه على
ذلك مسرح تمثل عليه روايات تدانى فى جلالها واتساقها ووحدة أحيانا ،
خارجيات سفوكليبس وشكسبير ، ويساعد على إكسابها هذه المزايا ،
تركز العواطف وشدة توقف بعض الحيوانات على بعض .

وقد خلق إبراهيم عطوفا أليفا ، سريع الإحساس بالجمال ، ليس
أقوى من نفسه من عواطف الأدب والحب ، وخلقت ماري سمحة النفس
رضية الطباع ، حساسة كالوتر المشدود . وشاءت المقادير أن يتشابها
فيما وقع لهما ؛ فهو فقد زوجته وهى فقدت بعلمها . وكل من الفقيد
خلفا وراءه طفلا ، وفى كلتا النفسين ذلك الحنين الممزوق الذى خلفه
موت الفقيد ، ولم تجد الحياة بما يطفئه أو يسكن لأعجه . وكان
إبراهيم على حياته ، لا يكاد يألف إنسانا حتى يفتح له قلبه ، ويرسل
معه نفسه على سجيته ، وقل أن يتبسط لأول وهلة ولكنه كان
صاحب فكاهة وعنبث ، وما عرفته امرأة إلا أعجبها منه ما فيه من
الدعابة ، والفكاهة من أقصر الطرق إلى قلوب النساء ، فلم تمض إلا

خمسة أيام حتى كان إبراهيم قد تعلق بمارى ، ومارى قد شغفت بإبراهيم ، وحتى صارت غرفة المستشفى فردوس عاشقين ، — إذا صدقت الظواهر — وما أكثر ما تلاقت شفاههما فى قبلات فرحة فى ذلك الفردوس المنزوى ، الذى يحسبه الناس مستشفى فحسب !

واستمرت العلاقة بينهما بعد أن أراح المستشفى إلى بيته ، وكثرت المحادثات بينهما بالتليفون والمقابلات . غير أن الإرادة التى وهنت مع المرض ، عادت مع الصحة ، ففطن إبراهيم إلى مافى علاقتهما من الجرج وأدرك أن الأمر يوشك أن يقلب مشكلا . ورأى أنه لا يستطيع أن يرضاها زوجة ، وأنها تطمع فيما هو أسمى من مرقية الخليفة ، وهبها لم تطمع فإن ذلك لا يحل مشكل حياته ، ولا ينيله مأربه ولا يبلغه ما يتمنى من السكون إلى الحب المنزل الذى لا يعدل به شيئا ، فخطر له أن ينأى عن القاهرة زمنا عسى أن تطيب نفسه عنها ، وأن تروض هى نفسها على بعده . ولما لم يهله التذكير إلى خير من ذلك ، صمم عليه وشرع فى إمضاء هذا العزم من توه . والتحقا ليلة سفره وتترها قليلا ولما آن أن يفرقا سأله :

— متى نلتقى غدا ؟

— ليس غدا .

فقالت وهى تبسم ولا تدري ما عقد النية عايه : « ماذا يشغلك عني يا براهيمو ؟ » وكان براهيمو ، أسمه عندها تناديه به حين تداعبه . فأجابها وهو يتكلف الابتسام :

— يشغلنى أنى مسافر .

— مسافر؟؟ كيف هذا ؟ وإلى أين ؟

— أوه ! لا إلى مكان معين . سأنتقل من بلدة إلى بلدة . ومن

قرية إلى أخرى ثم أعود فيما أرجو .

— وما داعى ذلك ؟ متى عزمته عليه ؟

— لا داعى له إلا أن دكتورك أمرنى به وألح على فيه .

فزاد لونها شحوبا وأظلم وجهها وأطرقت لحظة ، ثم رفعت رأسها
وحديث في عينيه وقالت :

— إنها إرادتك أنت لامشورة الدكتور ! لا تمار ! إني أعرفك !!
فلم يزد على أنه ابتسم ابتسامة من يستنكف أن يكابر ولا يكثرث
لما تظن به ، فسأل ماتجمد في نظرها ولانت عضلات وجهها وبدأ فيه
الضعف ، وأمسكت بكتفه وقالت وهي تهز ولا تعباً بمن عسى أن
يراهما من الناس :

— لا لا ! لا تذهب ! قل إنك باق !

فرفع كفها عنه في رفق وقال بلهجة من يريد أن يطمئنها ، وإن لم
يكن في كلامه ما يعين على ذلك :
— ولكن هذا مستحيل يا ماري ! لقد أبرقت إلى بعض أقاربي أنبئهم
باعتزائي السفر غدا وأطلب أن يرسلوا من ينتظرنى .
— أبرق إليهم مرة أخرى بعكس ذلك .
فهزكتفيه وقال :

— وما الفائدة ؟ سأسافر بعد غد إن لم أسافر غدا ! فالرحلة لا بد
منها على كل حال .

وهم أن يدعوها إلى التمشي قليلا ليسرى عنها ، غير أنه عاد فرأى
أنه من الأحزم والأجدى أن ينتهي الوداع حيث هما . فاكتفى بأن يهون
الأمر عليها — وعلى نفسه أيضا — بوضع كلمات ، ثم ربت لها ذقنها
بأطراف أصابعه وسلم ، فقالت بعد أن تلففت يمينا ويسارا كأنما
كانت تحدثها نفسها باختلاس ضمة : « ياله من حلم قصير » .
وكان قد خلى يدها ونأى خطوة فقال :

— لا لا ! لا تقر لي هذا يا ماري ! لو كنت ممن يتشاءمون لما حزن وقع ذلك

في نفسي قبيل سفرى !

فنبهها ذلك فدنت منه وأقبلت عليه تؤكد له أنهما سيلتقيان .
أما هو فسلم مرة أخرى وشررها بيده وهويبتسم ولم يجب !

الفصل الخامس

« قلت أكون حكيما اما هي فبغيدة عني »

رجع بنا الحديث إلى الريف ::

بعد أن انطلق إبراهيم من الغرفة التي كان فيها مع شوشو وخرج منها مارقا كالسهم ، انحدر مسرعا إلى خرفة نومه واستلقى برهة على « كنية » فيها وأغمض عينيه كالذي يريد أن ينام ، وما به من نوم ، فكر أمامه تخيلته كل ما وقع له مع « ماري » مما قصصناه وما لم ننقصه في الفصل السابق ، فعاوده الحنين إليها والأسف على فراقها وال ألم لما خلفه لها ، ولم يكن إبراهيم ممن يحبون أن يخذعوا نفوسهم وينحلوها من المزايا ما عطلت منه ، وكان يؤثر أن يغمط نفسه وأن يعدها مجردة من كل ما يجعله حبيبا إلى النساء مرموقا منهن ، ولعل سبب ذلك أنه كان أحسن بالجمال ، وأحسن تقديرا له ، وأشد شعورا بمواطن الضعف في نفسه ، وأفطن لعيوبه من أن يتأق له أن يغضي عن هذه العيوب ألا يكثر لها ، أو أن ينحيا عن عينيه ولا يدعها تبرز وتجب مزاياه ، ولذلك لم يلبث أن راح يتصور « ماري » متلهية عنه بكل ما يعدها صباحا وجمالا له ، ومن هو إبراهيم حتى تشغل نفسها به ونشيج بوجهها عن الدنيا من أجله ؟ أن صباحا الذي ألقى بها حرارته بين ذراعية خليق أن يلتقي بها بين ذراعي سواه ، ولن تعدم رجلا يكون أفن منه وأوفى أيضا ! وأي حق له عليها بعد أن أثر أن يطرحها ويفر منها على هذه الصورة ولا يترك لها حتى عنوانه ؟ وهكذا ظل يحمل على نفسه حتى آلمها فنهض وقد ضاق صدره وفتح النافذة لتخلص أنفاسه قليلا ، وكانت نافذته تطل على فناء خلق رحيب ، بعضه - وأكثره - بستان زهر وشجر باسق ، وبعضه بيوت للدجاج والأوز والحمام والأرانب وغيرها ، وحوله سور أسفله مبني بالآجر وأعلاه مصنوع من قوائم من الحديد مغطاة من الداخل بالحصير ، ليحجب من يكون في الداخل

من عيون المارة . وفي الجنوب باب للخدم وقد يدخل منه الزوار من النساء أحياناً إذا شئن ، وكذلك من الرجال الذين يمتنون إلى أهل هذا البيت بصلة من قرابة أو مصاهرة . ورأى إبراهيم الخدم يدخلون ويخرجون ، وحديد الباب يلمع في ضوء الشمس فأدرك أن دهانه جديد ، وراقه أن يراقب الداخلين والخارجين وما يصنعون إذ يفتحون الباب أو يغلقونه ، ومبلغ التفاتهم إلى الدهان ، وعنايتهم باتقاء تلويثه لأيديهم أو ثيابهم . فلم يجد الرجال — وكانوا قائلين على كل حال — يتفاوتون تفاوتاً يذكر ، وكان كل منهم يدفع الباب برجله فيفتحه ويدخل ثم يعود فيدفعه من الداخل أيضاً أما النساء فكان أكثر اختلافاً : جاءت أولاهن — أو أولى من أبصر منهن — في ثوبها الأسود الذي يكنس الأرض وراءها وذراعاها مثنيتان إلى صدرها وعموديتان عليه ، وكفاها مفتوحتان كأنما تريد لتتقي بهما شيئاً ، فلما بلغت الباب دفعته براحتيها ودخلت وكأنما أحست أن شيئاً لضيق بهما فنظرت إليهما وصاحت « يوه » ووقفت مكانها حائرة ، ثم كأنها لم تدر ماذا تصنع فجعلت تتلفت يمنة ويسرة ومضت إلى أقرب رجل أخذته عينها لتستشير على الأرجح ، ولم تصوب نظرها مرة واحدة إلى ثوبها لترى ماذا أصابه ! وبعد قليل جاءت أخرى وعلى رأسها سلة مغطاة فلما بلغت الباب منحنه جنبها ودفعته بكتفها ، ودخلت مطمئنة غافلة عن الخطوط وأنصاف الدوائر التي ارتسمت على ذراعها مما يلي الكتف ! فرفعت هذه المناظر وأمثالها عن نفس إبراهيم ، وانبسبت أسارير وجهه ولمعت في عيني، ابتسامة خفيفة ، وإنه لمشرف على هذه الصور وإذا بصوت من ورائه يقول : « خالي ! شوشو تسأل عنك ! » وكان المتكلم محمد ابن نجية . وهو وأخته يدعوانه خالهما اختصاراً ، فالتفت إليه كالمفيع من حلم أو كأنما كان قد توهم وهو مطل من النافذة أنه مشرف من السحاب ، فلما سمع الصوت الذي يناديه أحس كأنما هبط إلى الأرض . ولكنه إحساس لم يطل ، فتناول المصبي ورفعه إليه وطبع على فمه قبلة أبوية وسأله : « أين هي ؟ » فقال الغلام : « في غرفة الاستقبال »

ويظهر أن إبراهيم استغرب هذا فصمت قليلاً كأنه يفكر ثم قال :
« حسن قل لها إنى هذا لا أصنع شيئاً ، فلتأت إذا شئت » .

فخرج الغلام يعدو ، ومشى إبراهيم إلى السرير ووقف معتمداً بظهره عليه . وكان دقيق الملاحظة كثير التفكير في كل ما يرى أو يسمع ، ومن عادته إذا خلا بنفسه ولم يرغب في المطالعة أن يدع خياله يرسم له مناظر ومواقف وينشئ محاورات وأحاديث . فجعل يفكر في قول الصبي أن شوشو في غرفة الاستقبال : في غرفة الاستقبال ؟ لقد تركها هناك ! فهل تراها لم لم تبارحها . وكم دقيقة أو ساعة مضت عليها منذ غادرها ، وامتدت يده إلى جيبه مدفوعة بحركة لدنية وأخرجت الساعة ، وتأملها واكتمل لم يقرأ فيها شيئاً بل ابتسم إذ تذكر أنه لم ينظر إلى الساعة حين غادر شوشو فلا يستطيع أن يعرف كم لبثت في هذه الغرفة . ولكن لماذا تبقى في الغرفة وحدها ولا تزايلها ؟ ما أغرب أمر هذه الفتاة ! أتراها ساءها ما بدر منه ؟ ربما ! بل لا شك في ذلك فإنها فتاة متعلمة مهذبة ولا بد أن يكون قواه لها « يابلها » قد حز في نفسها ، وانطلق يلوم نفسه ويعنفها ويستهنجن شكاسة طبعه .

ودخلت شوشو تنساب كالماء فتقدم إليها باسماً كلتا يديه وقال :
— أعتذر إليك يا شوشو ! سامحيني ! لقد أسأت إليك وكان ذلك سوء أدب مني بلا ريب ، فهلا تغفرين ؟

فتناوأت كفيه في كفها وجذبتهم إلىها وفي عينيها نور البشر وحول وجهها كالهالة ، وقالت وأمالت رأسها إلى كتفها اليسرى : « تعتذر إلى ؟ مم بالله ؟ هيه ؟ تعالى هنا » ومضت به إلى الكنية : « قل لي ماذا كنت تصنع وحدك هنا ! أتراك جئت لتقضي الوقت كاه في هذه الغرفة ؟ اسمع ! سأغلقها بيدى بعد أن تستيقظ من النوم واحفظ مفتاحها معي ولا أسمح لك بدخولها إلا وقت النوم أفهمت ؟ » .

فأعداه بشرها وقال وقد شاع في كيانه السرور : « فهمت وسعدت » .

وأطعت ! والآن ماذا كنت تصنعين أنت في غرفة الاستقبال وحدك ؟ » :
فدفعت رأسها إلى الوراء قليلا وهزتها كما يفعل العصفور بعد أن
يشرب وقالت : « أنا ؟ أوه ! لا شيء ! وماذا حساني أفعل وأختي تأتي إلا
أن تعدني ضيفة ولو أقمت معها العمر كله ! » :

وفي هذه اللحظة سمعا صوت عجلات ووقع حوافر خيل ، فأصغى
إبراهيم أما شوشو فمضت الى النافذة وأطلت منها ثم التفتت إلى إبراهيم وهي
تقول : « الدكتور ! » .

فوقف إبراهيم وقد غاض البشر من وجهه وسألها بلهفة وهو لا يفهم :
— « دكتور ؟ هل مريض أحد ؟ » .

فبادرت إليه وقالت : « لا لا ! إنه الدكتور محمود .. ، قريب ابن عمي
(زوج اختها) ألا تعرفه ؟ له عيادة في البندر ويزورنا من حين إلى حين ،
وكلما جاء قريتنا يعود مريضاً ، والآن سأذهب لاستقبله وأجيبه » :
— ليس إلى هنا وأنا في هذه الثياب أيضاً ؟

فضحكت وقالت : « لا تخف ! بل في الغرفة التي أمام غرفتك .. هذه
(وأشارت إليها) أما ثيابك فما لها ؟ إنك في قرية ولا حاجة بك إلى تغييرها ،
ومضت تعدو .. .

الفصل السادس

« ارجعى ، ارجعى ، ياشوليت ! ارجعى ارجعى ، فننظر إليك » .

لم يسع إبراهيم إلا أن يطل من النافذة . ولم يكن يعرف هذا الدكتور ولا سمع به ، أو على الاصح لا يذكر أنه سمع به ، فقد كانت ذاكرته أشبه بالغربال الواسع الخروق ، وكانت الأسماء أول ما ينسى إذا طال غياب أصحابها عنه ، وكثيرا ما كان ذلك ينجله ، وكان ربما التقى باثنين من معارفه لا يعرف أحدهما الآخر فيمنعه نسيان اسم أحدهما ، أو أسميهما جميعا ، أن يقوم بواجب التعريف . وكان إذا تخرج الموقف ولم يجد بدا من أداء هذا الواجب ، يلجأ إلى المداعبة ويقول لهما : « إذا شئنا أن نتعارفا فلا اعتراض لى ولكن لا تنتظرا منى معونة ! » . فيتقدم كل منهما للآخر باسمه فى حياء واضطراب ويخرج هو بذكر ما كان ناسيا ! .

ولم يفارقه الوجوم منذ سمع كلمة « الدكتور » تند عن شفتى شوشو ، إما لما تركه توهمه حين نظقت باسمه أن أحدا قد مرض فجأة ، وإن كانت شوشو قد بادرت إلى نفى ذلك وطمأنته ، وإما لأنه لم يرتح على العموم لما ظهر له من أن شوشو تقابل هذا الدكتور وإن كان قريب ابن عمها ، وكان هو — إبراهيم — ليس من دعاة الحجاب ، أو لأنه لم يجد فى الساعات القليلة التى أقامها فى الريف ما كان يتوقع من الإيناس والشواغل ، أو لعله كان لكل من ذلك تأثيره . ومهما يكن من تعليل سهومه فإن الذى حدث هو أنه لم يكذب يخرج وجهه من النافذة حتى تراجع وأغلق مصراعها الزجاجيين كأنما كان هذا ما قصد إليه ، ثم عاد إلى الكنية ووضع رجلا فوق رجل وأشعل سيجارة .

وفى أثناء ذلك كان الدكتور قد ترجل وترك المركبة فى حراسة أحد الخدم

ودخل البيت فاستقبلته شوشو في وسط السلم وصعدت به إلى الغرفة المواجهة لغرفة إبراهيم .

وبعد هنية دخلت على إبراهيم فاطمة الزنجية التي كره وجهها وكلامها في الصباح ، وقالت وهي مطرقة بها شيء من الوجل :

— تفضل يا سيدى . .

فنهى السيجارة عن فمه وأرسل نفخة من دخانها ، وأمال رأسه إلى قاحية السيجارة — وكانت في يمانه — وقال لها بلهجة مبطنة بالمرارة :

— إلى أين يا ستى إن شاء الله ؟

فأحست المسكينة أن حادثة الصباح ستتكرر ، فقالت وهي مضطربة :

— عند ستى شوشو والدكتور .

— ما أسرع ما نسينى ستك شوشو بدكتورها . أنا أيضا ضيف كالدكتور ولم أسبقه إلا بساعات .

قال هذا بصوت خفيض وعينه إلى الأرض كأنما كان يحدث نفسه . ثم رفع رأسه إلى الخادمة التي كانت تخالسه النظر وقال :

— ألم تجد ستك شوشو من ترسله غيرك ؟ لماذا لم تحضر بنفسها ؟

— أنا .. أنا .. يا سيدى . .

— أذت تخرجين من هنا .. (بصوت عال) .

فخرجت المسكينة تتعثر وبودها لو استطاعت أن تحلف ألا تريبه وجهها .

أما هو فكان يود أن ينهض ويتمشى في الغرفة ، ولكن الباب مفتوح وفي وسع من يكون في الغرفة المتقابلة أن يراه ، فظل قاعدا وجعل يتمتم :
« قبح الله الريف وساكنيه ! .. لو أنها كانت فتاة من أجلاف الريف فعذرتها .. ولكنها تعلمت . في المدارس الفرنسية أيضا .. وليست الصغيرة على كل حال حتى يغتفر لها ذلك .. الواقع أن مجيئى إلى هنا كان خطأ .. يجب أن أعود أدراجى أو أن أرحل إلى الإسكندرية فهى من

هنا قريبة .. إن أعصابي ضعيفة ولا قبل لي باحتمال هذه الفصول الباردة ..
وأنا لم أحتك بأهل الريف الحقيقيين بل لم أر منهم غير رفيقى من المحطة
إلى هنا .. ذاك الميت الحي الذي لم يكفه إسماعيل واحدا ولم يرض
بأقل من ثلاثة !! وهو مع ذلك وكيل مضيفي ! كيف يمكن أن أطيق
كل هذا الجهل والجلافة ؟؟ » .

وكرر به الفكر إلى ماري .. ماري السمحة المؤدبة الوديعه ، التي
كانت تقرأ في وجهه كل ما يدور في نفسه ، وتسبقه إلى ما يطلب قبل
أن يتحرك لسانه ، ماري التي فر منها بلا سبب ، وحرمت نفسها متعة
حديثها ، وأنس محضرها ولذاذة حبها ، ماري التي كان إذا خلا بها
يجلس على ركبتيها كالطفل ويسند رأسه إلى صدرها ، ويمسح لها وجهها
براحته ، وهي تحنو عليه وتقبله ، وهو مغمض العينين ! فنهض فجأة وقال
وهو يشير بأصبعه : « كلا ! لا بد أن أكتب إليها لتلحق بي في الإسكندرية .. » .
— من هي ؟

فالتفت فإذا شوشو واقفة في مدخل الباب ، وذراعاها ممدودتان وكفاها
على المصراعين ، وقدها المشقوق بادية معالمه كلها بفضل وقفها ، وثوبها
الصوفي المحبوك ، فبهت إبراهيم كما بهت الذي كفر فيما حدثنا الكتاب الكريم ،
ولم يدر ماذا يقول أو يفعل . ولم يكن أسهل من التخلص ، ولكن
خياله النشط جسم له الأمر فارتبك ، وبدا ذلك كأجلى ما يكون في
جموده مكانه ، وفي ثبات حملاقه ، وذهول نظرتة ، وانفراج
شفتيه ، وتصلب يمناه المثنية على صدره .

فزايلت شوشو ابتسامتها وتقدمت إليه وردت مصراعى الباب وراءها
حتى تلامسا ، ووقفت إلى جانبه تحلجه بنظرها ، ثم قالت له وتكلفت الابتسام
وإن كان لونها ممتقعا :

— ستحرق السيجارة أصابعك إذا لم تنتبه !

وكأنما رد صوتها بعض رشده إليه ، فحنى رأسه وصوب عينيه ،
إلى يده وقال : « نعم أشكرك » وبدأ منه مثل حركة من يهيم بالقعود ،
وإن لم يكن وراءه شيء فسندته شوشو بذراعيها فأفاق تماما والتفت وراءه
ثم رفع إليها وجهه الشاحب المتهضم وقال : « أشكرك . ثانية » فقالت
وهي تقسر نفسها على الابتسام ولاتدرى ماذا تهدي إليه :
- من حسن الحظ أن الدكتور هنا ، وإني أستطيع أن أكون
ممرضة عند الحاجة !

فندت عن صدره « آه » قصيرة مثقلة ، كأنها خارجة من صدر
رجل طعن وهو نائم .
- « يجب أن تجلس . إنك مريض » وتناولت يده تجسها .
- كلا ! كلا ! لست مريضا . دعيني .
ولكنه أطاعها وجلس وهو يتأفف ، ويمر يده على وجهه
- إن الدكتور وحده . . اذهبي إليه . . حقيقة لا يلىق أن تدعيه
وحده .

- لأستطيع أن أتركك وحدك ولكن أنتظر .
وخرجت مسرعة .
وبعد دقائق عادت وأخبرته أنها صعدت بالدكتور إلى أختها .
ثم قالت :
- والآن أراك أحسن مما كنت حين تركتك . ألسنت كذلك ؟
- نعم أحسن كثيرا .
- إذن قم والبس بذلتك ، فقد كلفتنى حيلتى كذبة . فعليك
أن تبيض وجهى .
- أى كذبة ؟
- لقد قلت لهما إنك مصر على عدم مقابلة الدكتور إلا فى بذلتك ،
كذبة قلتها كسبا للوقت لأنى خفت أن تطول هذه الحالة التى رأيتك
عليها . وكلفتنى غير الكذبة شيئا آخر ، ولكنى سأحاسبك فيما بعد .
أما الآن فالبس ثيابك وسأسبقك .

الفصل السابع

« أيتها الجليلة في الجنات . الاصحاب
يسمعون صوتك فاسمعي » . .

— ٢ —

صعد إبراهيم إلى غرفة الاستقبال العائلية التي جالس فيها بعد الإفطار مع شوشو برهة ، فألقى الأسرة مجتمعة فيها : محمد الصغير ابن نجية يبكي — أو على الأصح تبكي حنجرتة الجديدة دون عينيه — لسبب لاشك يدعو إلى بكاء مثله ، وفي كفه مرآة صغيرة ينظر فيها ويظهر أن الغرض من ذلك أن يرى في صقالها كيف يبدو الوجه الإنساني حين يبكي حامله ! وكان يكف عن النشيج كلما استوقفه المنظر العام أو لفته منه شيء خاص ، ثم يستأنف الاعمال ! وكانت زينب أخته — أو زوزو كما ألفوا أن يسموها على عادة هذه الأسرة — معتمدة بذراعيها على كرسي ، ومنحنية عليه وناظرة إلى مقعده ، ومشتغلة بتحريكه إلى الأمام وإلى الوراء ، وأمها نجية تلتفت إليها من حين إلى حين وتزجرها عن هذه الحركة ، خوفاً على الكرسي ، بمثل هذه الأصوات : « تـو . . تـو . . تـو . . » ثم تعود وتحول وجهها إلى الدكتور إلى جانبها ولا تنتظر نتيجة زجرها أما شوشو فلم تكن في الغرفة ساعة دخلها إبراهيم .

ووقف الدكتور وتقدم خطوات ، ومد يده إلى إبراهيم وتصافحا ورفع محمد عينه عن المرأة ونظر بمؤخرها إلى القادم في سكون ، ثم أكب عليها ومضى في عويله الذي يظهر أنه كان يجد فيه نوعاً من الامتاع ، ولكنه لأمر ماهبط بطبقة هذه النغمات أوطأ ما يستطيع . وتخلت زوزو عن الكرسي ونخت إلى إبراهيم وتمسحت به وهويسلم على الدكتور ، كما تمسح القطط بأصحابها . فاحتلمها وجلس وأجلسها

على ركبته ، فأهوت على عنقه تطوقه وتقبله في صمت تام وابتسام لم تكد تفوز بمثله من موضع عطفها وحبا حتى انقلب ضحكا عاليا .

ودخات شوشو في إثر إبراهيم — كأنما كانت مختبئة تنتظره — فأنارها الدكتور بنظره وتعلقت عينه بمرونة حركتها إذ تبدو كأن أوصالها ساكنة وهي تنساب كالجدول الرقراق ، وكان قوسا حاجبيها الدقيقين الحادين يختلجان ، وعينها تومض فيها نظرة عجيبة جمعت بين عدم الاكتراث والحبث والدلال والسداجة ، وكانت شفتاها الرقيقتان تقلدان حاجبيها وتختلجان مثلهما ، وكذلك جانبا أنفها الجميل . وإذا قلنا أنفها الجميل فقلنا قلنا كثيرا فما أندر الأنوف الجميلة وإن كثرت العيون الفاتنة والشفاه المغرية . وإذا أضفت إلى هذا وذلك خلا متوجة من الشعر الأصفر ، وثوبا من الصوف داكن الحمرة منسجما على قوامها ، أمكنك أن تكون لنفسك فكرة ولو ضئيلة عن هذه الفتاة التي صارت في هذه الغرفة كالزهرة بين الخضر ! وتخلي لها الدكتور عن مقعده ، ومضى إلى آخر الغرفة ليأتي بكرسي لنفسه ، فابتسم إبراهيم الذي تظاهر بالتشاغل بمداعبة زوزو — إذ رآه يمشي وأحد كتفيه إلى الأمام ورأسه مائل إلى اليسار وذراعا تضربان في الهواء كأنما نخلتا من الأعصاب أو كأنهما كمان فارغان .

وبعد تبادل التحيات وما هو منها بسبيل ، قالت شوشو وهي تنظر عن عرض إلى إبراهيم ، وكان مطرقا يهمس في أذن زوزو ، وإن لم يفت عينه ولا أذنه شيء :

— ما قولك يا دكتور ! اليوم الجمعة وهو يوم راحتك ، فأقضه معنا فإن ابن خالتي يمل مجالستنا ويهرب منا دائما إلى غرفته . فلم يبد على الدكتور كأن هذا يضايقه جدا وقال :
— ولكن . . .

— قل إنك موافق . . . أسرع .

قالتا بلهجة لم يسع الدكتور معها أن يظل لسانه معترضا على ما يوافق عليه قلبه فقال :

— إذا كان الاستاذ (فرغ إبراهيم وجهه ونظر إليه نظرة بلهاء جوفاء)
لا يرى في وجودي ما يزيد ميله إلى الهرب فأني على أتم استعداد . .
— معذرة ياسيدي. الدكتور إذا قاطعتك . يظهر أنك لا تعرف أساليب
شوشو المخرجة (ضحك مكتوم من شوشو) أؤكد لك أنها لا تعني ما أقول . .
أنا أعرف بها منك .

— بل أعرف كل حرف .

— نعم تعنين أنك تطلبين إلى الدكتور أن يقضي اليوم معنا — أعني هنا —
ولكن الباقي الذي يخصني ليس سوى عبث منك بي وحدي .
— سله يادكتور بدمته أليس في عزمه أن يطير إلى الإسكندرية حالا
لو أنه يستطيع ؟

فالت نجية إلى الأمام وحملت في وجهه ثم في وجوههم وقالت :

— يسافر ؟ كيف ؟ وهل أقام شيئاً حتى يفكر في السفر ؟

— سليه يا أختي ! (بنحس) .

فقالت نجية بلهجة من كاديتهدي إلى السر . « أترك رأيت . . . »
ولكن شوشو قاطعتها ضاحكة :

— لا لا ، إنك لا تنسين عفاريتك قط ! أنا أعرف السبب !

ورمت إلى إبراهيم نظرة .

فقال إبراهيم بصوت اليائس : « ربما » واضطجع في كرسيه وأطبق شفثيه
إطباق من لا ينوي أن يفتحهما مرة ثانية .

وفتر الحديث لأن الدكتور لم يسعه أن يشترك في هذه المناقشة العائلية ،
ولم أن إبراهيم لا يحب أن يتوسع فيها . ورأت شوشو أن إشارتها إلى ماسمعتة
عفا من إبراهيم وهو يحدث نفسه في غرفته قد أعادت إليه الاكتئاب ،
فندمت وصار الكلام متكلفاً متقطعاً .

وكان الالفق قد غام وانتشرت سحابة كثيفة واحدة في مجاليه ، وبدأت تهيم وترسل صفحات متموجة من المطر ترق حيناً وتكشف حيناً آخر . وجعلت الأشجار المغروسة وراء البيت تتوجع كالنبوءاء من الرياح التي تعصف بها وتصفر بينها ، ثم طغت الرياح حتى صارت الجذوع الوطيدة تهتز وتروع الناظر إليها بهذه الحركة التي لم تعهد منها ، كما يروعك الرجل القوي حين يبكي ، وراحت الغصون المتدلية تتصعد وتنصب ، والفروع العالية المستقيمة تتلوى وتترنج وتبدو كأنها توشك أن تتعصف ، واضطربت مهاب الرياح وتعددت تياراتها وتعارضت ، حتى صارت الأغصان المتقاربة في الشجرة الواحدة من هذه الأشجار تميل كل تميل وتتضارب وقد تشتبك ، وجعلت الأوراق - ما بين خضراء وصفراء تتطاير عن أعوادها وتتقاذف ثم تسقط فروع الزروع . وأظلمت الدنيا وصار وقع الماء على زجاج النافذة كنقر العصي ، وكانت روعة هذه الثورة قد تركت القوم صامتين برهة ، ثم قالت شوشو وفي وجهها أمارات الفوز وفي صوتها نبرات السرور :

- الآن يادكتور لم يبق لك مفر من البقاء !
ونظرت إلى إبراهيم تبتغي تأييده . ولم ينتظر الدكتور هذا التأييد ، فأرسلها ضحكة عالية لم يفهم إبراهيم لها معنى ، ولم يعرف لها داعياً !
وبدا له أن من سوء التقدير أن يضحك المرء وهو محبوس من جراء هذا الجلو العاصف ، فأخذ يراقب الدكتور ويحصى عليه حركاته وأنفاسه ، فخيّل له - ولعله غير مخطيء - أن الدكتور يتغفله ويلاحظ شوشو باسمها حتى . وهو يكلم غيرها ، ولم يزل حتى أقنع نفسه بذلك ، ثم صارت المسألة التي تتطلب الجواب : هل وجه شوشو يزداد احمراراً أو يشحب أو يثبت ولا يتغير على كثرة هذا اللحظان وتكرره ؟ وهل هي ترامقه أيضاً أم هذه الاختلاجات التي يراها في نجفونها عفو لا عمد فيه ؟ وعلى كثرة

ما فكر في ذلك وطول ما شغل به نفسه لم يستطع أن يطمئن إلى جواب يسكن به إليه .

ولما أعياه جواب هذه الأسئلة وأمثالها نفّض يده من معالجتها كالسأمان واعتاض منها سؤالاً آخر غنى به نفسه برهة أخرى في خلال هذه الجلسة التي طالت بفعل الجو الفاسد : ماله يتعب نفسه بالتفكير في ذلك ؟ ليترامقا ما شاء ! وهل يعنيه من أمرهما شيء ؟ وكان الجواب الذي لم يسترح إليه أنه حب الاستطلاع المركوز في طبيعته ، وأنه مفطور على دقة الملاحظة ، وليس يسعه إلا ذلك ولا حيلة له فيه ، وليس من الضروري دائماً أن يكون وراء هذا سبب آخر . أو علة خفية . وأى شيء هناك يمكن أن يكون خفياً ؟ لا شيء على التحقيق ! فhez كتفيه ومط شفّتيه واعتدل فوق كرسيه ووطن نفسه على الضرب في زحمة الحديث . وإذا به يرى شوشو تكاد تسقط عن كرسيها من شدة الضحك ، والدكتور يبتسم — ابتساماً هو أقرب إلى الضحك المكتوم فيما يرى — ويسألها مالها ؟ ونجبة مرتجة الانحاء مما أصابها من عدوى الضحك ، وكفها على ذلك الجانب من فمها الذي يواجه إبراهيم ، فلم يفهم ، وهم — تنفيذاً لعزمه — أن يضحك مثلهم ، ولكنه أطبق شفّتيه بعد أن فتحهما لما لمح من حركات شوشو ونظراتها وإشاراتها أن شيئاً فيه هو الذي يضحكها ، فأسرع فأدار عينيه في ثيابه ، فلم تأخذ شيئاً غريباً ، فعاد فرفعهما إليها وهز رأسه هزة خفيفة كالمستفسر فلم يلق جواباً سوى هذا الضحك ، فشعر بالدم يصعد إلى رأسه ويتجمع فيها وراء عينيه ولكنه ضبط نفسه وردّها بجهد ، ونجبة تضحك قليلاً ثم تسألها : « مالك ؟ » والدكتور يتلفت متظاهراً بالاستغراب ، ويضرب كفّاً بكف ، ومحمد وزوزو يقهقهان وينحنيان وتخذلهما أرجلهما فيقعان على البساط ، وأخيراً خرجت شوشو تعدو منحنية وكفها على شفّتيها وفمها يقول « بف بف ! » .

ومضت دقائق خيلت أطول مما هي ، ولم تعد شوشو فنفض

الدكتور ، وكان أظهر الجميع قلقاً وتلفتاً ، ومشى إلى النافذة حيث وقف
هنيهة يتأمل السماء المربدة والمطر المنهمر ولا يكاد يرى شيئاً ، ثم عاد ويسراه
في جيبه ويمناه تعبت بسلسلة الساعة الذهبية وقال : « سأنظر أين ذهبت شوشو »
وخرج فالفأها أخيراً واقفة على رأس السلم مستظلة من المطر بدورته
المؤدية إلى السطوح ، ومتكئة على حاجزه ، وسمعتها وهو يدنو منها تغنى
بصوت خفيض فأقرب منها على أطراف أصابعه ووقف على مسافة متر
منها معلقاً أنفاسه ، مخافة أن تنتبه إلى وجوده فتحرمه المنظر والمسمع
جميعاً . والقارئ لا بد يعلم أن الرجل اذا وقعت من نفسه امرأة فهو
يخضرها إلى ذهنه في صورة هي أحب إليه مما عداها ، لأن هذه الصورة
تكون أعلق بذاكرته وتكون هي المظهر الذى تبدو فيه لخياله حين يتمثلها .
وقد اختارت صورة شوشو هذه الهيئة التى رآها الدكتور عليها فى ذلك
المكان ، وصارت تزوره فيها فى كلا نوم ، ويقظته . والمنظر عبارة عن
فتاة أقرب إلى الطول منها إلى القصر ، فى ثوب من الصوف قرمذى
لاصق بالبدن بحيث لا يفلت شئ بينها هي منحنية بجنبها الأيمن على حاجز
السلم ، ومعتمدة بنحدها الأيمن على كفها ، وبكوعها على هذا الحاجز .
أما راحتها اليسرى فمطبقة فى خصرها الذى يبرز من تحته ردفاها مرتفعين
مائلين إلى اليسار قليلاً ، وجيدها الأتلع النضير قد انثنى عليه القرط تحت
شعرها الذهبى المقصوص . وهذا ما كان بادياً منها لعين الدكتور حيث
وقف يرجو أن تظل كما هي لا تشعر به ولا تتحرك ولا تكف عن الغناء .
ولكنها تحركت ! أما لأنها أحست به وأما لأن الوقفة أتعبت أو أملت
فأرأته فصبغ الدم وجهها وارتدت ، ولكنها لم تنجهم له وقالت وفى عينيها
نظرة عتب ورضى فى آن :

— آه ! ألك هنا كثير ؟

فدنا منها خطوة : « لا ! مع الأسف ! » .

فلم ترده عن الدنو ولم تحاول أن تتحول عن مكانها لتحفظ المسافة

الأولى بينه
بثدييه المستديرين بارز.

— أكنت تتسمع ؟

نقال برقة ، ومد رجله الخطوة أخرى لم يخطها :
— ربما كنت أشد التفاتاً إلى مصدر الصوت .
فقلت بلهجة من يستزيده مما يحرم عليه :
— لا تقل هذا يا دكتور !

— ولماذا ؟ إنك تعرفين إعجابى بك .

فلم يبد عليها ما يدل على الارتياح إلى إعرابه عن هذا « الإعجاب »
وودت لو أنه استخدم في وصف شعوره لفظاً أقوى من « الإعجاب »
وقالت بلهجة أقسى مما كان ينتظر إذا اعتبرنا ما مر إلى الآن :

— كلا هذا لا يليق . وأنت تعلم أنى محقة !

فدهش — وهل كان ياترى من حقه أن يدهش ؟ — ولم يدر ماذا أغضبها
فجأة وقال :

— ولكن يا عزيزتى . .

فقاطعت بهلجة أشد قسوة :

— لست عزيزة أحد من فضلك !

وكأنما آلمها أن تكون عزيزة أحد ، وإن كانت هي التي حرمت نفسها
هذه المزية ، فحل الاكتئاب محل الغضب في أسارير وجهها الذي بدا كأنه
طال فجأة ، واحمرت عيناها أيضاً حتى ليظن من يراها أنها حديثة عهد
بالبكاء ، أو أنها مشفية عليه ، فلم يسعه إلا أن ينقل رجله الأخرى
ويخطو الخطوة التي كان هم بها وصده عنها ما لا نعلم ، وتقدم منها وكاد يلصق
بها فنجبت عنه وجهها ومنحته كتفاً ، فتناول يسراها بين راحتيه فلم تسحبها
وقال وفي صوته نبرات الأسف والألم الصادقين :

— ولكنى لا أفهم ! بأى شىء أسأت إليك يا عزيزتى ؟

— قلت لك لست عزيزة .. عزيزتك !

فلم يفهم أيضا ! وأنى له أن يطلع على ما تطوى عليه أضلاعها وهو لم يرزقة الله تلك الفطرة التى تهديه إلى اللفظ الذى يكون أوقع فى نفس المرأة وأعذب فى سمعها وأشد موافقة لهواها ؟ وأراد أن يصلح ما فسد فزاد الطين بلة :

— حسن ! لن تسمعى منى هذه الكلمة التى تكرهينها ، فلا داعى للفتور . ولكن قولى لى كيف أدعوك ؟

فسحبت يدها التى كانت قد تركتها له وقالت :

— أدعنى باسمى ! لماذا تدعونى بغيره ؟

— اتفقنا إذن ...

وابتسم ، وأبى له سوء الحظ وعماء فى هذه اللحظة الدقيقة التى كان يمكن أن تنعكس فيها الآية ، إلا أن يزيد « ياشوشو » .

فرفعت عينها فى وجهه ساخطة زارية وخرجت دون أن تجيبه .

وتخلف هو برهة ثم لحق بها وهو يقول :

— ما أعجب أطوار النساء !

ولو أنه كان تبعها حين خرجت لسمعها تقول لنفسها :

— ما أشد غباوته !

الفصل الثامن

« يغمر بعينه ، يقول برجليه ، يشير بأصابعه ، في قلبه أكاذيب »

١

جاء وقت الطعام فجلسوا إليه في غرفته ، أو على الأصح في الردهة
الفسيحة التي تحيط بها الحجرات ، ولم يكن ثم سوى مائدة مربعة وبضعة
كراسي من الخيزران . وكان إبراهيم قد سبقهم ولكنه تلكأ عند باب
السلم ووقف - حيث كانت شوشو منذ برهة ! - يتأمل الجو ويمد ذراعه
ليتلقي بكفه المطر الذي كان لا يزال ينهمر ، ويحاول أن يرفع وجهه ليرى
السماء وهل رقت السحب فيها أم لا تزال كثيفة حالكة ، فنظرت شوشو
إلى الدكتور ، ونظر الدكتور إلى شوشو وقد طاف برأسها خاطر واحد .
وقال كل منهما لنفسه : « أترأه رأنا أو سمعنا ؟ » وزادت شوشو فعجبت
للأقدار التي جعلتها هي تسمعه في الصباح وجعلته هو - فيما تظن - يراها
أو يسمعها بعد ساعات !

وقالت نجية : « يظهر أنه لم يجمع » .

فقالت شوشو ، ونهضت عن المائدة :

- بلى يظهر أنه ينتظر المن من السماء :

ومضت إليه وأمسكت بذراعه وجرفته معها وهي تقول :

- هكذا يجب أن تعامل ، اجلس هنا !

وكان الدكتور محسن الحظ فقد جلست شوشو إلى جانبه ..

وكان من بواعث سروره الحقيقي أو المتكلف أنه أصر على اتخاذ كوب

سهت شوشو فشربت منه وإن لم يكن كوبها ١ ، وأن القطعة التي لبثت
هنيهة في حجر شوشو انتقلت إلى حجره وألمسته شعرها الذي لمس
شوشو من قبل . يضاف إلى ذلك أنه هم أن يساعدها ، وحمل إلى طبقها
شيئا من الخضر رفضته فنقله إلى طبقه بعد أن كاد يلمس طبقها ! وكان من
حين إلى حين يختلس نظرة إلى جانب وجهها وإلى جيدها وغير ذلك من بدائع
هذه الفتاة التي ظلت أكثر الوقت تلتقي الحديث إلى إبراهيم الجالس أمامها .
وكانت فاطمة تتوخي أن تقف وراء إبراهيم مخافة أن يراها ، وستأ شوشو
لا تفتأ تدعوها أن تنحى عنه لئلا تلوث له ثيابه وهي تضع الصحاف أو
ترفعها عن المائدة ، فتشير المسكينة إلى شوشو بيدها وتعض شفتها السفلى
وتومئ بعينها إلى إبراهيم فيضحك منظرها شوشو ، ويدير إبراهيم وجهه
إلى فاطمة فتجمد وتنقطع حركاتها وإشاراتها وتقول نجية :
— دعها يا أختي فإنها مستحبة .

وفرغوا من الطعام فأشعل إبراهيم سيجارة ، وكان الدكتور يهم بالقيام
عن المائدة ، فلما رأى السيجارة عاد فوطن نفسه على البقاء ، ولمح إبراهيم
ذلك فقال : . . .

— لا تكلف نفسك هذه العادات الأفريقية يا دكتور إننا هنا — على رأى
شوشو — في الريف وعلى أننا معاشر المصريين لا نتحرى هذه العادات حتى
في العاصمة ، ويمكنك أن تسبقنا إذا شئت فلنأى باق هنا مع بنت خالتي « وأشار
بعينه إلى نجية » : اذهبي يا شوشو معه .

— ٢ —

قالت شوشو للدكتور لما صارا وحدهما في غرفة الجلوس :

— إن هذا حسن جدا بلا شك ؟

— ماذا ؟

— أظنه يسرك جدا ؟

— واكن ماذا ؟

— ألا تستطيع أن ترى أن ابن خالتي رآك واقفاً معي وسمع ما تفضلت على به .

— واكن كيف يمكن ؟ وهيبه رأى وسمع فإذا إذن ؟ وهل فيما قلت شيء لا ينبغي أن يقال ؟
— بلا شك .

— يظهر أن قاي لن يستطيع أن يصلح ما أفسده لسانى ! فياله من زمن يتعقب سوء الحظ فيه الرجل من أجل أنه لم يقدر أن يغمط امرأة ؟ لأنه أعرب لها عن إعجابه بجمالها ؟ أو كان على أن أكابر وأن أزعج أنى أكره دمايتك ؟ يجب أن تعترفى أنه ما كان يسعى أقل مما قلت .

فضت شوشو إلى النافذة لتخفى أمارات السرور الطبيعى الذى لمع فى عينيها ورجفت له شفتاها ، وقالت وهى سائرة :

— أحسب أن من واجبى أن أشكره يا دكتور ؟

فتبعها وهو يعبت بسلسلة ساعته وقال :

— إن من الثناء ما هو إساءة أدب ، وقد يكون هذا من ذنوبى . ولكن من المعاملة ما هو ظلم ، وقد تكون معاملتك إياى من هذا القبيل . رجل صريح لم يألف المكاتمة يجهر برأيه فيعد من أجل ذلك سيء الأدب !

فقلت ووجهها إلى النافذة :

— لست أسمح للأغراب أن يجترثوا على حتى بالمدح .

فقال بلهجة الظافر :

— آه ! إنه ليس المدح الذى تستحقين أضعافه هو الذى يغضبك بل صدروه عنى ! ولو أن غيرى — إبراهيم مثلاً — كان محلى .

فتهجمت له وقاطعته :

- إني أمنعك ! إنه ابن خالتي ، بل أخى وأعز أهلنا علينا ، وهو لا يحلم بأن يفعل ما فعلت .

فلم ينهزم أمام هذه التعيسة وضاعف الحملة :

- أن من بواعث اغتباطى على كل حال أن أعلم أنى صادق فى وصفى لك رضيت أم سخطت . وهل كنت تريد أن أراك ثم أذهب أتحدث عن دمامتك لا لسبب يسوغ هذا الكذب الشنيع سوى أن أعفبك من الارتباك والحجل حين تسمعين أنك جميلة ؟

فزادت تعيسا وقالت بصوت مرتفع قليلا :

- إن هذا كله تكلف . وأنت تعلم ، كما أعلم ، أنك لم تقل لى . .

- لقد قلت أنك جميلة .

- كلا ! هذا كذب .

- وأقول ذلك الآن . . . وإنك لكذلك . بل أنت أجمل من رأيت . . .

- لا تحلف فلن أصغى إليك . إنك فظيع .

ووقفت مضطربة بين الحجل من سماع ذلك والرغبة فى الاستزادة منه . أما هو فلم يعبا شيئا بمقاطعتها ومضى يشد عليها ويقول :

- أكرر أنك من أفقن النساء ، فهل فى هذا كذب ؟ إن الأمر واضح لا خفاء به . وقد يكون فى قولى هذا اجترأ ، ولكن الاخلاص شفعى .

- كلا . لأنك غير صادق .

- مهلا مهلا يا شوشو ! واسمحي لى أن أكبر هذا الأدب وأعجب به إعجابى بجمالك . ولا أحسبني أول من وصفك بهذا . ويجب أن تصدق الناس إذا لم تصدقيني .

فلم تستطع أن ترد نفسها عن مسابرتة إلى حيث يجرها فقالت :

- إن الناس لا يقولون عنى ذلك .
 - بل لا بد أنهم يفعلون وإلا كانوا عُمياً .
 - أعنى أنى لا أسمعهم فإنك تعلم أنى لا أقابل غير أهلى ، ولعلى
 مخطئة فى السماح لك برؤيتى .
 فلم يلتفت إلى الشطر الأخير من كلامها ، ولم يسمع لها أن تزحزحه
 عن موقفه وقال :
 - ولكنك تعرفين أنهم يقرأون هذا ؟
 فأغررتها حلاوة الإعراف بالموافقة ، وصدها التأدب والحياء فاضطربت
 « لا - أعنى - سمعت فاطمة تقول إنهم يذكروننى بذلك . . غير أن . . »
 ولحت أختها وابن خالتها مقبلين ، فنبه ذلك فى نفسها طبيعتها العابثة ،
 وأمسكت عما كانت فيه وقالت بصوت عال :
 - إذن نحكم ابن خالتى . تعال أفصل فى الأمر .
 فريع الدكتور واصفر وجهه ودارت الأرض به ، ولم يعد يدري أواقف
 هو على رجليه أم رأسه ، وتلفت كالذى يبحث عن نافذة يثب منها ولم يستطع
 أن يمنعها أو يقول لها شيئاً لأنها باغتته بما لم يكن له فى حساب ، ولم تزد على
 أن ألقت إليه نظرة خبيثة ثم تقدمت إلى الباب .
 وقال إبراهيم : « ماذا ؟ فيم تختلفان ؟ » .
 وكان الدكتور لا يزال واجماً ممتقع اللون مسمرآ فى مكانه ، وقد بدأ
 لنفسه سيفاً جدياً لا يدري بأية قوة يواجه الموقف المخجل الذى تهم شوشو
 بأن تضعه فيه .
 فقالت شوشو - وهى ترمى إلى الدكتور بالنظرة ، وتمتع عينيها بمنظره
 وبما يكابد من ألم وحيرة وخوف :
 - إنه يقول لى . . ويكرر . . ويؤكد . . ويقسم . . أنى
 أنه . .
 فعيل صبر الدكتور وصاح بها : « شوشو » .

— لا تقاطعني من فضلك . يجب أن يعرف ابن خالتي هذه حماقة .

فقال إبراهيم عابسا :

— حماقة ؟ ماذا تعنين يا شوشو ؟

أعني أنها حماقة وجرأة وجنون . ولا بد أن أبسط لك الأمر ليتأتى لك أن تحكم ، فأمسك أذنت أيضا عن المقاطعة من فضلك . .

ثم كأنها رثت للدكتور المسكين ، فكفت عن تعذيبه وقالت :

— يقول إنه لا يستطيع البقاء معنا ، وأنه لابد له من العود إلى المركز لأن عليه أن يعود أحد المرضى مهما كانت المشقات . وأنا أقول له إن العود مستحيل في مثل هذا الجو المطير ، فاقض بيننا بالحق .

وجلست ، فجلس الدكتور كأنما كان قد انقلب آلة حاسبة ، ولم يسر عنه ما قالت لأنه — على فرط ذهوله — أدرك أنها تبيعه صحتها بثمن معين هو أن يخلو عن البيت حالا . فيألفها من عقوبة تنزلها به جزاء له على ما أجتراً .. به عليها من المغازلة البريئة ؟ افترأها كانت ، وهي تعاطيه الحديث ، تفكر في هذه الوثبة التي قصمت ظهره ، وأطارت لبه ، وشردت عقله ؟ ويا ليت من يدرى أجادة هي أم هازلة ؟ وعلى أنه لم يطل التفكير في تلك اللحظة ، ولم يسعه إلا أن ينزل على حكم المقادير التي جعلته رهن مشيئة شوشو ، على الأقل في هذا الموقف ، فhez رأسه لنجية وإبراهيم أن « نعم » وبلغ ريقه ومد يده إلى جيبه ثم أخرجها وقال : « لقد كنت ناسيا فاذا كنتي المفكرة وأنا أنظر فيها عرضا . وأنا أعلم أن الخروج في مثل هذا الجو حماقة ، ولكن واجب الطبيب فوق راحته » .

وأظهر الإصرار وراح يدفع « بالواجب » و « بحالة الما »
اعتراض حتى أذنوا له بكرمهم .

الفصل التاسع

« من صعد الى السموات ونزل ؟ من جمع
الريح في حفنتيه ؟ من صر المياه في ثوب ؟ »

انقطع المطر وسكنت الريح ، وكان إبراهيم واقفا إلى نافذة غرفته يطل على الحديقة التي مر بك الكلام عليها ، أو على الأصح يحدق في الظلام الدامس والسكون الرهيب اللذين لفت فيهما الكون ، حين دخلت عليه شوشو ودنت منه ووقفت تتأمله ، وهو لاه عنها بمنأى يرسمه له خياله النشيط . وكان البرد قارصا والليل صامتا لا حركة فيه ولا حس ، كأنما استحال كل شيء في السماء والأرض صورة مرسومة ، وقد نحيل إلى إبراهيم وهو يرى هذا السواد بعينيه كأن هاوية من الحرس قد ابتلعت كل صوت ونأمة ، وأنه لو أرسل في ظلمتها صيحة لما ارتد منها إلى الأذن رجع ولا كان لها صدى ، وأنه أو ألقى فيها بحجر لما سمع له وقعا ولا بلغ الحجر قاع الهاوية ، وبدا له كأن الأرض قد ضرب عليها السحر شيطان وألزمها حالة غير إنسانية يعي الإنسان نعتها ، أو كأنها في غيبوبة أفقدتها وعيها أو كأنما هو ينظر إلى الدنيا المذاهلة عنه من خلفها ويتأملها وهي مدبرة عنه أو يسترق السمع من وراء أستار الكون .

وعالج إبراهيم ، وهو ثابت الحماق ، أن يصور لنفسه وقع هذا المشهد الرهيب وما انطوى عليه من الجمال والجلال بالموت في آن ، وأن يتبين نوع إحساسه به ، وأن يهتدى إلى العبارة عنه فأعياء التماس ذلك ، وماذا عسى أن يبلغ من طاقة المرء على تصوير هذا المنظر المسحور — هذه الدنيا التي أنامتها عين غير مرئية ؟

وطال الأمر على شوشو أو لعلها نخشيت أن تعديه الطبيعة فيجمد وينقلب تمثالا ، ففقد جعلت تمر كفها على ذراعه وتمسح له شعره

براحتها ، وهو فى شغل عنها ، فلما رأت أن ذلك لم يرده إلى الحياة ولا أشعره وجودها أدارته إليها وربت له خده فاختلفت شفتاه ولكنه لم ينطق ، فافترت له عن أعذب ابتساماتها وقالت له وهى تجره إلى الكنية :
- قل لى مالك ؟

فقال وهو يقعد أو يلقي على الأصح بنفسه على الكنية :

- تسألينى ما بى ؟ ؟ بى هذه الطبيعة التى كانت منذ ساعة تبرى وترعد وتمطر وتصخب كأنما يعول فيها مائة ألف شيطان ثم آضت كما ترين ، الآن فقط فهمت ما كنت أقرأ فى صباى عمن مسخوا حجارة !
- هل تريد أن تقول أن هذا أول عهدك بمثل ذلك ؟

- نعم . ولشد ما أتمنى أن أجرب ذلك فى نفسى لحظة واحدة !
لحظة واحدة تسكن فيها نفسى هذا السكون فتخرس السنة الهوائف وتمحى صور الحوادث ، ويغيب ذلك العباب الجائش هنا فى صدرى هذا .
فقاطعته شوشو قائلة :

- ما أعجب أمرك والله ! تكون معنا كأن لا شىء على وجه الأرض يعنيك ثم لا تكاد تخلو بنفسك حتى تنقلب إنسانا غيرك ، كأن فى جوفك بركانا يريد أن ينفجر ، أفلا تفضى إلى بمسا يكربك ؟ قل لى ! هات ما عندك ! أطلعنى على دخلة نفسك ! ائتمنى على شرك .

فوقع من نفسه عطفها وحنوها ، وهم أن يبثها شكواه ويقول لها بشجوه ولكنه ضعف لم يساوره إلا ريثما التفت إليها ، ثم ملك نفسه وكبحها ، وقال وعلى فمه ابتسامة سرور وشكر لم تخل من ذلك السخر :

- يا فتاتى الصغيرة أتقدرين أن ..

فحزت هذه الابتسامة فى نفس شوشو ووثبت إلى قدميها وهى

تقول :

— بودى أن لا تتكلم كأنك شيخ هرم وأنا طفلة أحمو ؟
— لا تغضبى ! (ومد يده فتناول ذراعها) عودى إلى مكانك
بجانبي . دعى بدوائى هذه . لا تلتفتى إليها . إنها مرارة النفس يقطر
بها اللسان وينضح بها الوجه وتفيض بها العين ، وبكرهى أن ترى ذلك
أنت أوسواك من خلق الله — آه يا شوشو لو تعلمين ! إذن لعذرتنى .
— وماذا يمنعك أن تخبرنى فتطرح عن صدرك هذا الحجر ؟
— يمنعنى كبرياء نفسى وعلمى أن الشكوى عبث وباطل ومحال
ليس يجدى .

— أدام الله عليك الكبرياء التى أفاضها عليك !
ونظرت إلى ساعتها على معصمها وقالت :
— الساعة الآن الحادية عشرة فقم إلى سريرك وإلتحف بها !
فضحك وقال :
— وأنت ؟ هل أثقل رأسك النعاس ؟
— أو يعينيك أن تعرف ؟
— بلا شك .
— إذن اعلم أنى لست ذاهبة لأنام .
— وماذا تنوين أن تصنعى ؟
— سأجلس قليلا وأفكر .
— فى أى شىء ؟
— ليس لى مثل كبرياتك فلا أكتملك أنى سأفكر فى غرابة
أطوارك .
— آه ! أولا تزالين غضبى ؟
— كلا . ليس ماى غضباً . لقد كنت أود . . على أن هذا
لا يهم الآن . . .

فخطر له أن هذه الفتاة على صغر سنها متعلمة وأنها قد تستطيع أن تفهم وأن تعذر فقال :

— اسمعى يا شوشو . إن الواحدة تكون طفلة وتدعى لنفسها مع ذلك قدرة الأنبياء ومنزلة الرسل . . . إن . . .

قالت مقاطعة : « لا أفهم » .

قال : « لست وحدك التي لا تفهم . إن كل امرأة مثلك لا تستطيع أن تخرج من خصوصتها إلى العموم . إن قلب الواحدة منكن يدق عطفاً ومرثية للألم الفردى ، ولكنه يعجز عن أن يجعل عطفه أو إحساسه على العموم عميقاً شاملاً لآلام الحياة . . . »

فابتسمت وهزت رأسها وقالت بلهجة مبطنة بالسخر :

— صديقى أنى أعطف عليك .

فقال ، ولم يلتفت إلى سخرها :

— إن الجنس الإنسانى معناه فيما تعلم المرأة هذا الطفل المعين أو هذا الرجل المعين الذى أبصرته واقفاً إلى جانب الباب ينتظر فى البرد أو تحت الشمس مثلاً . إن المرأة عاجزة عن الإحساس بالآلام العامة ، وعمياء لا يستطيع أن تراها . هذه هى الدنيا نصف عمياء نصف مستوحشة تصرخ شرقاً وغرباً وقد أجنها الألم والخطيئة أيضاً . فهل ثم امرأة واحدة يشحب وجهها إذ ترى هذا النمر العالمى يهز قفصه ؟ هل تكف واحدة منكن عن نظم العقود وتطريز الثياب من فرط إحساسها « بجملته » هذا الألم العالمى ؟ أرى دمة واحدة أراقتها امرأة — كما أراقت كورديليا عبراتها — لأن الدنيا جنت ؟ ليس من بينكن من ترى أن تبكى من أجل هذا على كثرة دموعكن وسهولة أسبابها ! إنكن لا تبكين إلا لما تعرفن وأنتن معذورات : طفل مريض تلمسه المرأة بأصابعها فتحس مابه من

الحمى فتنهـمـر الدموع ! ولكن مليوناً يمرضون ! آه هذا شيء آخر
ولأولى أن ينتظر المرء منكن أن تبكين من أجل الكسور العشرية أو
المركبة ، أنكن لاتفهم الدنيا باعتبارها وحدة وكلاً ، ومن أجل هذا لاتتأثر
بكن هذه الدنيا لأن الواحدة منكن لاتقدر أن تتسرب فى المجموع وتفنى
فى الجماعة . نجد فيكن الأم الرؤوم والزوجة الوفية الكاملة ، وقد نرى
فيكن الولية والقديسة ، ولكننا لن نفوز منكن بنبي أو رسول ! لاحتى ولا
بشاعرة .

وأمسك بعد هذه الخطبة الطويلة ، وعجب لنفسه الذى ساعفه على
كل هذا الكلام ، واضطجع وأطبق شفتيه .

ولم تجبه شوشو بشيء بل نهضت وأغلقت الباب وراءها .

— ٢ —

استيقظ إبراهيم على صوت بقرة ، فدفـع يده تحت الوسادة وتناول
الساعة فألفاها الثالثة صباحاً ، فعاد فأغمض عينيه وفى ظنه أن البقرة ستكف
عن هذا الصخب الذى جاء قبل أوانه ، ولكن البقرة على ما يظهر كانت
تعتقد أن الليل قد انحسر وأن الصبح قد أسفر ، فوثب عن السرير الى
النافذة فإذا السماء صافية والقمر مضيء ففتحتها وأطل برأسه فرأى البقرة
الى جانب الباب وقد مطت عنقها ورفعت عينها الى السماء ، ولم يكن
يعرف البقر الا مجازاً ، ولا كان له بهذا الضرب من الخلائق عهد
فجعل يصيح بها «هش . هش» ، ويوهما أنه سيقذفها بشيء ، غير أن صيحاته
وحركاته وإشاراته كانت تنعشها كأنما سرها ان تعرف أن لأصواتها مستمعا
كما يشجع المغنى أن يرى الطرب يهيج السامعيه . فلما رأى ذلك توهم
أن ظهوره لها هو الذى يشجعها وأنها خليقة أن تثوب الى السكينة وأن
تثبط همتها إذا انصرف عنها ، فاغلق النافذة وتحرى أن يحدث فى إغلاقها
من الضجيج أكثر مما تدعو إليه الحاجة لئلا يلهو بإهمال شأنها . وكأنما حسبت البقرة

أن احتجابه عنها كان داعيه أنها قصرت في الأداء ، وأن التعبير كان ضعيفاً
وأن الإحساس فيه فاتر ، فاطلقت عليه أقوى أصواتها ، وكانت جفونه قد
كاد يطبقها النعاس فأطارت هذه الصيحات المتلاحقة وكادت تطير بلبه معها ،
فجر نفسه إلى الكنية وانطرح عليها وأشعل سيجارة ومضى يفكر على هذا
النحو .

« النوم قد جفاني ولا سبيل إليه الآن ما دامت هذه البقرة قد شاعت أن
تعد الصباح قد طلع . والجلسة هنا - إلى صباح الآدميين لا صباح البقر - كلفة
شاقة . وإذا كان الحظ قد رمى بي إلى هذا الريف الذي يبكر ناسه
في النوم وتبكر أبقاره في اليقظة ، فالرأي أن أخرج إلى هذه
الحديقة التي أفسدت البقرة وأن أنتظر فيها الفجر لعله يوحى إلى بعض
معانيه . »

ولما انتهى إلى هذا الرأي أسرع فلبس معطفه وحذاءه وأخرج من
الحقيبة مذكرته وقلمه وفتح الباب ونخرج وأغلقه خلفه ولكن من
أين ؟ .

وكانت البقرة تواصل الصخب فأراد أن يسرع ليدركها ويثأر
منها . غير أن الاهتداء إلى باب السلم المؤدى إلى الحديقة استغرق من الوقت
وكلفه من المتاعب ما لم يكن يخطر له بهال . وكانت الغرف كلها موصدة
حتى غرفته ، والمكان مظلماً . وكان ظنه أن هذه الصالة فارغة
فإذا به يحسها مكتظة فقد كان ثم دلو ثقيل اصطدم به أكثر من عشر
مرات في لفه ودورانه حتى انتهى إلى وجوب حمله معه وهو « يطوف »
في أرجاء هذه الصالة التي أvarsرتها الظلمة لا أول لها يعرف ولا آخر لها
يوصف ، وراح يعزى نفسه عن حمل هذا الدلو الثقيل بأنه سيضرب
البقرة به .

ولكن كيف يهتدى إلى الباب وهو لم يكسب يخطو خطوات في الصالة ويصطدم

بالدار لأول مرة حتى اختلط عليه الأمر ولم يعد يعرف شرقاً من غرب بل لم يعد يعرف أين باب غرفته هو ؟

ووقف برهة يفكر في المخرج من هذا التيه فبدأ له أن الاشكال يحل بأن يلتمس الحائط ويسير على محاذاته فانه ان فعل ذلك لا محال موفق إلى الباب ، ففعل بلا عناء يستحق الذكر وسار كما اعتزم . غير أن الواقع أنه بدأ بباب السلم وهو يحسبه باب غرفته وراح يمضي عنه لا إليه ، والتقى في طريقه بما لا يذكر أنه رآه في النهار أو في اللحظات القليلة التي اجتاز فيها هذه الصالة قاصداً إلى غرفته أو خارجاً منها ، وتعثر بما حسبه « غابة » من القوارير حتى لم يجد معدى عن أن ينأى عن الحائط مرغماً ، وسار بضع خطوات فإذا به يلتقى بقوارير توهها غير الأولى فضحك وقال لنفسه لعل أرض المكان قد فرشت بالقوارير .

وصادف بعد ذلك برميلاً . نعم برميلاً فوقف يعجب ويتساءل هل قررت شوشو أن تقلب الصالة حانة نهار ؟

ومل هذه البراميل والقوارير فقال أترك الحائط وأرمى بنفسى في جوف الصالة وأدفع أول باب أباه ، ألم يقل بشار « وفاز بالطيبات الفاتك اللهج » ؟ فكان هذا فاتحة التوفيق . ذلك أنه وجد باباً لم يعن نفسه لفرط ضجره بالتساؤل عنه أى باب هو ؟ وعالجه فانفتح فإذا به باب سلم فصافح وجهه نسيم الليل المقرور وأعاد إليه اتساق خواطره فأنحدر ولكنه لم يجد حديقة ما فوقف كالأبله !

وكان صوت البقرة لا يزال يصل إليه فلم يجد عسراً في فهم ما حدث . ذلك أنه لم يهتد إلى سلم الحديقة بل إلى سلم خلفى يفضى إلى فناء « الحريم » ، وبذلك صار الجناح الذى ينزل فيه بينه وبين البقرة فقال : « لا بأس وإن كانت البقرة قد نجت بجلدها » ووضع الدلو متلوباً وكان لا يزال معه وقعد عليه وأخرج القلم والمذكرة ليدون ما يخطر له .

ولم يخالجه شك في أن الشمس ستطلع لامحالة من الناحية التي
جلس ينظر إليها فقد أخذت السماء تصطبغ بلون قرمزي شيئا فشيئا
ولكنه لم يكتب شيئا ولم يخط حرفا لأن أحجام الشمس عن الطلوع
حيره حتى خالجه شعور وقى بالخوف عليها وابتسم وهو يقول لنفسه :
« لولا ما تعلمته في المدرسة لحسبت الشمس قد غيرت رأيها وعدلت
عن الطلوع اليوم »

ثم نهض ونظر خلفه ولم يمنعه قيام البناء في وجهه أن يدرك أن الشمس
طلعت من ورائه !

وجلس وكتب في المذكرة هذه الملاحظات وهو يبتسم ويقول لعل
فيها فائدة لشوشو ! » .

- ديسمبر - في الريف . يظهر أن البقر أحس بالفجر من الديكة
وأسرع إلى تحية الصباح من العصافير . وفي وسع من يعنيه ذلك أن
يقضى ليلة في الريف ويبكر في القيام قبل الفجر بساعة وبعض ساعة .
وليس في الريف ذلك السكون المزعوم فإنه إذا سكنت الطبيعة هاجت الأبقار
ويجب على من يبغى الراحة والنوم العميق في الريف أن يأخذ معه كمية
من الاسبرين أو الفيرامون تكفي له وللبقر عند الحاجة » .

ولم يفتح الله عليه بأكثر من هذا أو أشبه منه بالمعاني الشعرية
ولم يدون شيئا من الخوارج أو الإحساسات لأنه كان في تلك الساعة
مجردا منها . وعلى أنه - كما قال لنفسه - ما حاجته إلى الإحساسات
التي قد يخطيء في تصويرها أو بوشيا بما يجعل ألوانها أزهى أو أقم ؟
أليست هناك مدرسة ترى أن يكون الوصف مطابقا للحقيقة عاريا من
زينة الخيال وحليه وتفويقه ؟ وهب لا مدرسة هناك فما ذنبه هو إذا
كانت شمس الريف قد أثبت إلا أن تطلع من ناحية غير مرقوبة ؟

ومن أين تأتي هذه الخيالات أو تنشأ الإحساسات ولا تفكير له إلا في البقرة التي هدت رأسه بأنغامها ، والدلو الذي شل ذراعيه جميعا على التوالى بثقله ؟

ومع ذلك لم ير أن يبخل على السماء بملاحظات تنفعه إذا حدثته نفسه أن يكون روائيا فيكتب :
« تبدو السماء قرمزية ثم تخضر لسبب ما ، ثم تصفر أو تبيض لسبب آخر غير واضح » .

وضحك وقال لنفسه فلنشبهها بشيء ! أليس التشبيه ضروريا في كل كلام شعري ولو لتقريب الصورة التي يراد أداؤها ؟ ولكن من أين يجيء لها بمشبه وهي لا تثبت على لون ؟ وماذا تقول شوشو إذا اطلعت على هذه العبارات ... شوشو ؟ لقد خطرت له شوشو مرتين في نصف ساعة ؟ ولكن لا عجب ، فما يقضى معظم وقته إلا معها ولا يملأ جوه سواها إلى الآن .

وعاد إلى التشبيه اللائق بهذا الجانب من السماء الذي احمر ثم اخضر ثم اصفر ، وبينما كان جادا في البحث عنه ، خرجت فاطمة الزنجية من باب الحريم ولم تكذ تراه - وهو لاه عنها - حتى انكفأت راجعة وعادت بأهل البيت جميعاً كبارا وصغارا وسادة وخداما وفي طليعتهم نجية وشوشو وأقبلوا عليه جميعاً يسألونه في وقت واحد عما به ؟ وما جاء به إلى هنا ؟ وفيم الجلوس على هذا الدلو ؟ وماذا يصنع بالقلم والكتاب في يده ؟ وهل هذه عادته في مصر ؟ إلى آخر هذه الأسئلة التي قعد ينتظر آخرها على غير جدوى ، وهو ينقل عينه من وجهه إلى وجه تبعاً لمصادر الأسئلة حتى كاد يجن .

ولما أعياه أن يجد فرصة للكلام وسط هذا اللغظ المتصل نهض عن الدلو في صمت ومضى إلى غرفته وأوصد بابها ورائه وانطرح على السرير بما عليه من ثياب وهو يقول :

« لماذا لم أنم ؟ سأنام حولا كاملا متى عدت إلى القاهرة ! ماذا كنت أصنع ؟ لقد كنت أريد أن أحرص هذه البقرة التي أزعجتني كما لم تزعجني سيارات القاهرة وأبواقها وترامها وصياح البائعين فيها . ذلك كله هناك غير مستغرب وأعصاب المرء مستعدة له بسبق التوقع وبالعادة . ولكن هذا . هنا حيث يقولون إن السكون سابغ والهدوء مطبق محيط ، والمرء لا يتوقع شيئا من الضوضاء ، والأعصاب متفترة مسترخية من الاطمئنان والأمن ، تكفى بقرة واحدة لإطارة العقل » .
وأخذه النوم وهو يحدث نفسه بالرحيل .

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

الفصل العاشر

« العين لا تشبع من النظر والاذن لا تمتلئ من السمع »

لم يطل نوم إبراهيم . ذلك أن الكرى كان قد عقد أجفانه قبل أن يتغطى فلم يلبث أن ابترد فاستيقظ وكانت الساعة قد جاوزت الثامنة بدقائق ، فقام ونظر من زجاج النافذة إلى الشمس المشرقة على الحديقة والحقول وراءها ، ففتحها فتضوع إليه ريا الخصرة المطلولة والأزاهير الندية دافئة تحت الشمس . وكان واسع الاطلاع ملما بأساطير القدماء وما نسج خيالهم حول الطبيعة . ولكنه نسي ذلك كله لما صار وحده مع السماء والأرض وهما أوسع وأشد تنوعا من أن توأما الخيالات المسطورة في الكتب . وأحس في هذه اللحظة حيننا — لا إلى شيء معين — وغبطة تشيع في كيانه كله ، وظما خيل إليه أنه ما من شيء يمكن أن يطفئه ويفثأ غلته . فال بذراعيه على النافذة وأبرز وجهه للشمس وحقق في السحب البيضاء تتفرق وتتجمع وتسبح في ببطء . وخطر له وعجب هو لنشوء هذا الخاطر — إن من الخطأ أن تنعت الطبيعة بالقسوة . كلا ليس في الطبيعة قسوة حقيقية . لأنها حارة حية . ولا تكاد تتفق الحرارة والقسوة . وإذا كان بعض ما فيها يسطو على البعض الآخر ويأكله أو يلتهمه أو يأبى عليه فما قيمة هذا ؟ إن كل شيء يحيا وإذا كان يموت فلنما هذا ليعين غيره على الحياة . وأين يا ترى قرأ أن الكون فنان لا يزال يعبر عن نفسه بصور مختلفة ؟ لا يذكر أين قرأ هذا ، ولكنه يذكر أيضا أن الكاتب قال — أم ترى هو صاحب هذا الخاطر ؟ — إن هذا الفنان الأعظم لا يزال يخفق فيما يحاول أن يبدعه ويخلده من خارجياته ، على أن العالم بل العوالم كلها صغيرها وكبيرها مثلنا ومثل الأزهار والأشجار ليست سوى قطع شتى من هذا الفن ، وكل منها تام في ذاته كامل من حيث هو . وكل حياة تجري إلى مداها ثم تراق

وترد إلى هذا الفنان المبدع الذى لا ينفك يحاول ضروباً جديدة من الفن . العقل والمادة شيء واحد . ومن يدري ؟ فلعله ليس لا عقل ولا مادة وعسى أن لا يكون هناك إلا نمو وذبول ثم نمو جديد وذوى وهكذا إلى ما لا نهاية : فنان لا يفتأ يعبر عن نفسه فى ملايين وملايين من الصور المتغيرة والذبول والموت — أو ما نسميهما كذلك — إنما هما راحة ونوم أو هذا هو الجزر الذى يجيء بين مدين ، أو الليل الذى يفصل نهارين والنهار الذى يطلع لا يشبه الذى سبقه فى شيء ، ولا المد كالذى كان قبله . هذه الصور التى نراها فى الدنيا وفى أنفسنا ، هذه القطع الفنية التى يخرجها الفنان الأعظم لا تعود ولا تبقى على حال واحد ولا تلتزم شكلاً معيناً . بل هى دائماً جديدة . عوالم جديدة وآحاد وأفراد جديدة وأزاهير طريفة . وليس فى هذا ما يكره النفس . كلا إنما يكره النفس أن تعلم أنها ستظل حية أبداً حتى بعد ما يسمى الموت . أو أنها ستحيى كرة أخرى فى جسم آخر فلا أنا أنا ، ولا أنا مخلوق آخر . إن هذا يكون ماذا ؟ فساد ذوق ؟ هبى كتبت مقالا أو وضعت قصة أو نظمت قصيدة ، فهل أستطيع أن أتصور أن مقالتي تصبح مقالة أخرى أو قصيدتي تنقلب قصيدة ثانية ؟ وهل فى وسعى أو وسع سواى أن يفصل ما بين العبارة التى صيبت فيها المقالة أو القصة أو القصيدة ، والمادة الذهنية التى أعربت عنها بهذه الألفاظ ؟ كلا . وكما أنى أنا الفنان الأصغر لا أزال أصوغ كل يوم جديداً كذلك الفنان الأعظم لا يزال يخرج من القديم جديداً ومن التالد طريفاً كالنافورة تقذف الماء خيطاً من القطرات لا تشبه منها واحدة أختها وتقع هذه القطرات فى الحوض وتعود أدراجها من الأنابيب إلى النافورة فتقذفها قطرات جديدة مصوغة فى أشكال وحجوم غير الأولى .

ثم تنهد وقال لنفسه : « ولكنى لا أستطيع أن أفهم أو أدرك لماذا تظل هذه القوة الأبدية منهكة فى الإعراب عن نفسها فى صور فردية شتى لا آخر لتنوعها ؟ لماذا لا تكف ولا تنقطع عن العمل ولا يصير كل

شيء إلى « لا شيء » ؟ ظلام أبدى شامل ! ويا ليت من يدري أهما
اثنان لا ثالث لهما : أن يظل هذا الفنان يعمل ويخرج ويبدع كما هو
فاعل أو أن لا يكون ثم شيء على الإطلاق ؟ وهل من الاتفاق المحض أن يحدث
هذا ولم يحدث ذلك ؟ .

وسكت وحديق بعينه الواسعتين في الفضاء كأنما ينبغي أن يرى شيئاً هناك
وراء كل منظور . ثم هز كتفيه وقال وهو يمشي إلى « الكنبه » :
— كل هذا جميل . ولكن هل بنا حاجة إلى التفكير ؟ هذه الدنيا أمامنا ،
وأحسب أن كل ما بنا حاجة إليه هو أن نتناولها كما هي وأن نقنع بذلك .
وهم بالجلوس فسمع نقرا على الباب ففتحوه وطالعه وجه شوشو ، كأنه
— أي وجهها — في حلم ، وأحس وهو يصافحها كأن جرحها بجوا من الماضي
والمستقبل ، وذلك ما لا عهد له به فسأله :
— ماذا كنت تصنع ؟

— لا شيء . . .

ولكن وجهه مال إلى النافذة ، فقالت :

— أكنت تسخط على هذه الطبيعة التي لا تثبت على حال ؟
ألا ترى معي أنها كالطفل ، تكون عابسه باكية ثم إذا هي تضحك
لغير سبب مفهوم ؟ إن تناقضها أو اضطرابها كثيرا ما يحيرني ؟ وكم تمنيت
لو أني أستطيع أن ألزمها الحالة التي يتفق أن تروقني — إلى أن يتغير مزاجي
على الأقل .

فعجب أن يجيء أول ما يجري بخاطرهما بسبيل مما كان هو يفكر فيه ،
ولكنه كتم هذا — وأن لم تكتمه عيناه — وقال مجيباً على كلامها :
— كلا يا شوشو . أنا لا أحس بالرغبة في إلزام الطبيعة حالة ما أو بعبارة
أخرى لا أتمنى أن أفرض عليها مزاجي الخاص أو أي مزاج معين ، ولعل
ذلك لأن تنوع الأمزجة وتعدد الحالات التي تكون عليها الطبيعة في جميع
مظاهرها — هو مصدر السرور الذي أفيده منها ، بل هو الذي يرجع

إليه ويقوم عليه إيماني بالحياة . ولولا هذا التنوع لما بقي ثم شيء اسمه الحياة .

فافترت عن ابتسامة إعجاب وقالت :

— ذلك لأنك أديب . لأنك إبراهيم الكاتب !

قال : « نعم . أحسب الأمر كذلك . وإن كنت لا أرى أن كوني كاتباً هو السبب في ذلك . كلا . إن طبيعة الفنان أو روحه ترتاح إلى التغيير . فأنا أجل هذه الجدة التي أراها كل صباح يطلع وكل مساء يجيء . وفي كل شخص . وفي كل مظهر من المظاهر التي تعبر بها الحياة عن نفسها . أرتاح لأنني لا أرى شيئاً نهائياً . ولما كان التغيير دائماً فلا أراني أشبع من النظر والتأمل والتفكير أحب كل شيء : ما كان وما هو كائن وما سيكون . . أحب حتى الموت .

وسكت ، وساد سكون عميق ، ثم رفع إليها عينيه وقال :

— وأنت ياشوشو؟ وما رأيك !

وكانت جالسة وعينها إلى النافذة ، فالتفتت إليه كأنما أيقظها صوته من حلم ، والتقت عيونهما ، وقالت :

— أنا ؟ لا أدري ! إنني لم أكن مصغية .

فاضطرب شيء في صدره وخفق قلبه خفقة عطف مضطرب وشعر كأن بها حاجة إلى حمايته ، واستغرب من نفسه هذا الإحساس الذي لامر له ولا موجب لنشوئه فابتسم وقال :

— ألم أقل لك إن المرأة يعجزها أن يكون إحساسها شاملاً ونظرتها جامعة وروحها واسعة محيطية ؟

ورآها مصغية إليه ففضى في كلامه :

— أنا مثلاً — ولست أعني نفسي على وجه الخصوص ، ولكنني أعني الرجل على العموم — أستطيع أن أفتح قلبي للطبيعة كلها بكل ما اشتجته عليه وأن أغمر كل مظاهرها بحبي ، حتى هذا العنكبوت الذي يخيفني في العادة

والذى أكره أن أرى نسجه فى زوايا النافذة أو أركان الغرفة ، يفيض قلبى
له ويتفتح . ولكن المرأة شىء آخر . لم ترزق هذه السعة الروحية . نعم
قد تحس أحيانا بشوق إلى أن تضم الكون كله بين ذراعيها . ولكن هذا لماذا ؟
لأنها تحب إنسانا معيناً لا ترى سواه ولا تحس إلاه والكون كله مختزل فى
شخصه . وليس لشىء وجود منفصل عنه فهى إذا أحببت الطبيعة فإنما تحب
فيها هذا الرجل الذى يملأ دنياها ويستغرق عالمها .

فأرخت شوشو عينها هنيئة ثم رفعتها إليه وقالت :

— وإذا كان الرجل هو الذى يحب ؟ إذا كنت أنت مثلاً هذا الرجل .
فاضطرب وتدافعت العواطف فى صدره ، وأحس الندم يعض قلبه
وخيل إليه كأنه يرى وجه زوجته التى ماتت منذ سنوات ، يطالعه من ظلمة
الماضى الدفين ويلومه ويتهمه ، يتهمه ؟ لماذا ؟ وكأنه يسمع صوتها يقول
معنفاً : « كيف يمكن أن تحب مارى ؟ » وغاب الوجه واستسر ولم يبق
إلا شوشو تنظر إليه بعينين تحلمان ، وابتنسامة فيها شىء من المرارة ، ووجه
ماذا جرى له ؟ أين ذهب لإشراقه ؟ ماذا فعل الله بصباحته ؟ إن هذه الفتاة
عجيبة ! وهاهى ذى تومض عينها إيماضة خبيثة كأنما يسرها ماتقرأه فى
وجهه من الاضطراب ! مالعينها متعلقة بعينه ؟ أهى ناظرة إليه ؟ كلا !
إنها كالتى ترى شيئاً هو أحلى وأعذب من كل حقيقة منظورة .

وتنهى وقال :

— أى سؤال هذا يا شوشو ؟

فنهضت مثله وقالت :

— أهو سؤال غريب غير جائز ؟

وكان يمشى فى الغرفة فلم يفتح الله عليه بخير من :

— كلا . لا غرابة . إنى جائع جداً ولست آتياً هنا لأصوم .

فانفجرت ضاحكة وقالت :

— ألا تزال ملتحقاً بكبريائك ؟

فلم يلتفت إلى هذا ودنا منها ووضع يمينه على كتفها وقال :
— اسمعى يا شوشو : لقد قضيت هنا ليلتين ولم أجاوز عتبة الباب
إلا دقائق أمس . فما العمل ؟ لست أرانى سأطيق هذا الحبس فقولى لى أين
أذهب . ولكن بالله عليك لا تقلدى بى فى وسط جحافل من أجلاف
الريف . . .

فتكلفت الجدة وقالت :

— هل تستطيع أن تخرج وتسير فى هذه الأوحال ؟
فقال :

— قبح الله الريف ! ألا شىء غير الجلوس فى هذه الحجرة ؟
قالت :

— أملتنا جدا ؟ وبهذه السرعة ؟

فأسرع يؤكد لها إن الأمر على العكس ، وإنه لم يضجره إلا الحبس وأن
بوده لو استطاع أن يخرج معها إلى الحقول ، فصفت وصاحت به وقد
اضطرم نغداها :

— ما أحلى هذا ! أوده من كل قلبى .

— ولكن كيف يمكن ؟

— أوه . سأجد الوسيلة . دع هذا لى .
ونخرجت لتجيئه بالطعام .

الفصل الحادى عشر

« حبيبى مد يده من الكوة ، فانت عليه أحشائى »

ما معنى هذا ؟

حار إبراهيم فى تفسير خواجه وما بجاش به صدره وهو جالس مع شوشو . ولم يكن ما قرأه فى أسارير وجهها وعينيها العميقتين أقل تحيرا له ، فلم يطق الجلوس فى الغرفة وانتظار الطعام ، ونحشى أن تبيته به تلك الزنجية اللامعة كالفحمة ، وكره أن يرى وجهها بعد شوشو ، واختلج فى قلبه شىء من العطف عليها من أجل هذا الكره الذى يحسه لها ، وكأنما أراد أن يهرب من نفسه ويتجنب أن يواجه ما تضطرب به . فأسرع فأنحدر من السلامك إلى الفضاء الذى أمامه وتذكر وهو يهبط السلم كيف تركته شوشو بين ثلاثة كلاب ضارية فابتسم وهو يقول : « تالله ما أظرفها ! إن معين حيلها لا ينضب ثم تجهم إذ رأى نفسه يكر إلى ذكر شوشو ويدعها تستولى على خواطره فأسرع فى المشى ولم يلتق بأحد ، فقال إلى الحديقة غير عابىء بالأحوال التى تراكمت على حذائيه ، وقال يحدث نفسه وهو يقتلع رجليه واحدة بعد الأخرى من الأحوال « أما لو أن الأرض جافة ! إذن لا استطعت أن أمشى قليلا وأن أفنى بالمشى هذه الإحساسات الجديدة وأنفقها فيه وأحيلها عرقا يتصبب » .

ورأى رجلا جالسا على حجر فى آخر الحديقة ، فضى إليه فألقاه شيخا هرما فى يده العصا ، ونهض الرجل متوكئا على عضاه ورفع له يده بالسلام . وراق إبراهيم وجهه المغضن كالحصير وشارباه المتهدلان كأنما كلت شعراتهما وفترت ، فحياة ووقف صامتا لا يدرى ماذا يقول ، وأحس كأن بينهما جونا يتعاضم المجتاز ، واشتاق أن يفتح قلبه لهذا

الشيخ المتهدم الضيق العينين المتدلى الشاربين المتوكىء على العصا الذى اجتاز
أدغال الحياة كلها وشق طريقه بين أشواكها وتمنى لو يفتح له هذا الشيخ
قلبه ، فيقول هـذا بشجوه مرة وذاك بشجوه مرة ولكنه لم يجد
الكلام حاضرا ولم يدر كيف يحجره إلى التحدث عن نفسه ، فاكتفى
بأن يقول :

— من أبناء القرية ؟

وسخر من نفسه إذ قال ذلك . من أبناء القرية ؟ أنه من جدودها بل
جدها الأعلى فيما يعلم !

وقال الرجل بصوت حاد كأنه الصفير « أيوه » ووقف ينتظر السؤال
الثانى فقال إبراهيم : « أنا من مصر » كأنما أحب أن يبادلته التعريف ويشعره
أنهما ندان .

فقال الرجل : « ماشفتهاش يا أفندى » .

فقال إبراهيم : « لم تخسر شيئا » .

ولمعت عين الرجل وهو يحجب الشمس بكفه ويقول :

— بيحولوا أنها جميلة . ماشفتهاش يا ابنى .

— ليست أجمل من قريرتكم .

وسر الرجل هذا الثناء على قريرته وبدأ الارتياح فى هزات رأسه وقي

ازدياد عمق الأخاديد التى حفرها الزمن فى وجهه وهو يتنسم وقال :

— بلدنا ؟ الشبان ما يعرفوهاش يا أفندى . يرحلوا ويجعدوا فى البنادير ،

يبعتوهم المدارس يجوموا ما يطيجوش البلد تانى . بيعلموا الصلحة حداك
والمال كمان .

وتحمس فدق الأرض بالعصى وقال : « بحالى سبعين سنة عايش فى

الأرض ما هجرتها يوم . وأروح فىن ؟ » .

وابتسم ووقع كلامه من قلب إبراهيم فقال :

— وهل كل الفلاحين مثلك ؟

— أيوه . زبي ؟ لع ! ما حد زبي ؟ شبان الزمان ده كيف يبجوا زبي ؟
ما طيج أفوت ريحة الأرض .
وضحك الرجل أو على الأصح انفرجت شفتاه عن فمه الذي عاد أدرد
كالكهف الخاوى وقال :

— إنه زى البجر اللي تهزل وتهبط لما يتغير المرعى .
ثم رفع يده التي فيها العصا وقال مشيرا إلى نوافذ السلاملك :
— بينادم عليك يا افندى .

فتركه إبراهيم أسفا ولم يتحول إلى السلم بل قصد إلى نافذة غرفته مخترقا
إليها الحديقة ، وطاف برأسه العجب من أن تأسر الأرض رجلا كهذا ،
وتقيده إليها سبعين حجة : ما أقوى هذه الأرض التي لا يعود رجل مثله
يطيق فراقها أو حرمان رائحتها ! وأدار عينيه في الحديقة وهو سائر لا يلتفت
إلى شوشو التي كانت تشور له أن يرتد ويتحول ، ورمى طرفه إلى المساحات
المترامية وراء السور ، ثم رده إلى جمال الغصون وسحر الألوان إذ تحفق
الأفنان في ضوء الشمس . فلم يجد عجيبا أن يتدفق حب هذه الأرض في
عروق أبنائها ويجرى مع دمائهم ، وهم الذين يفلحونها ويتعهدونها بما
يزيدها خصبا ويرصدون لها عيونهم وقلوبهم حتى يعودوا من فرط ألفها
لا يطيقون أن يبرحوها وأن تخطيء لحاظهم غضارتها ونضارتها وخضرتها
الندية وشمسها الدافقة الحرارة وجوها الطليق ونسيمها العطر ، ومطرها
المهر وسحبها المتكاثفة طبقات بعضها فوق بعض ، وماشيتها ، وكل ما حفلت
به من حيوانات صغيرة وكبيرة لها كل ساعة بل كل لحظة تجديد .

وصار تحت النافذة فأومأ لشوشو وقال :

— من هنا . أطعميني من هنا .

فابتسمت . ما أحلى وجهها وأعرق عينها ! لم يرها قط أصبح ولا أجمل
منها اليوم . وكانت عينها تنتقل من الطعام إلى الأرض ثم قالت :
— ولكن كيف أستطيع ؟ تعال إلى . هذا أحسن .

فهرز رأسه مصرا وأعلن إليها اكتفائه بلقمة وقطعة من الجبن أو بضع زيتونات ، واهتز كيانه سرورا بتناول الطعام على هذه الطريقة . وراق خياله أن تلقى إليه شوشو باللقمة بعد الأخرى ، وأن يتلقف ما تلقى ، بل أن تفلت اللقمة وتخطئها كفه وتقع فيلتقطها ويلتهمها بكل ما يعلق بها ، ولكن شوشو كانت تهم أن تلقى إليه برغيف كامل حشته ما لا يعرف فصاح بها :

— لا لا . لقمة لقمة . من فضلك .

فرمت إليه نظرة دل واغتيباط ، وضحكت وراحت تطعمه على نحو ما أراد وهو يشعر بالحاجة إلى التوثب والقفز ، ولا يكاد يطيق الوقوف على قدميه . وكانت ربما أوهمته أنها ملقية إليه باللقمة فيمد كفيه ليلتها فتخبب أمله ، فيضحكان ويكون هذا أحلى وأمتع .

ولما أصاب كفايته من الطعام ، قال لها :

— ليس في الحديقة أحد غير هذا الشيخ الهرم ، فانزلى إلى .

فنظرت إليه مفكرة ، ثم حنت على النافذة وأطلت بوجهها وصدرها وتلفتت ، وكأنما اطمأنت فقالت :

من هنا ؟ أتلقفني إذا هبطت إليك ؟

فصاح يردّها وقد خاف أن تجازف :

— كلا . تعالى من السلم الآخر .

ومضى ليسبقها إلى المدخل ويستقبلها عنده . ولم تلبث أن جاءت تعدو فخشى أن تزل قدمها في الزحاليق ، فدفع ذراعيه ليقبها العثور وهي تجرى مقبلة ، فإذا بها ترتمى بينهما ، فكاد يقع بها ولكنه كان قريبا من الحائط فاعتمد عليه بكتفه ، ولو كان الأمر إلى شعوره وإلى ما يشي به سكونها بين ذراعيه من الرغبة في البقاء ، لظل يحتضنها . ولكنها كانت شوشو— بنت خالته وصديقتها الصغيرة التي كم داعبها وهي طفلة ، وخرج بها للرياضة والنزهة ، وكم ركبت ظهره وزحف بها على البساط ! وكم

دفعت كفها الصغير في جيبه باحثة عن الشكولاتة والحلوى واللعب الدقيقة التي اعتاد أن يشتريها لها ويتبقها معه حتى تنح. له فرصة يقدمها إليها فيها من غير أن ترى أختها الأخرى ! وكم تسالت إلى سريرته وراحت تمسح له وجهه وهو نائم بيدها اللينة الدقيقة الأصابع ، حتى يفتح عينيه ويتأهب ، فتلتئم أقرب ما يكون إليها منه ، وكثيرا ما قبلت اللحاف ، ثم تضحك فيبتسم ويعجب كيف لا يغضبه منها إزعاجها له وإيقاظه ، وتشد ذراعه وقد تجر رجله لينزل عن السرير ويلاعبها .

طافت برأسه هذه الصور ومثات غيرها من أيام طفولتها فأحمر وجهه ، وأنكر من نفسه أن يتركها بين ذراعيه ، ولكنها كانت كالعصفور وجد وكره وإطمأن إلى عشه ، فلم يجد في قلبه من جفوة الطبع وقسوة النفس ما يشجعه على أن يدفعها بغير مراعاة لها أو اكتراث لإحساسها . فمسح شعرها بكفه — إيه ما أنعمه وأبدعه متوهجا في ضوء الشمس ! وهمس في أذنها « شوشو » فرفعت إليه عينها في فتور كأنما كانت تحلم فربت لها على كتفها وقال : « هلم بنا » ، فاعتمدت على كفيها — وكانتا على كتفيه — وجملت نفسها في ثاقل وبطء وبجهد واضح .

الفصل الثانى عشر

(فى الليل على فراشى طابت من تحبه نفسى - طلبته فما وجدته)

لم يغمض لشوشو جفن فى تلك الليلة ، وإن كانت - على خلاف عادتها - قد بكرت فى الذهاب إلى مخدعها ، وتركت أختها نجية وحدها مع طفلها ، وزعمت أن جفونها مثقلة ، وجعلت تتشاءب وتهوم وتتناوم حتى قالت لها نجية :

- قومى يا حبيبتى . لا تتحامل على نفسك .

وكانت الأشجار ترى فى ضوء نافذة غرفتها . وأكثرها قد ذهب مع الربيع رونقه ، ولكن بعضها ، وأدناها إلى النافذة كان مورقا رافا منورا ، وكان ضوء القمر ينفذ إلى الأوراق الخضراء ، ويومض فى صفحاتها كأنه قطرات لامعة من الفضة . واستراحت الأطياف والضفادع إلى سكون الليل وسهوم القمر ، فانطلقت هذه تنفق وتلك تصدح أو تصفر ، وودت شوشو فى هذه الساعة لو أنها كانت عصفورا يذهب إلى حيث يشاء ويخلق فى الجو ، ويسبح فى الفضاء ، ويبصر وهو ناشر جناحيه كل ما بين الأرض والسماء - عصفورا ينحدر على شعاع من نور الشمس أو خيط من ضوء القمر - عصفورا يرفع منقاره وهو طائر ويتلقى فى فمه الدقيق قطرة من المطر - عصفورا يحط على أعلى فن فى أسمى شجرة ، أو يهوى إلى الأرض ويخطو بين أغصان البرسيم فتحجبه ، ويضع بيضه الصغير فى حيث يروقه أن يؤلف عشه ، ويمد منقاره إلى الماء حيث يجده ويمص قطرة ويتلفت - عصفورا لا يغير ثيابه ولا يبدل أفواف ريشه ولا يكون فى رأى العين مع ذلك إلا جميلا . آه إنه روح الكون ولا شك فى العصافير والسحب - ساجدة تجوب الآفاق وفى

الأزهار والأشجار التي لا تكون إلا عطرة ولا تبدو إلا حالية موقنة ولا يعتورها
خلق ولا يساورها اضطراب . آه ! لماذا تقلق النفس ؟ لأي شيء تطلب ما ليس
في اليد وتريد أن تحس وأن تعلم وتبغى أن تحب وأن تحب ؟؟

ولما بلغ بها التفكير هذا المدى اعتمدت بكروعها على النافذة واتخذت من
كفيها كأساً لذقتها . لقد تغيرت الدنيا كلها في يومين اثنين ، لا بل في يوم
واحد . نعم كانت تحب إبراهيم من قبل كما كان يمكن أن تحب أخاها لو أن
لها أخاً ، غير أنها لم تكن تحس بمثل هذا الحنين إليه . ولا كانت تصبو
إلى مشاطرة كل شيء بل إلى أن تهبه وتمنحه نفسها وتسليه وتحميه وتفوز منه
بالروح والراحة - الراحة في أي شيء ؟ أهذا هو الحب الذي تصفه القصص
الفرنسية التي قرأت منها عشرات وعشرات ؟ كلا ! تلك حكايات لفقها
الخيال النشيط ، ومن أين لكتاب تلك القصص المزورة أن يعرفوا كيف
يثب القلب إلى الخلق وتضطرم النفس وتعود كالبركان الذي يوشك أن
ينفجر ويقذف بالحمم ؟ أيكون الحب طاغياً عنيفاً كما تجده هي ؟ وبأليت
من يدرى كيف صارت تخجل الآن ، وتشعر النار تندلع في وجنتها
وبالدموع كأنها ستطفر من عينيها كلما رأت أنه بعد أن طما في نفسها هذا العباب
الزاهر وهي بين ذراعيه عند باب الحديقة ! أن لهذا الحب ووعة ليست
لسواه .

وابراهيم ؟ إنه وعمر من النفس - لماذا ياترى ؟ ألا تستطيع أن تستدرجه
حتى يكشفها بما تنطوى عليه أضالعه لتحيط خبراً بدواعي هذه المראה ؟
ولكنه حتى كثير الجهامة ، وإن كان من واجبي أن أعترف أنه ظريف
الدعابة مليح الفكاهة حين تسلس نفسه ويصفق أفقه ، وآه من عينه على رقبتها !
لم تر شوشو أبجد منها ولا أنفد ، هي عين تأخذ كل ما دق وجل مما يقع تحتها
فليس يفوتها شيء حتى ما هو مغيب في الصدور . وبأما كان أحلاها هنية على
تقصرها ، وأنا بين ذراعيه ورأسى على كتفه ! وما كان أرقه وأحناء وهو
ينحنى عنه وقد تصلبت عضلات وجهه حتى صار كالدمية المنحوتة من الصخر

والورود البيضاء ترف في حوضها كأنها مضوغة من ذوب أشعة القمر ،
والأفنان تهتر وتترنج فوق رأسينا ولأوراقها حفيف مطرب ، والسماء تبدو
من خلالها شتى الشكول ، وندى الصباح على وجهينا ، والسكون واسع عظيم
وكان الدنيا كلها في صلاة وتسبيح ، وقلبي مثلها يسبح بحمد الله . لقد كنت
سعيدة ، وأظنه هو أيضاً كان سعيداً على الرغم مما كان في وجهه . ما أشد
سحر هذا الحب الذي يجعل الدنيا ويفيض عليها من الفتنة ما لم يكن لها ،
ويجملها كاللحم اللذيذ لابل كالصوت الجميل . . كالنغمة العذبة . . كالغناء
الملائكي . لكأن روحى هائمة مع روجه الآن . . لم تعد روحى في بدنى
فليتها تظل معه هائمة ، فما أريد أن ترتد إلى جسمى . . لست أبغى أكثر من
هذا . أبدا . أبدا ! ايه أيتها الغبطة ، نشدتك الحب الا ما بقيت معى !
لا تنقضى . . لاتذهبي عنى !

ولكنه يفر عنى . سباحات عقله تخيفنى ووثبات خياله ترعبنى فأتضاءل
وأتضاءل ، أحس كأنى لم أعد شيئاً ! ما أقساه حين يفتح عينيه كأنما يريد
أن يلتهم بهما الدنيا . ويروح يتكلم كأن ليس معه أحد . لا يحسنى في تلك
اللحظات ولا أظنه يرانى ، ويخيل إلى أنه يبصر ما ورأى من خلال
بدنى . . وانتفضت كأنما سرت في جسمها رعسدة فلفت شملة الصوف
التي كانت على كتفها . وجمعت أطرافها على يديها فوق صدرها
ومضت إلى السرير ، وقعدت وتنهدت ، وقد طاف برأسها أن هناك سرّاً
هو علة هذه الأطوار الغريبة من إبراهيم ، فإن له ساعات يطول فيها وجومه
فلا تتحرك حتى شفتاه وأحياناً ينفجر غاضباً بما لا تكاد تفهمه فيحيرها
ويروعها ، وطوراً تنبسط نفسه إلى الحياة والدنيا وتهش روجه فلا يكاد
يطيق جسمه ، وطوراً آخر يضحك ويلعب كأنه جديد في الدنيا لا يعرف
إلا صفحتها المشرقة ، ليس كل هذا عفواً ! ترى ماذا يجيش في صدره هذا ؟

ألا يمكن أن أعلم؟ كلا ! لا أمل . فإنه كتوم ، كتوم متكبر كما يقول ، يعد الإفضاء بما في نفسه ضربا من الشكوى . وكل شكوى عنده ضعف لا يليق بالرجل . وأسفاه . إن أعرف أيجبني كما أحبه ؟ لن أسمع اللغة التي أود لو يخاطبني بها . لغة الحب المجنحة . لغة القلب النارية . كلا لا أمل في هذا أيضا . لأنه شيء ينكره خلقه الوعر .

واشتهت شوشو أن تقول بشجوها ، وإن تصب في أذن إنسان ما حديث حبها ، وأن تطرح عن قلبها ثقل هذا الكتمان . ولكن لمن؟ الأختها ؟ وأسفاه ! إن هذا يكون جنونا مطبقاً ، فما تستطيع اختها أن تقدر الحب إلا بين زوجين ، وحتى بين الزوجين لا يليق عندها أن يجرى كلام فيه . اختها نجية ؟ إنها ليست سوى كذا قنطار من اللحم ، وما عرفت قط إلا العفاريات والخرافات . ولا عهدتها شوشو تستطيع أن تنزل عن شيء مما درجت عليه .

ووجدت شوشو نفسها تنحى على أختها كان لها عندها ثأراً . ففجبت لهذا وأسفت وانثنت تعتذر لها بنشأتها وجهلها ، ولكن أسدت الدنيا فلا سبيل إلى أحد تبثه ما في نفسها ؟ وخطر لها أن أختها الوسطى سميحة أقدر على الفهم ، غير أن سميحة في الاسكندرية مع ابن عمها (زوج نجية) وعلى أن مكاشفتها بهذا الحب ، مسألة فيها نظر كثير . فإن سميحة أكبر من شوشو ، والكبرى تسبق الصغرى إلى الزواج ، وليس بمنجهول أن سميحة ما انفكت منذ سنتين تتحجب إلى إبراهيم وتحاول أن تستولى على هواه وتقتنص قلبه ، وابتسمت شوشو وهي تفكر في هذا ، فما يخفى عليها أن إبراهيم لا يطيق سميحة ، إنه على الرغم مما هو معهود فيه ومعروف عنه من ضبط النفس والقدرة على كتمان عواطفه ، لا يحاول أن يداجي سميحة أويداريها ، ولا يتكلف أن يكتبها أنه يمقتها ، فهو يحرف اسمها ويدعوها « سوسة » ولا يكون إلا سيء الخلق في حضرتها ، بل لا يزال يفر من مجالسها كلما وسعه ذلك . وهي ؟ وأسفاه ! لا تنهزم ولا تبالى هذه الجفوة ولا تحفل نفوره منها ، بل تزداد شدا عليه ومطاردة له ، ومع أنه سر شوشو أن تشعر أن في

وسعها أن تكرر على يقين من أن «سوسه» لا أمل لها في إبراهيم ، وأن لها «أى شوشو» أن تطمئن ، إلا أنه لم يخف عليها أن كون (سوسه) لم تتزوج بعد ، سيكظ الطريق بالعقبات والمصاعب ، ويجعل أملها هي ، أى شوشو لا أقرب ولا أيسر . فنكست رأسها وقد أغرورقت عيناها وزايلتها الغبطة التي كانت تحسها ، وحل محلها الاكتئاب ، وبدأ اليأس يدب في صدرها فأحست أنها توشك أن تختنق . ماذا تصنع ؟ أين القلب الذي يمكن أن يعطف عليها ويرثي لها في هذه المحنة ؟ بل أين المخلوق الذي تستطيع أن تبيحه دخلتها وتفضي إليه بسرها ؟ لا أحد ! وهالها أن تشعر بالوحدة في هذا العالم الزاخر ، وأن ترى إلى أى حد أرضاها حبها لإبراهيم مستفردة وفي هذه اللحظة فقط أدركت أن حولها أربعة جدران سميكة ، وأن هذه الجدران الأربعة — من ورائها ومن قدامها وعن يمينها وعن شمالها — محيطة بها مسدودة عليها في حيثما تكون من الأرض . لماذا خلقها الله في مصر ؟ ؟ لماذا يضرب عليها هذا الشقاء ؟ حتى إبراهيم لا يسعها أن تذهب إليه وتقول له : «إني أحبك» كلا ! هذا أيضا مستحيل . لأن التقاليد والآداب تأتي ذلك وإنها لوائية الآن أن إبراهيم يحبها وأنه يتمنى لو استطاع أن يعلن لها حبه ، ولكنه مثلها تقيد لسانه التقاليد والآداب ، وما أدراها ؟ لعله الان — في هذه اللحظة بعينها — تؤرقه الحيرة والكد — الا أن في هذا العزاء لقلبها . وبحسبها أن تعلم أنه مثلها موجه بمكروب مهموم . ورق . ولكن من يدرى ! حتى هذا العزاء التافه فيه شك كبير ! ألا تستطيع أن تذهب إليه وترى ؟ ؟ والأسفاه ! كان هذا أمس — أمس فقط — ممكنا ! لشد ما يتغير كل شيء في يوم وليلة ، بل في ساعة واحدة ، لم تكن أمس قد انتهت إلى الاعتراف والإقرار فيما بينها وبين نفسها بهذا الحب ، فلم تكن تخجل أن تجرى إليه وتدفع الباب في جرأة وتوقظه إذا كان نائما ، وتجره من رجله وتمازحه وتداعبه ، وتكون معه كما تكون الأنثى المدللة مع أخيها الذي يحبها أما اليوم ، فقد سد شيطان الحب هذا الطريق . ولكن لماذا ؟ لا تدري ،

وكل ماتدريه هو انها صارت تستحي حتى أن تلقاه بعد أن عرفت مافي نفسها له .

ولكن ألا سبيل مع ذلك إلى معرفة ماتصبو إلى معرفته ؟ ألا يمكن أن توفد . . من ؟ فاطمة ؟ ليس ثم غيرها . انها أمينة مخلصه وفيها وفاء . وانشرح صدرها فتسللت من خرفتها الى حيث فاطمة نائمة . وكانت ملفوفة في لحافها ولا شيء يبدو منها ، فكشفت عن وجهها وجعلت تحركها حتى أيقظتها . وأشارت إليها أن تتبعها في صمت ولما صارتا في غرفة شوشو قالت فاطمة وهي تفرك عينها .

— نعم ياستى .

فابتسمت لها شوشو ودنت منها ووضعت كلتا يديها على كتفيها وقالت :
— أريد منك أن تذهبي إلى السلامك وتنظري ماذا يصنع إبراهيم . فأفاقت المسكينة جدا ودقت صدرها بكفها وقالت : « أنا ؟ أنا ياستى ؟ » .
فأسرعت شوشو تزعجها عن رفع صوتها وقالت : « هس . لا تدعى أحدا يسمع ، نعم أنت ، وما الضرر ؟ »

قالت : « الضرر ؟ أتريدين أن يقتلني ؟ إن سيدى إبراهيم صعب لا ياستى ! » .

قالت شوشو : « لا عليك . سأعطيك فستانى الأخضر . إنه جديد » .

فقالت فاطمة وهي لاتفهم : « ولكن لماذا لاتذهبين أنت ؟ » .

نعم لماذا لاتذهب هي ؟ ! ياليت من يدري كيف صار هذا عسيرا ؟ ورأت فاطمة أن ستها شوشو واقفة مطرقة وفي وجهها سهوم غريب . فأدركها العطف على ستها ، ولكن خوفها من إبراهيم كان أعظم من رثائها لشوشو فقالت :

— ثم إنه لا يليق ياستى أن أذهب إليه في الليل هكذا ؟ هذا عيب ! ماذا يقول عنى ؟ لا لا ياستى ؟ أتريدين أن يقتلنى سيدى الشيخ ؟

ولكن هذا العذر الذي تقدمت به فاطمة لتنجو ، هو بعينه الذي
الأمر على شوشو ويسر لها الحل فقالت :

— لن تذهبي وحدك ، فسأرافقك ، وأقف في الصلاة وأنت تتقد
إلى الباب وتفتحينه بلطف وتنظرين . فإذا سألك أو زجرك أسرعت
نجدتك . افعلي لأجل خاطري يا فاطمة .

— ولكنه لاشك الآن نائم ياستي .

لا لا لا .

— كيف تعرفين ؟

وزادت دهشة الخادمة وصار اللغز فيما ترى أعوص . ولكنها ليد
مطالبة بالتفكير ولا يحل الألغاز ، وتذكرت الفستان الأخضر وأن سيه
لم يشتر لها في هذا الشتاء كسوة ، وسيدتها نجية لم تخلع عليها شيئا من ث
القدمية ، فتوكلت على الله وخرجت تطلب المصباح فنعتها شوشو ، وما
معا في الظلام والبرد ، وشوشو تسأل نفسها : « ما آخر هذا الحب ياترى ؟

الفصل الثالث عشر

((عهدا قطعت لعيني فكيف أتطلع الى عثراء ؟))

ما آخر هذا الحب ؟

في هذا كان إبراهيم يفكر تلك الليلة ، وهو مضطجع على سريره في الظلام ، وكان لا يستريح إلى النور إذا ثقلت على كاهله وطأة الحياة أو ألح عليه إحساس أو خاطر ، كأنما يخشى إن يفضح النور له سرّاً ، أو يهتك لما يخفيه سراً ، وكان امرء لا ينفك يغالب نفسه حتى يقهرها أو تقهره قبل أن يستسلم لعاطفة أو فكرة ، وكان مذ أوى إلى مخدعه ، يدخن سيجارة في اثر سيجارة ، وكان يشعل الجديدة من القديمة ، ولا يجد للدخان طعماً ، ولا يفيد منه سروراً ، وأراد أن يشغل نفسه أو يلهيها عما يكظ شعابها ، فشرع يلتمس تعليلاً لفتوره هذا عن التذاذ الدخان ، فزعم لنفسه أولاً أن الحواس - ولا سيما حاسة النظر - هي التي يرجع إليها الإرتياح إلى التدخين وأن المرء إنما يعتاد في الحقيقة أن يرى الدخان يتلوى ويعقد سحباً صغيرة بعد أن ينفخه بفيه ، وأن يشهر بالسيجارة بين أصبعيه وبين شفثيه ، ولكن المهم هو رؤية الدخان ، لأن العين أهم الحواس وأوثقها اتصالاً بالدماغ . وأقدرها على إفادة الصور الذهنية .

ولكن هذا التعليل - على قربه من الصواب - لم يقنعه ، ووجد إبراهيم نفسه يتساءل : « هب النور مضاء ، ومعى . . . شوشو ، أكنت أنظر إلى الدخان خارجاً من في ومتلوياً في جو الغرفة ، أم إليها هي ؟ » وغضب لما رأى نفسه يكرر إلى ما يريد أن يتلوه عنه . وقال في عناد : « حسن . فلنواجه الموضوع » .

وواجهه في حزم وشجاعة واستعداد لاحتمال النتائج : لقد تحول حبه لشوشو من أخوى إلى جنسى ، ذلك ما لاشك فيه ، فهل له أن يأمل أن يفوز بها ، وأن يقنع أهلها أن يزوجه منها ؟ كلا ! فإن في الطريق تلك البنت الخبيثة التي لا تحجم عن كل شر إذا هم أهلها بأن يقدموا شوشو عليها . وستكون النتيجة أن تشقى شوشو ، وهى ستشقى على الخالين ، ولكن أهون الشرين أن تياس من الآن ، والعاطفة غضة لم يستفحل أمرها ولم يستعص علاجه .

وهو ؟ أوه . ليست هذه بأول عاطفة احتاج أن يحنقها ! وأنه لعذاب وأنه ليحس كأنما يقتلع أحشاءه مع العاطفة التي يحاول أن ينزعها من قلبه . وطاف برأسه قول ابن الرومى :

« وقع السهام ونزعهن أليم »

فقال : « صدق المسكين » ، وود في هذه الساعة لو أن معه ما طبع من ديوانه ، إذن لقضاها ليلة طيبة مع هذا الشاعر المنكود الحظ ، الذى ألهته الحياة بسياط من نار ، وكربته الجواطر فراح يتساءل : « ما الحب ؟ وما الشهرة والحمول ؟ وما السعادة والشقاء ؟ وما الحياة نفسها ؟ » وأعياءه أن يهتدى إلى جواب مريح - وأى جواب آخر سوى أنها عناء وباطل ليس يجدى . وليس هذا بجواب . وإنما هو همسة الضعف ، ووسوسة العجز . وصحيح أن الحياة لا فرق عندها بين سعيد وشقى ، ومجدود ومكدود ، ومعروف ومغمور وعاشق وخصي ، وحيوان ونبات وجماد . ولكن هناك فرقا بين إحساسات المرء بوقع الحياة ، والمرء ليس الحياة حتى يطلب منه أن يكون نظره إلى الأشياء كنظرها هى ، واعتباره لها كاعتبارها .

« والخلاصة ؟ » وجلس إبراهيم على السرير ورد على سؤاله « والخلاصة أنى لن أذوق النوم فى ليلتى هذه على ما أرى » وضايقه أن يكون أكبر ظنه أن يقضى الليل المقرور أرقا ، يناجى نفسه ويحاورها ويدهاورها على غير طائل . وتوهم أن ليس عليه إلا أن يعتزم النوم وإلا أن يريد فينام .

فانطرح على السرير وتغطي وأغمض عينيه وراح يتنفس بانتظام محاولاً أن يتقّى التفكير فى أى شىء . ولكن جهد اتقاء التفكير كان كجهد التفكير نافياً للنوم ، لأنه جهد على أى حال ، فخطر له أن يوحى إلى نفسه أنه سينام وجعل يكرر « سأنام » حتى قالها أكثر من ثلاثين مرة ، ثم ضحك فجأة وقد تذكر أنه كان مفتوح العينين وهو يردد هذا اللفظ . ولم يكن ضحكته إلا حركة غصبية لا عن سرور نفس ومراح ، فما عثم أن تجهم وهو يسأل نفسه وبعد ؟ وضاق صدره إذ لم يسمع مجيباً له على سؤاله ، فطرح الغطاء بعنف كأنما كان هو علة أرقه ، ووثب عن السرير حتى إذا استقر على رجليه تلفت وقال : « ترى أين المصباح ؟ ولم يسهه على كل ما به إلا أن يبتسم . أترى تجربة الأمس ستعاد ؟ البقرة البارحة - ترى ماذا صنع الله بها - والليلة المصباح ؟ وألقى نفسه يعجب لحياة الريف التى لم ير منها شيئاً إلى الآن ، وقيسها - متحاملاً عليها - إلى حياة المدن . ولكن دقته وما فطر عليه من العطف الذى تؤدى إليه سعة الأفق والقدرة على الإحاطة بالجوانب المختلفة - ردتبه إلى الإنصاف . فمضى يقول لنفسه إن المفروض أن المرء فى المدن يصنع ما بدا له ، ولكن استبداد العادات والتقاليد يقضى على كل نزعة إلى التحرر ، ولا يدع للمرء مفراً من النزول على حكم هذه العادات والتقاليد ، أما هنا فى الريف فحياة أشبه بمناوشات مستمرة ، فالمرء يجد نفسه مثلاً يتناول طعامه وحده فى أية ساعة . وقد تظماً فى الليل فتجد القلة فارغة أو لا تجد القلة على الإطلاق . وهذا الشيخ على ، على كثرة ما أنفق على بيته هذا - بناء وتأثيثاً - لم يعن بأن يعلق مصباحاً فى الغرفة يتدلى من سقفها ، فمرة ينام المرء على مصباح يضاء بالبتروى ، ومرة لا يجد إلا قنديل زيت أو شمعة ، وقد لا يجد شيئاً من هذا كله . ويذهب المرء إلى الحمام فلا يستطيع أن يوصل الباب ، إذ لا مفتاح ولا رتاج ، وهذا عجيب ، إذا ذهبت تعتبر أن الشيخ على كلف نفسه أن يجهز الحمام بحوض كبير ، وقد تكون فى

الحوض عاريا فيفتح الباب خادماً أو واحداً من هؤلاء الفلاحين الذين لا يدري إبراهيم أنهم خدام أم أقارب أم من عمال الأرض . والواحد يذهب إلى حيث يشاء في الليل أو النهار ، فلا يسأل أحد فيما يرى إلى أين أو لماذا أو متى تعود ؟ وأدهش إبراهيم أنه لا يعلم أين يبيت هؤلاء الرجال الذين يبصرهم في النهار راثنين غادين ، وداخليين خارجين ، وأدهشه فوق ذلك أنه لا يرى أحداً يقلقه اختفاؤهم دفعة واحدة ، بل لا أحد يذكرهم أبداً ، ولم يذكر إبراهيم أنه رأى أحداً يلعب شيئاً خارج البيت - كل ما رأى من الألعاب ، وهو لا يعدو الورق أو الطاولة ، يؤدي داخل البيوت وعلى الكراسي أو الوسائد . ولم يعجب إبراهيم لهذا فإن الزراعة رياضة كافية . وما حاجة الفلاح الذي يقضي يومه عاملاً في الحقل إلى كرة أو متوازين ؟ ولم يسمع إبراهيم إلى أن يعترف على الرغم من كل ذلك بأنه يشعر أن هناك روحاً تمسك البيت وتحفظ عليه وحدته - روحاً أو لعلها فتاة في ثوب قان من الصوف .. آه شوشو مرة أخرى ! تالله ما ألح هذا الخاطر وأشد تشبثه بالنفس ! أتراه هجر السرير في هذا الليل المقرور ليعود إلى التفكير فيها ؟ أولم يفرغ من هذا الأمر ؟ ألم ينته منذ لحظة إلى وجوب القنوط والأقناط ؟

وقطع عليه تفكيره صوت تهامس خافت . فأرهمف أذنيه وتسمع ، وكانت حاسة السمع عنده قوية ، فخيل إليه أن إنساناً يخلع نعليه . فبرز رأسه ومشى على أطراف أصابعه إلى الباب ووقف بجانب الخائط يترقب ويفكر . ما يعمل إذا كان هذا الطارق لصاً ؟ ليس معه سلاح يدافع به عن نفسه ، ولا هو قوى مغتول الساعد فيستغنى بقوته عن السلاح ، فإذا يصنع ؟ وألهم في هذه اللحظة أن يستغل الظلمة فعاد إلى السرير فسحب اللحف عليه وسواه . كأنه نائم تحته ليوهم القادم ، ورجع إلى حيث كان بجانب الباب واعتزم أن يدع اللص - إذا كان لصاً - يدخل في سكون ومن غير أن يعترضه ، وأن يتسلل

هو فيخرج ، وإذا وسعه فوق النجاة بنفسه أن يوصد الباب على الضيف الثقيل ويغلقه بالمفتاح ، كان ذلك خيرا .

وسمع قرقة كأنما داس اللص المحتمل على هندقة فارغة ، فابتسم وقال لنفسه : « سيكون هذا الظلام عوني وحليفى » ، لأن هذا الصوت تلتته صرخة خافتة مكتومة ، فحيره ذلك لأن هذا الصوت قد يند عن طفل أو امرأة أما عن رجل فلا . ونازعته نفسه أن يطل برأسه ولكنه استحمق هذا الحاطر فطرده ، ولم يطل وقوفه وانتظاره فقد بدا مصراع الباب - وكان موارباً - يتحرك ببطء شديد حتى لامس الحائط منه شيء فعوض إبراهيم شفته وأدرك أن المفتاح من الداخل . إذن لن يوصد الباب على هذا الواغل ؟ وليس من الحزم أن يعالج إخراج المفتاح والواغل منه قريب ، فلم يبق إلا أن يترك كل شيء للحظ ولإلهام الموقف ، وعليه أن يحافظ على هدوئه واتزان أعصابه ليتأتى له أن يتصرف بحكمة .

وأطل شيء كالكرة الحمراء فلصق بالحائط جدا ، وحدث في هذه الكرة العجيبة التي بدأت ترتفع حتى حاذت رأسه ، وامتدت ذراع ليس لها كف ظاهرة ، إلى الحائط الآخر ، وكأنما اطمأن صاحب هذه الأعضاء الغريبة ، فخطا بجرأة ، فما أسرع ما غير إبراهيم ما كان قد صمم عليه ، فأهوى إلى ساقى الداخل وجرها بقوة فوق صاحبهما على وجهه وندت عنه صرخة ايقن منها إبراهيم أن هذه امرأة . فحمد الله على أن حماه عار الفرار من امرأة ، وحنق عليها لأنه كان يوشك أن يبدو لها جباناً ، وتقدم إليها في ثبات وركلها برجله وصاح بها : « قومى أيتها اللعينة . »

فتوسلت إليه المسكينة : « فى عرضك يا سيدى . فى عرضك » فشد ذراعها بعنف وقال :

- ماذا تصنعين هنا يا بنت الكلب ؟ انطقى !

وركلها برجله .

فلم تقدر المسكينة على القيام وجعلت تكرر وهي تنتحب « في عرضك »
وفاظ إبراهيم أنها تبكى وأنها لا تزيد على التوسل ، وأنه لن يقف على سر
هذه الزيارة ، فكاد يحن وقبض على عنقها وهو يصيح :

— سأقتلك إن لم تنطقي ، قولى ماذا جاء بك ؟

— أنا !

فدخل عنها وانتفض قائماً إلى مصدر الصوت في مدخل الباب :
ثم دفع فاطمة برجله وقال : « قومي هاتى المصباح » ومضى إلى الكنية
في سكون .

وقالت شوشو وتقدمت إليه : « معذرة يا ابن خالتي . لا داعي للمصباح »
أنا أرسلتها إليك ورافقتها حتى لا تخاف » .

فلم يدعها إلى الجلوس ، وقال في جفوة متكلفة :

— أريد أن أفهم معنى هذا .

فارتبكت شوشو ، ولم يكن شيء من هذا كله مما تتوقع ، ولم يخف
عليها أنها كانت طائشة فيما فعلت ، وأنه مصيب في سؤاله ، محق في غضبه ،
ولكنها على عادة جنسها نسيت ذلك وتعلقت بلهجته الجافية فحزت في نفسها
وسالت الدموع على وجنتيها ، ووقفت تردد النشيج بجهد ، ولم يكن
إبراهيم ملتفتاً إليها لأنه آلى أن يتكلف الجفوة ، وأتيحت له الفرصة فاغتنمها
ولم يكن هذا بالهين ولكنه كان الواجب في اعتقاده فلم يتردد ، ومضى يقول
لنفسه وهو يجالس لا ينظر إلى شوشو : « ان الحياة كالنظر الى الظلام .
والمرء لا يعرف أى شيء هذا المقبل عليه وإنما يخمن ويقدر ، كما يقدر
في الظلام ويخمن أى شجرة هذه التى تصادفه في طريقه ، وكما يحاول
أن يتبين وهو سائر هل بلغ شفا شيء . . . والإنسان وحده هو الذى
يفكر ويتبرم ويعنى نفسه بهذا وذاك — وبالحياة والموت ، وبالمستقبل
وبالنور والظلام ، وبالحب والبغض ، لقد كنت فى الصباح مع شوشو هذه فى

الحديقة، وما زلت أذكر وهى على صدرى تلك النحلة الصغيرة التى طارت فوق رأسينا ومضت إلى الحشائش وخرزت رأسها فنامت . فبالت أنا كهذه النحلة نحيا كل لحظة أتم حياة ، فإذا تعبنا ألقينا رءوسنا ونمنا ، أما لو أن شوشو ليست هنا الآن ! . مسكينة شوشو واقفة وحدها فى الظلام تحديق فى سواد اليأس الذى لا يتخلله حرق واحد من النور . . مسكينة مسكينة » .

ونفض ومضى إلى النافذة ففتحها وأطل منها . فتضوع إلى أنفه نسيم الروض العطر . ولم يكن يرى شيئاً ولكنه لم يشك فى أن كل ورقة على غصنها ، وكل زهرة وكل عود نابت - كل أولئك متآمر أن يذيع كل مافيه من عبير وعطر ، وتنهد وهو يحدث نفسه أن كل هذه الحيات الصغيرة متحابة متعاشقة . وإلا لما اتسق جمالها كل هذا الإتساق .
وأغلق النافذة وعاد فلم يجد أحداً فى الغرفة .

الفصل الرابع عشر

« حبيبى نزل الى جنته ، الى خمائل الطيب ليرى بين الجنات ويجمع
السوسن » .

- ١ -

كان أول مارآه إبراهيم من حياة الريف - غير ما فى البيت الأنيق الذى
شاده الشيخ على - أحمد الميت راقدا فى حظيرة البهائم ، وكان إبراهيم قد
اعتزم أن يقلل من المكث فى البيت وان يكثر من الخروج إلى الحقول
والتجواب فى القرية ، على الأقل فى النهار ، حتى يحىء الشيخ على من
الإسكندرية ، فقادته رجلاه الى هذه الحظيرة وهو لا يدري .

وكان أحمد قد سكر فلما بلغ الحظيرة خرج عليها وارتمى فيها ، ولم
يكن يدري لاهو ولا سواه كم ساعة قضاها هناك راقدا يغط ، بهامته
وجلبابه الأسود وحذائه الأصفر الشامى ؛ وعلى أنه لم يكثرث لذلك ، بل لم
يكن يبالي كم ساعة أخرى يمكن أن يقضيها هناك .

ولم يكن منظر هذا السكران الطافح بالغريب على ما يظهر فى القرية ،
يدل على هذا أن إبراهيم رأى قريبا من رأس النائم حجرا منصوبا كأنما
أراد واضعه أن يتماجن على النائم - وشهرته الميت - فرفع عليه حجرا
كالذى ينصب على القبور ، وفيما عدا هذا الماجن المجهول لم يتبين إبراهيم
ان أحمد أزعجه أحد آخر ، اذا استثنينا حمارا كان مطلقا فى الحظيرة وكان
لا ينفك يدنو من هذا الراقد ويشمه كأنما يحسبه بعض المداود أو بعض
ما يوضع فيها . ويضاف إلى الحمار كلب - لم ينس إبراهيم انه رأى ليلة
جاء إلى هذه القرية - مستلقيا عند قدميه ولا يزال يرفع رأسه فتقع الشمس
فى عينه فتختلج جفونه .

وقف ابراهيم ينظر إلى هذا « الميت » ويفكر فيما ينبغى أن يصنع ويعجب للشيخ على كيف يتخذ مثل هذا المحنون السكير وكيلا له ويعهد إليه في الإشراف على شئون ضيعته . ثم تقدم فدفع الحجر برجله فألقاه ، ولاحظ أن عمامة الرجل على الأرض وأن رأسه عار وأن أشعة الشمس واقعة عليه وظن أن هذا قد يجديه فالتقط العمامة وغطى بها جبينه وعينيه ، وترك له فيه رائحة ليتنفس ، ولم يجد أن في وسعه شيئا آخر فأولاه ظهره ومضى ، ولكنه تلفت مرة قبل أن يخرج ، فإذا بالعمامة على الأرض مرة أخرى وإذا بأحمد الميت قاعدا يقول كلاما غير مفهوم .

والحقيقة أن أحمد الميت — على خلاف أكثر أهل الريف — لم يكن يطيق أن ينام وعلى رأسه غطاء ، ولعله يؤمن في أعماق نفسه بفائدة الشمس للجسم ولا يخشى وقوعها حتى على رأسه ، وكان منذ حدوثه يأبى أن يضع على رأسه شيئا وهو نائم ، ولكنه وهو قاعد ورجلاه ممدودتان لم يستطع أن يفضى إلى ابراهيم بعقيدته هذه ولا أن يبين له أن تلك عادته ولم تنفرج شفاته إلا عن تمتمة غير مفهومة ، فكر إليه ابراهيم وزجره أن ينهض إلى بيته إن كان له بيت غير هذه الحظيرة .

فنهض أحمد إلى قدميه وسأل ابراهيم :

— البيت ؟ لماذا اذهب إلى البيت ؟

ولم يكن هذا بالسؤال الذى يلقي على ابراهيم ، ولكنه مع ذلك قال له وهو ممتعض من منظره :

— اغسل هذه الأقدار على جسدك ايها البهيم القذر .

ولم يكذب قولها حتى كان أحمد الميت يخلع ثيابه ويقذف حذاءيه ويعدو في قميصه وسراويله المصفرين ، إلى النهر . فدهش ابراهيم وايقن أن الرجل لا مفر له من الغرق ، ولما كان لا يدري كيف ينقذه فقد بدا له أن يرجع إلى البيت ويخبر من فيه .

دفع إبراهيم باب الحديقة الخلفى بقدمه ، وانثنى إلى اليسار ثم وقف .
 ذلك أن شوشو كانت حائية على حوض الزهر تقطف زهرة من ازهار
 الأراولة وظهرها إليه ، فعرض شفته وخطر له أن يتراجع غير أنه خشى
 أن تنتبه ، فظل واقفا وقد بدأ المنظر يروقه ، فقد نفخت شوشو
 الزهرة لتطير عنها الحشرات ، ثم قبلتها ثلاثا وراحت تنزع غلائلها المستطيلة
 المتحاذية ، على مدار كأسها - واحدة واحدة - وتلقيا وهي تقول على
 التوالى : « نعم ، لا ، نعم . لا .. » فوافقت « لا » آخر ورقة ،
 فتجههم وجهها وتفلت ما بقى من الزهرة من بين أصابعها إلى الأرض ،
 ولبت هنيهة جامدة لا تتحرك ، ثم أهوت على الحوض فجأة واقتلعت
 زهرة أخرى وأعدت التجربة فكان ختامها « نعم » فى هذه المرة ، فلم
 تكد تقوى على الوقوف ساكنة وراحت تدب برجليها وتضم كأس الزهرة
 إلى فمها بكلتا يديها .

ثم كأنما طاف برأسها ان الكفتين متعادلتان وأن « نعم » يقابلها « لا »
 فالمسألة لم تنزحزح عن موضعها الذى كانت فيه من قبل ، فلا بد من
 تجربة ثالثة للترجيح ، وشكت فى انها بدأت التجربة الثانية كما بدأت
 الأولى « نعم » فقد يكون عدد الغلائل واحدا فى كل زهرة من هذه
 الأزهار ، فإن كان هذا هكذا فلا شك أن النتيجة تختلف تبعا لاختلاف
 ما تبدأ به . وإذا صح أن البدايتين مختلفتا ، وإن عدد الغلائل واحد ،
 فهل غشت إلا نفسها ؟ وهل يمكن أن تكون النتيجة إلا واحدة فى
 كل مرة .

ولكن هل الغلائل عددها متساو ؟ هذه هى المسألة ! ولحاجها حنت
 على الزهر فقطعت اثنتين ومضت تشد الورق وتعد ، فاختلف الرقان ،
 فتهلل وجهها وبدأ السرور فى وقفها وحركاتها ، فقد صار التجريب

معقولا ، والأمر متروكا للمصادفة والاتفاق ، وليس مما يسهل العلم
بنتيجته من غير أن يتكلف المرء قطف الزهر وإفساده بتزع ورقه ،
وصاحت « لنبدأ من جديد » .

فعلم ابراهيم أنها محت التجربتين وأسقطتهما من حسابها ، وراحت
تنزع الورق في تؤدة وأناة وتثنى رأسها على صدرها في كل مرة ، حتى
بقيت ورقة واحدة قالت من غير أن تنزعها « نعم » طويلة ممطوطة كأنها
الصعداء تنففسها وتحط بها عن كاهلها وقرا ، ثم وقفت ساكنة لاتصنع
شيئا ولا تتحرك . ورأسها مثنى على صدرها وعينها ترنو إلى الكأس الذى
لم تبق على حافته سوى ورقة واحدة وفي وجهها طول ، وفي هيئتها
استرخاء كأن جسمها موشك أن يتهافت وأن يهوى إلى الأرض كوما مفكك
الذرات .

فعمجب إبراهيم لهذه التى كانت تطفو كالفرشة قبل دقيقة لماذا . وجمت
بغته وللنفس الانسانية وسرعة انتقالها من المرح إلى الكآبة ، ولخفاء
البواعث التى تفضى إلى هذا أو ذاك على حين تدعو الظواهر إلى النقيض ،
وود فى هذه اللحظة لو يستطيع أن يرد إليها البشر الذى كان ينضج به
وجهها ، والخفة التى كانت فى روحها ، والمرح الذى كان فى سلوكها ،
والضحكات الكروانية والدعابة التى كانت تركب بها الحياة نفسها - فى
ليال معدودات - غاب كل هذا ، وذهبت شوشو اللعوب المفرح التى
لم تحتج يوما أن تفكر أو تمتد بصرها إلى ما وراء اللحظة التى هى فيها .
ولكن هذا ليس فى وسعه ، وما هو بأحسن منها حالا ولا بأقل حاجة
إلى الغوث ، نعم الغوث ، ولكنه رجل مجرب وهى فتاة غريرة ، وهو
قد خاض العباب وغالب التيار وتدرّب على المكافحة ، وهذا أول عهدا
باللجة الطامية ، وما أهول الغصص التى تعانيتها وهى تغوص وتطفو وتختنق
وتشرق وتدفع باليدين والرجلين وتحاول أن تصيح طلبا لانجدة فيخرسها

الماء الذى يملأ فيها ، وتومىء فلا يراها أحد ، ومن ذا الذى يغيث فى هذا
الخصم الطاغى ؟

أين اليد التى ليست فى شاغل من أمرها ؟

ومع أن ما كانت شوشو فيه ، واضح المعنى ، فقد شاء إبراهيم أن
يتجاهله وارتد إلى الباب ففتحه ثم أغلقه بعنف كأنما كان داخلا لتوه ،
وأقبل على شوشو التى انتبهت على صوت الباب ، وتكلف البشاشة وفى
صدره أظافر تمزقه وبسط اليها كفيه وقال وهو يسرع اليها :

— ما أبدع الجو فى البكور ! هل أفطرت ؟

فماحتة كلتا يديها وسألته بصوت خافت :

— أين كنت ؟

فأبقى كفيه فى يديه ونظر اليها وقال بلا تكلف :

— ما أبدعك !

— إبراهيم !

— إنك تفرغين على الحديقة جمالا جديدا . أحب أن أخبرك أنى

اليوم مجرم . . لماذا تتراجعين ؟ أتخلصين عني فى محنتي ؟ نعم لقد قتلت
رجلا . لا تراعى ! انه ليس إلا أحمده الميت ؟ غرق او هو يغرق الآن
أو لا ادرى فقد يعود إلى الحياة للمرة الثانية ! على كل حال ليست هذه
أول ميتاته إن صبح ما تحكون عنه .

ولما رآها حائرة مضطربة قص عليها ما حدث وبالحق فى الوصف
فسرى عنها واغرقت فى الضحك وجعلت هى تطمثنه وتؤكد له ان
لا خوف ان يقاد به .

وجاءت هى اليه بالطعام فى غرفته ، فلما جلس إليه على البساط
استندت ظهرها الى الكنية فنظر اليها فقالت : « لا أحس جوعا » فالتفت
اليها وقال بلهجة الجد الصارم :

— سأرخصي لحيتي احتجاجا .

فقلت وهي تضحك :

— ولكن لماذا ؟ ما علاقة لحيتك بأن آكل أو لا آكل .

فقال : « تصوري منظر قريبك وقد ارسا حول خديبه وتحت ذقنه
لحية كثة ! إنه منظر يوقظ الضمير النائم . وما اظنك تترقحين إلى لقائي
بعد ذلك ولحيتي في يدي . أفهمت الآن ؟ » .
فانتفضت ، فجرها من ذراعها إلى الطعام .

وبعد ان اصابا شبعهما قال : « والان أين القهوة يا فتاتي المهمة ؟
الا تعلمين ان لي معك حديثا خطيرا يتطلب كل ما في رأسي من اتزان وحكمة ؟
فلم قدر أهو يجد أم يهزل ، ومضت عنه ولكنها ما عتمت أن عادت
لا بالقهوة بل بأدواتها : بحق البن وبحق السكر ، والسبرتو ، وقعدت
أمامه تصنعها .

وقال دون أن ينظر إليها بصوت لا يكاد يسمع فكأنه يتنفس أو
يحدث نفسه :

— شوشو أيتها الفتاة الرائعة ، لقد رأيتك اليوم تنزعين ورق
« الأراولة » وتجربين حظك أو تستوحين هذه الزهرة الفاتنة ، تسألينها
عن مصيرنا . . .

فتحولت إلى جانبه ولم تتكلم ، فأراح ذراعه على كتفها ومضى في
حديثه أو مناجاته .

— هممت أن أصرفك عن استنباء الزهر ، ولكنني قلت أدع لها ذكرى
حميدة تنعم بها في الأيام . . . المقبلة . . . أترك لها حلمها الجميل وإن كنت
في شك من أن الأحلام ليست خطيرة . شوشو ، ان أنفاسك لا تتعلق أو
تحتبس حين ترينني مقبلا أو مدبرا . . .

فتمتعت في حياء : « ولكنني أسر . . . »

فقال « ربما » فرفعت اليه عينيها بسرعة فلم يعبأ بهذه الحركة ومضى إلى غايته) « على أن هذا أشبه بأن يكون شعورا أخويا منه بأن يكون أ. »
أ. تعرفين ما أعني ؟ نحن قريبان وبيننا من الود فوق ما يكون بين الأقرباء في العادة . ولكن هذا ليس معناه أننا .. أننا .. أكثر من ذلك ..
اصمعي يا شوشو . لقد أخطأت حين جئت إلى هنا . لو كنت أعلم أن هذا سيحدث لما جئت ، ولكن هذا لا ينهض عذرا لي : أنا المعلوم . ماذا جرى ؟
أتبكين ؟ يا لله ! ..

وجذبها اليه فأسندت خدها إلى صدره وهي تنشج فكاد قلبه يتمزق رقة لها وعطفا عليها وعلى نفسه أيضا ولم يسعه إلا أن يهمس في أذنها :
— شوشو يافتاني الساحرة . ازجري العين عن بكائها . أنك تعلمين
أنى أتصنع . أنى أكاذب . لا أعني ما أقول . إني مجنون بك وسأظل
مجنونا . هذه هي الحقيقة وليكن ما شاءت المقادير فلن تصبو نفسي إلى
غيرك .

وكان صوته يرتعش ويده ترتجف وكيانه كله يهتز فالتفت ذراعها بعنقه وقالت هامسة :
— أعرف ذلك .

وهدأت الأعصاب ، وبعد لحظة أدار إليها وجهه ولثم شفيتها ثم قال :
— اصغى إلى ، فما استطيع أن أرفع صوتي ، سأبكي إذا فعلت .
فدنت منه حتى لصقت به ، وشد هو نفسه حتى خيل اليه أنه صار
كالصخرة ، ولكن صوته ظل متهدجا على الرغم منه .

— أنى أكبر منك سنا وأكثر تجارب ، ولم يكن من جقي أن ادع
الأمر بيننا يبلغ هذا الحد ، وعلى أن لك على صغرك وغضارة سنك
وقلة خبرتك ، من الذكاء ما يعينك على التقدير السديد والنظر السليم
وإني لأعلم كما تعلمين أن بيننا .. تفاهما .. تفاهما مباركا .. ولست اعتقد
أن بين اثنين سوانا مثل هذا التعاطف الطبيعي . كلانا خلق لصاحبه ، ولكن

لهذه الأمور . : مقتضياتها . : مستلزمات لامفر منها ولا معدى عنها ، إذاً
لم يكن الزواج هو المصير فليس يجوز أن ينشأ بيننا أو يظل مثل هذا التفاهم
أنه تحد للطبيعة : أن يتحاب أثنان ثم لا شيء . الشأن شأننا في الحقيقة .
والأمر لا يعنى سوانا ولكن الأيام مقلوبة ، والعادات والتقاليد سخيصة منافية
للعقل والواجب : صارمة أيضاً . ونحن نوشك أن نحدث في سورها ثغرة . :
أن نفتحم الحصن المنيع الذى بناه الجهل . . . ولست أراك تقوين على ذلك .
ولا أحسبني خيراً منك . ينبغي أن نفتح عيوننا . عاجلاً أو آجلاً . . أنا
أؤثر أن يكون ذلك آجلاً . وهو أحلى وأعذب وأندى على النفس . ولكنه
لن يكون الا حلماً مهما طال . ونحن ننسى أحياناً مصير كل شيء لا يسائر
التيار ، ولا يوافق الزمن ولا يطابق روح الأيام . وإذا كان لابد من التخطم
على صخور التقاليد فليكن ذلك . . اليوم .
فخنقت الفتاة عبرتها وتعلقت به يائسة ثم قالت ، وكلتا ذراعيها حول
عنقه ووجهها مدفون في صدره :

— لا أقدر . . لا أقدر . . مرة واحدة . . كلا لا أقدر
فمسح لها شعرها في رفق وقال : « لا بد . . وانك لتعلمين ذلك . لا بد
أن نكسر قلبينا » .

فقالت : « نكسر ؟ ولكن أوه ! أوه ! لماذا نمزق قلبينا . : دعنى
أياما . . أمهاني وقتاً كافياً ، لا هكذا في دقيقة واحدة ، بالتدريج .
ابراهيم . بالتدريج . . ليبقى لى شيء أذكره . أحلم به . أدخره
للأيام السود . دع لى شعاعاً واحداً من النور ، لا أكثر ، لانهشم حياتى
كلها اليوم . لا تمنح دنياى بلفظة . حتى التعذيب يجب أن يكون تدريجاً
ليحتمل » .

فابتسم لها — في عينيها .

وكما أن لمسه جسمها ألامه وفتره وسرى عنه أيضاً ، كذلك ضعفها
قواه وأمرعزمه فقال :

— كلا ! ياشوشو . ليس هذا خليقا بك ، يجب أن نصدق أنفسنا ونكون أقوى منها أيضاً . نخلق فوق مقاديرنا . وسيفسد كل شيء إذا لم نختم هذه الحكاية الآن ثم نهض مبتسمين . لقد غرسنا معا أجمل زهرة . ونمت وتفتحت حتى صارت مني النفس وريحانة العين والأنف — جسناً منظر وذكاء مشم . وقد آن أن نقطفها . . يجب أن يكون قطفها كما ينبغي : لا ورقة ورقة ، فلا تبقى هناك زهرة . وتصوري جمال الذكرى ؟ ذكرى الزهرة الجميلة التي كانت لنا والتي لم نخف أن نقطفها . . لما أينعت . . ستزهي بذلك ونسعد أيضاً .. حين نذكره نذكر زهرتنا التي لم ندعها تذبل أو تموت . . ويجب أن نقطفها بابتسامة ياشوشو من أجلك وأجلى . .

— أوه ! ان هذا كالموت . لا أستطيع أن أواجهه .
— بل تقدرين معي . نحن الاثنين نستطيع أن نواجه أي شيء . وماذا يعني من الموت فامدنا نستطيع أن نسير في الحياة بقلب سليم ؟
فرفعت شوشو رأسها وقالت :
— أنت محق : يجب أن نسير بقلوب سليمة .

وتحولت عينها إلى النافذة وارتفعت منها إلى السماء ، ثم ارتدت إليه ومدت يدها البضة ولمست شعره ومشطته بأصابعها إلى الورا .
وتركها هو تداعب شعره كما تحب ثم قالت وهي باسمة وفي صوتها حنو دافق :
— فلنقطف زهرتنا الآن ؟

فابتسم لها . .

والتقت شفاههما في قبلة طويلة ودارت الأرض حولهما : ثم أرخى ذراعيه فتخلت عنه وتناول كفها فلثم أطراف أصابعها ثم اضطجع على

الكنبة وأخرج سيجارة وأخذ يلعب بها وهو يفكر ويتسم ، ثم رفع رأسه وقال :

- شوشو ، ماقولك في مكثي أيا ما أخرى ؟ لقد كنت معتزما أن أرجل ، لكنني أظن أننا نستحق أن نبقى معا قليلا : كأخوين ! .
فقلت وهي تنهض وتشده معها : « لقد ترفقت بي على الرغم من قسوتك » .

وغادرا الغرفة معا الى حيث أختها ،

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

الفصل الخامس عشر

« قد دخلت جنتي يا اختي العروس »

مرت ثلاثة أيام كانت من أرخى وأهنأ ما عرف إبراهيم وشوشو في حياتهما : لا تفكير في شيء ولا أسف على شيء . وتلك إحدى أعاجيب الطبيعة البشرية . فما فتر الحب بينهما بل زاد اضطرابا ، ولا كبر الأمل بل صار أضعف ، ولا أمحت الحوائل بل تكاثرت وغص بها الطريق • ذلك أن نجمة لم تكن لا عمياء ولا بلهاء ، ولو كانتهما لكان حسبها عزيزتها تدرك بها مالا ترى ولا تظن إليه بذكائها ، فما هي إلا أيام حتى لاحظت تحن شوشو على إبراهيم ورقة إبراهيم لشوشو ، فلم تترجح الى ذلك وإن كانت لم تر طريقها إلى قول أو عمل تحول به بينهما ، ووقف حبها واحترامها لإبراهيم وواجبها نحوه وهو ضيفها دون التفكير في تعكير الأيام التي يقضيها عندها ، وتنغيص الوقت القصير الذي ينعم به في دارها ، ولم يكن أدعى إلى سرورها واغتهاطها من أن ترى مقام إبراهيم في بيتها يسبغ عليه الصحة . وخطر لها أن من الممكن الانتفاع بوجوده وتحويل التيار إلى الناحية التي هي آثر عندها وأوفق على العموم وأكثر مطابقة للتقاليد ، وقد كان رأيها دائما أن من واجب إبراهيم أن يتزوج مرة أخرى لتنظم حياته ويمجد الروح والراحة في بيته ، وإن كان هو لم يشك اليها ولا بدت منه أية رغبة في هذا التغيير ، ولكنها المرأة لا ترضى عن العزوبة ولا تستطيع أن تروض نفسها على التسليم بها ما دام أن في الدنيا فتاة صالحة للزواج . وهل ثم فتاة غير صالحة ؟

فكرت نجمة اذن في تحويل التيار وتغيير الاتجاه ، ولم تمن نفسها بما

يبدو من ميل إبراهيم لشوشو ، وما قيمة هذا ؟ ان هذا الميل عندها لا قيمة له إلا على اعتبار أنه دليل على أن إبراهيم عاد بعد ثمانى سنوات يفكر في المرأة ويشتاق إلى حياة الزوجية ، أما الحب فكلام فارغ ، وليست شوشو إلا واحدة من جمهرة الفتيات الصالحات للزواج وهبه يحبها فمن يمنعه أن يظل يحبها ؟ إنها بنت خالته وليس بينهما حجاب ففى مقدوره دائماً أن يراها وهذا كاف جداً . ثم إن الفكرة أن يتزوج أختها الوسطى « سميحة » والأختان صنوان وليست واحدة بأفضل من الثانية ولا أصالح ، وهذا يستوجب أن يعود الشيخ على من الاسكندرية بهذه الأخت التى استصحبها معه لتكون فى خدمته ؟ أو أن يبحث بها ويطلب شوشو بدلاً منها ، ولكن إبعاد شوشو الآن ليس من حسن السياسة ، فقد يفتن إبراهيم إلى الأمر ويرى فيه تعمدًا فتحبط الحيلة ويفسد التدبير ، وهو عنيد وفى طبعه على الرغم من لينه وسماحته ، صلابة وعنف بل تمرد . إذن فلتبق شوشو ولتعد أختها سوسو لتكون إلى جانبها ، وعليها أن تصرفه إلى نفسها شيئاً فشيئاً ، وهى فتاة ذكية واسعة الحيلة وأبرع من شوشو وأمهر ، وستكون نجية فى عونها ، ولا بأس — إذا استدعى الأمر ذلك — من اتخاذ الشيخ على حليفاً ، والمهم على كل حال أن لا يدرك إبراهيم أن هناك مؤامرة لئلا يفلت العصفور ، والباقى على الله وبه التوفيق .



وفى خلال ذلك — فى الفترة التى تقضت قبل أن تعود « سميحة » أو « سوسة » كما يسميها إبراهيم ، كان هو وشوشو كأسعد ما يكونان : يمثلان آدم وحواء — فى الجنة قبل أن يتعارفا — يتعهدان الحديقة ويقطفان ورودها وأزاهيرها ويؤلفان منها توافيق يزينان بها الحجرات ، ويستدرجان الأرناب من السرايب التى تحفرها فى جوف الأرض ليقتنصاها للبيت ، ويحلبان البقرة — وفيما عدا ذلك ينعمان بالقرب والحب ، فإذا أتعبا الجرى أو المحاورة قعدا على الأرض أو البساط أو غير ذلك تبعاً للأحوال والمكانات

الذى يتفق أن يكونا فيه ، فيقول إبراهيم ، وهو يلهث ، وقد شعر بالجوع :

— كفى اغواء ، إيه يا حواء إنك لا تزالين كما كنت ، بل شرا مما كنت ، مصدر اغراء وفتنة ! بعد كل هذه العصور أيضا ! لا بأس ! أظن أن من سوء الأدب فى حقك أن أذكر الطعام لأن منظرِكَ ساجر وأنت مهالسة هكذا . ولكن ..

فتقول شوشو : « لقد أذكرتني ! إني أكاد أموت جوعا . . كلا كلا ! لست أعنى ما أقول ! ان النظر إليك يغنى عن وليمة ، أليس كذلك ؟ ! » ، ويضحكان .

وفى الليل بعد أن يأخذا حظهما من السهر تهم بالقيام إلى مخدعها فينهض إبراهيم ويرجو منها أن تبقى ويرتب لها الوسائد على الكنبه ويقف - وهو متكئ على النافذة فتسأله :

— ولكن أين تجلس أنت يا آدم ؟

فيقول : « أقف رشيقا كما ترين مستندا إلى النافذة وأقص عليك أسطورة » .

فتقول : « أما الأسطورة فهاتها ، وأما الوقوف فلا . كن طفلا واقعد على البساط » .

فيجلس إلى جانبها ويقول : « طفل ! أنسيت يا حواء انى قديم كالجبال ؟ » . فترفع حاجبها وتبتسم وتقول : « وأنا أيضا يا آدم » .

— كلا ! على التحقيق .

— ولكن . . .

— لا أبالي هذا التمثيل . إنك خالدة . والخالد لا يذهب شبابه .

فتصمت برهة ثم تقول :

— قل لى يا آدم .. هل شهدت هذه الغرفة مثل هذا من قبل ؟

- من يدري ؟ لعلنا لسنا بأول آدم وحواء رأتهما هذه الجدران !
 — ولكنها لا ترى .
- صحيح ولدت كفيفة ومن أجل هذا تكون أحد سمعا ، وأقوى ذاكرة . ان هذه الجدران الأربعة لا شك تذكر كثيرا من المر والحلو ، والعنيف والرقيق ، والمضحك والمبكي .
- أظن الجدران تبسم الآن يا آدم .
- تبسم ؟ نعم . ولكنها ابتسامة حكيمة أبوية . اذكرى أنها ترى فينا عاشقين — آدم وحواء في جنتهما .
- لقد نسيت . إذن ما أحق هذه الجدران بابتسامة أسف على مصيرنا —
 فسندخرج من الجنة يا آدم !
- شش ! ان الجدران تحب العشاق ، فترفقى بها ولا تخيبي أملها والا كسرت قلبها . هذا جدار يريد أن ينقض من الآن .
- فتضحك وتقول :
- ولكن الحيطان ليس لها قلوب تكسر ؟
- بالطبع لها . إن قلوبها خير القلوب وأمتها أيضا .. قلوب من الحجر .
- ليت لنا مثلها .
- ويشعل سيجارة فتقول له منذرة :
- بعدها أقوم .
- أمرك يا حواء ،
- وبعد برهة تقول :
- لم تقص على أسطورتك يا آدم .
- فيقول : « أظنك تعرفينها . إنها أسطورة جندي طارئ وصف له الناس ما في المدينة من بدائع وروائع وحدثوه عن الملك والأميرة الجميلة ابنته . . فسألهم كيف يستطيع أن يراها ؟

حصن عظيم له أسوار عالية ومن حوله القلاع . لا يدخله أو يخرج منه غير الملك . لأن المنجمين قالوا إن الأميرة بنت الملك ستتزوج جنديا بسيطا ، فغضب ولم يستطع أن يحتمل ذلك . فقال الجندي لنفسه : « إنى أريد أن أراها » .

ويسكت فتقول : « وبعد ؟ »

فيقول : « وبعد . . فإن الأساطير لا تحكى لمن لهم أدوار فيها » .

فتسأله : « أنا اذن من خيالات الأساطير ؟ »

فيقول : « يوشك أن تصبحي ذلك يا حواء »

فتقول : « واأسفاه ! وأنت أيضا يا آدم . ولكنها نعم الخيالات تعمربقية العمر ! أليس كذلك ؟ »

— نعم .

وتنهض قائلة : « جاء وقت النوم نومى على الأقل »

فيتناول المصباح ويقول : « سأرافقك إلى بابك »

ويلف ذراعه بذراعها ويمضى بها ، وتقول له وقد بلغا رأس السلم :

— آدم .

— نعم .

— « أكان آدم — آدم الحقيقى — يقبل حواء قبل أن تنام ؟ »

فيقول : « أه . . هكذا ؟ »

القسم الثاني

إذا امتسكت السحب مطرا

أراقته على الأرض

الفصل الأول

(في عنقه تبيت القوة ، وامامه يدوس الهول)

— ١ —

« هل قرأت دumas ؟ اعنى الفرسان الثلاثة ؟ » .

فهز الدكتور محمود رأسه أن « نعم » وهو يثنى عنان الجواد الى اليمين ليعطفه ، وقال « لماذا » .

فقال إبراهيم : « اذن أنت تذكر فرسانه لما دخلوا الحانة وهم في غير ما يمكن أن نسميه سرورا أو حالا عادياً . فقد كان بورثوس محققا ثائراً ، فكأنما ضرب سحره على الحانة ومن فيها وصار هم كل امرئ أن يرضاه ويتألفه ويسرع الى خدمته وأن يلبي طلبه بأسرع مما ينطق هو به » مخافة أن يحدث ما هو شر من ذلك « — أى من وجوده — أهو يريد قشدة ؟ اذن يندفع الموجودون ليجيئوه بها . . أم الجعة طلبته ؟ فهم يحملون على البار » .

ولما كان لا يقنع بشيء ولا تقف مطالبه عند حد ، فان القيامة قائمة في الحانة ، وبورثوس يخور كأن في جوفه ألف ثور ، ولم تعد الحانة حانة ، بل صارت هيكلًا لبورثوس ، وكل من عداه من خلق الله مذهب به الى الشيطان . كذلك كنا اليوم بعد أن عاد الشيخ على — أو على الأصح — بعد أن زلت قدمه وهو يطارد أحمد الميت ، واحتجنا أن نحمله الى غرفته .

فضحك الدكتور وسأل : « وكيف استطعتم أن تحملوه ؟ ليبنى كنت حاضراً » .

فقال إبراهيم : « حاول أن يحمله أربعة من رجاله الأشداء ، لقد كان منظراً لن أنساه ما حييت ، الشتائم والأوامر التي كان

يصدرها — هذه وحدها ستظل منقوشة على صدرى أبد الدهر ، أؤكد أنه كان منظرأ « هومريا » إذا كنت تفهم ما أعنى ، ليس فى وسع ريشة أن تصوره وأن تثبت الجو الذى كان يحيط به . وللشيخ على الفضل الأكبر فى خلق هذا الجو المختلط المعقد . فقد أبى إلا أن يشترك عمليا فى « محاولة » نقله إلى غرفته . وكان يحكم العادة فيما أظن ، يصدر الأوامر ويجهده — أثناء القيام بنقله — أن يصحح الخطأ الذى يقع من خدامه فى تنفيذ أوامره أو نواهيه — نواهيه على الأكثر — وأن ينزل العقوبة الجسدية بالمخالف أو المخطئ . أراد فى خلال هذه الرحلة أن يصل إلى « أبو حسين » ليهشم له رأسه فاعتمد بيده على وجه « زناره » فكاد المسكين يخنق ، وكاد يتخلى عن كفه ، فلولا أن شككت الشيخ على بدبوس واضطررته أن يرفع كفه عن وجه الرجل لكان قد هوى برأسه على الأرض ، وقد كافأني بأن أمرني أن أدفن نفسي حيا ! .

فقهقه الدكتور ثم قال : « إن عمى غريب ، لعلك لم تغضب ؟ »

فقال ابراهيم : « أغضب ؟ كلا . أو لى أن أغضب من العناصر الطبيعية أنه مثلها . ولكن الكلاب هى التى ضايقتنا . فقد اختلطت بالموكب وجعلت تتوثب وتنبع . ومن الغريب أنها كانت تسبقنا إذا صرنا إلى مكان فسيح ، حتى إذا شرعنا نصعد السلم لم يعجبها إلا أن تمشى بيننا وإلى جوانبنا وفى حينها يكون وجودها عثرة فى سبيلنا ، والشيخ على يصيح بنا أن نخرس الكلاب الحق أن صعود السلم كان بطولة تستحق التخليد . فقد خارت قوى اثنين أحدهما ذلك العبد العملاق . ولست أدري ما سر هذا الولع بالوجوه السوداء اللامعة ؟ وصدر الأمر لأحمد الميت بأن يفرق نفسة فى التربة — الليلة — وأن يجيئه فى الصباح جثة منتفخة . وأمر « زناره » بأن ينارله سكيننا ليذبحه حالا وكان العبد يتوهم أن هناك درجة أخرى باقية فدبت رجله بشدة ، فأمر أن ان يقطعها بالمنشار : وأخيراً وضعوه على السرير ووقفوا بمسحون العرق المتصبب بأكمهم الزرقاء ، وأيديهم الأخرى على صدورهم الصاعدة

الهابطة ، ولا قدرة لهم على الحركة من فرط ما أصابهم من الاعياء فلعنهم وأمرهم أن يجلسوا على الأرض وأنذرهم بالشتق بعد أن يستريحوا . الموت كان أقل ما يتوعد به أو يأمر .. ثم دخل النساء والأطفال بعد ذلك فأسر إلى نجية أن تبعث لزوجات الرجال الذين حملوه بمقادير متساوية من السمن والجن والقمح ، وهكذا هو أبدا . . . »

— ٢ —

لم تكد مركبة الدكتور تبلغ الدار حتى كان أحمد الميت يحمل الجواد الذى وقف يهز جانبيه كأنما يريد أن ينفض ما عليه مما شذ به ، والدخان يتصاعد من جسمه على الرغم من البرد والضباب .

وأسرع الدكتور وإبراهيم وراءه إلى غرفة الشيخ على فتلقاهما بالزراية والتهمك . وكان الشيخ على قد استدعى امرأة عجوزا « فى يدها الردة » — كما يقول أهل القرية — فدأبت له قدمه ولفتها وأكن الدكتور جسها مع ذلك فألقى الأمر هينا ولا كسر هناك . وأوصاه أن يلتزم رقدة خاصة سبعة أيام على الأكثر فكان جزاؤه أن يتمنى له الشيخ على أن يسجن سبع سنين على الأقل .

ولما رآه لا يحفل بذلك رماه بكوب كان يشرب منه .

ولم يبالغ إبراهيم فى الوصف فقد كان الشيخ على مثل بورثوس : ضخما هائل الانحناء قوى البنية كثير الارعاد والإبراق سريع الغضب حاد الكلام ولكنه على هذا كان كريم النفس وفيه أريحية وذكاء وفكاهة ، وكان يسمى الشيخ على لأنه جاور فى الأزهر زمنا طويلا ثم انقطع عنه بعد وفاة أبيه . وتزوج بنت عمه نجية ، وتخلى لزراعته الواسعة وكثر ترده على الاسكندرية فاشترى له بيتا فى ضاحية الرمل على شاطئ البحر وخلع الجبة والقفطان والعمامة واعتاض منها ثياب « الأفندية » غير أنه كان إذا عاد إلى « البلد » يكر إلى جلاب من الصفوف والطربوش .

وتلقى وهو فى الأسكندرية كتابا من أحمد الميت ينبئه فيه بأن زوجته
نجية تطلب أن يبعث إليها بسميحة أختها ، واحتاج هو أن يرجع لشأن له
فعادا معا .

غير أنه قبل أن يؤوب بها أحس بألم فى أحد أضراسه فرأى أن يعالجه
قبل السفر ، فقصد إلى طبيب يعرفه وكان الخادم جديدا حديث العهد
« بالزبائن » ورأى الشيخ على يهجم خطأ على غرفة انتظار السيدات فتعرض
له فدفعه صاحبنا فألقاه ودخل والغضب يتطاير من عينيه واللعنات تتراحم
وهى خارجة من فمه وانحط على أقرب كرسي .

وكانت فى الغرفة سيدة تنتظر الطبيب ، فأفزعتها الزلزلة التى أحدثها
الشيخ على ، وهاجها اقتحامه الغرفة عليها فنهضت ودنت منه وصاحت به :
— أخرج من هنا يا قليل الأدب .

ولكن الشيخ على كان قد وضع كفه على عينيه ومضى يحلم أو يتصبر
على الألم فلم يسمع فاحتاجت أن تعيد الخطاب .
— أقول لك أخرج من هنا يا وحش .
فوثب إلى رجله وقال :
— أتعننى ؟

قالت : « نعم . وان فى بقائك هنا وردك علىّ لدليلا آخر على أنك
سوء الأدب . حيوان متوحش يجب أن يحبس فى قفص »
فغلا الدم فى رأسه ولكنه تماسك وقال :
— بأى حق تجترئين على مثلى بهذه الألفاظ ؟
فلم تراجع وصاحت به :

— أتريد على ؟ أتحدث ؟ إن هذه عيادة طبيب وليست ميدان
مصارعة للثيران ثم إن هذه غرفة للسيدات وليست مجلا للقبيلة . أخرج
من هنا .

فتلفت الرجل يمينا وشمالا كأنما يبحث عن شيء ثم رفع وجهه المحتقن وقال بصوت متزن :

— إنك تعتمدين على امتيازات جنسك . ولكن هذا لا يبيح لك أن تصفى الناس بمثل هذه الألفاظ . على أنى آسف لأنى دخلت هذه الغرفة من غير أن أنتبه إلى أنها للسيدات وأعتذر لك . ولكنى أؤكد لك أن مخاطبتك لغريب مثلى بهذه العبارات . .
فقاطعته :

— ولماذا قرعت الباب ؟

فقال وهو فى دهشة :

— لأدخل

— ألم يكن الباب مفتوحا ؟

فسكت . فأعادت عليه الكرة :

— انطق . ألم يكن الباب مفتوحا ؟ ألا بد أن تحدث ضوضاء تمزق الأعصاب لتعلن إلى الدنيا إنك داخل ؟ ولماذا شتمت الخادم ؟

فرجذ لسانه وقال :

— لأنه حاول أن يمنعنى

— أنه كان يحاول منعك من أن تسيء الأدب بالدخول فى حجرة

السيدات . ولماذا ضربته ؟

— بأى حق تسألين ؟ إنه كان وقحا .

— ولماذا تدخل الغرفة كالقنبلة ؟

— لم يحصل هذا منى .

فقالت : « لا تكن سخيفا . لقد دخلت كالوحش وارتميت على الكرسي كالوحش ولم تكلف عينك النظر ... »

فقال مصرا : « لست كالوحش . ولا جق لك في هذا الكلام . »

فألقت إليه نظرة احتقار وأدارت وجهها ولم تجب .

وظهر الخادم في الباب فخرج الشيخ على ولم ينتظر الطبيب وسافر مع سميحة إلى البلد . فلما بلغها كان ما حدث له لا يزال يحز في نفسه ويهيجه فلم يكذب يلقى أحمد الميت ويرى منه بعض التاكؤ في تنفيذ أمر حتى ذهب يعدو وراءه فزالت قدمه وكان ما تعرف .

ولم يفت الشيخ على أن يقص ما حدث له وأن يؤكد أنه سيخطفها لا محالة يوما ما .

فقالت نجية : « تخطفها ؟ يا خبير اسود . »

فصاح بها : « دافعي عنها . . لك الحق . . الكلب لا يعض أذن أخيه . . ولكني سأخطفها فإنها فضلا عن وقاحتها جميلة »

فقال الدكتور - وكانما أراد أن يطمئن نجية - : « ولكنك لا تعرفها »

فقال الشيخ على ملغزا : « ابق معتمدا على هذا . سنرى »

الفصل الثانى

(المرأة التى هى شباك ، وقلبها اشراك ويدها قيود)

نظر إبراهيم إلى ساعته فالفأها الثانية عشرة فقال : « أوه »
ونفض .

فقال الشيخ على وهو ينفض السيجارة : « ماذا ؟ »

« النوم يا صاحبي . جسمى متعب .. وهذا الدفء يزيدنى تفتيرا » :
فدلف الشيخ على يده وهو يقول :

« طبعاً . طبعاً . ساعد لك ثلاثة أضغاث فيها الليلة الآتية

وانحدر إبراهيم إلى « السلامك » وهو يعجب أين ذهب الباقون :
الدكتور الذى اضطر أن يقضى ليلته هنا ، ونجبة وأختها ، ولما لم يهده
التفكير إلى شيء خلع معطفه وارتمى على السرير وغطى ونام .

وأيقظه نقر خفيف ، ففتح عينيه ورفع رأسه قليلا وتسمع فتكرر
النقر .. يا عجباً .. فى كل ليلة حادث ؟ مرة تكون البقرة وأخرى
تكون الزنجية واليلة ماذا ياترى ؟ ربما كان الدكتور ؟ ولكن كيف
يمكن أن يكونه ! من عساه أن يكون غيره .. شوشو .. لا لقد قطفا
زهرتهما وانتهى الأمر .. قطفاها ولم يذبلها .. واحتملت شوشو أن
تقطفها ، ولم ترتجف يدها وإن كان كيانها كله قد زلزلته الصدمة :
ولم ترق دمة ولم تنهد وإن كان فى جوفها بركان مضطرب . ولم يشحب
وجهها وإن كانت حيانها قد جفت واستطاعت بقوة حبها أن تسمو وتحلق
فوق « الحياة » فيا لها من ..

نقرة أخرى

فرمى اللعاف ووثب الى الأرض في خفة ومضى الى الباب وقال من ورائه
— دون أن يفتحه — بلهجة السأمان :

— من هذا ؟

— أنا أفتح يا بن خالتي . .

صوت سميحة — أو « سوسه » — كما يسميها . . ماذا تبغي ؟ . لأى شيء
تجئ في مثل هذه الساعة المتأخرة ؟ واضطرب ولم يجر بياله إلا كل سوء ،
وحار ماذا يصنع وكيف يستقبلها وهو لا يكاد أن يراها ؟ ومن يدريه ؟ لعلها
ليست سوى رسول .

« افتح امال ! » بلهجة الضجر .

ففتح — وهل كان يسهه خلاف ذلك ؟ ، ووقف في مدخل الباب
— حجر عثرة — فألقى في يمينها ، صباحاً ، ولمح شبحاً عند باب السلم ،
فهي ليست وحدها اذن ؟ فهل يطمئن أو يقلق . . «

وقال : « ماذا جاء بك الآن ؟ » .

فابتسمت له — ولم تكن دميعة ، وقالت بأرق أصواتها وأحلاها
نبرات :

— ألا تمهلني ربّما أدخل ؟ أعود بالله ؟ ماذا جرى لك يا بن خالتي
تتركني واقفة أنتفض من البرد ؟

وأدرك ابراهيم أن لاشيء هناك يدعو الى القلق على أحد ، وساء
هذا السلوك من سميحة ، وخيل له أن وراءه غرضاً تعتمده وخاف
ما قد يجر اليه سبماحه لها بالدخول في هذا الوقت ، من التأويل
والتخريج وهي تخلق من الحبة قبة ، ومن العنبة خمار ، ولا يبعد
أن تكون قد انتوت أن تستأنف مطاردته التي اتعبته وأرهقته وبغضت
النساء جميعاً اليه . واذا عرف أهل البيت أنها زارته على هذا النحو وأنه
تقبل منها هذه الزيارة ، فأى شيء لا يفهمونه ؟ كلا ؟ يجب أن يمنعها مهما

كلفه ذلك ؟ وماذا يخشى ؟ إنها داهية خبيثة ولكن شر ما يدخل في طوقها ،
وقد وطن نفسه عليه ، وكذلك شو شو .

وقال : « لست أفهم معنى لهذه الزيارة ولا أرى لها داعياً » .
فضحكت ولم تنهزم وقالت وهي تدفعه لتفصح لنفسها طريقاً .
— بلاش دلع ، أتخسب أنى جئت بلا علم أختى وإذنها ؟ لقد أرسلت
معى فاطمة وهي تنتظرنى .

فتنحى لها ، ولكنه ظل واقفاً في مكانه فلما وضعت المصباح
وجلست قال :
— اذن أخرج أنا :

فقلت : « عجيب هذا ! ؟ وبعد أن قلت لك إن أختى تعلم ؟ » .
فلم يتزحزح وأمضته هذه الصفاقة وقال بلهجة مرة إلا أنها هادئة
النبرات :

— إنى سأصعد إليها وأبلغها أنى لا ارتاح إلى هذه الزيارة وأن الإذن
بالدخول علىّ — وان كنت خفيفاً عليها — يجب أن يكون منى أنا
لا منها او من سواها . ليس احد وصيا علىّ ، اذا كنت انت تحت
الوصاية .

فدقت كفا بكف وقالت محاولة ان تنقل المسألة عن هذا الوضع :
— ولكن أى ضمير فى حضورى وانت ابن خالتي كأخى ؟
فقال : « إن كونى ابن خالتك أو عمك أو من شئت غيرهما لا يجيز
لك هذا ! » .

فلم تراجع وخيل لآبراهيم ان كل غرضها أن تقضى ذقائق عنده والسلام ،
وانه لا يعينها كيف تقضيها ، ما دامت تقضيها .

وقالت : « كأنى لم اعد من الأسكندرية اليوم ، ولم ارك منذ
شهور ؟ » .

فعاظه إلحاحها وازداد مقتته لها ولم يعد يتقى إيجاعها بالكلام الصريح
وقال :

- هذه الزيارة في الليل - بعد منتصف الليل - يسهل جداً أن تعد خلوة
مدبرة . وأنت تعلمين أنى برىء من ذلك ولا يدلى فيه . وتعلمين أيضاً أنه
ليس بينى وبينك أكثر من القرابة التى لا تجيز توريطى فى مثل هذه المواقف
التى لا أرتاح إليها ولا أستطيع احتمالها . ثم إنك فى قميص النوم أيضاً فكيف
أنظر إليك حتى لو كنت أخاك ؟ وماذا يقول الشيخ على أو يتوهم حين
يعلم . .

فقاطعته وقد فزعت :

- أتنوى أن تخبره ؟

وكان سؤالها هذا وما نم عليه من الفرع زلة منها ، فأدرك أن الشيخ على
لا يذله فى هذه المناورة ، وسره ذلك وسرى من غضبه ، ولكنه أراد أن
يعرف إلى أى حد يسعه خوفها من الشيخ على فقال :

- من واجبي أن أخبره . .

فأقبلت عليه تتوسل إليه وتناشده القرابة والدم وتستحلفه بابه ، وقد أخذ
الخوف ذكاءها وأطار المكر الذى فى رأسها ولكنه أبى أن يعد بالكتمان وقال
ويده على مفتاح الباب :

- إنى أريد أن أنام .

فخرجت .

- ٢ -

ولكنه لم ينم بل أشعل سيجارة وشرع يفكر :

سميحة فتاة يعرفها كاذبة ماكرة . ويحسها بكل جارحة فيه ثقيلة
بغیضة ، ولم تكن دميمة ولا كان ينقصها الظرف والكياسة والرشاقة أيضاً ،

ولكنه هو كان يحس أن على صدره حجرا حين تكون معه ، كان إذا أخذتها عينه ، يخيل له كأن وجهها مغضن وكأنها هي تحمد الله على الغضون وتشكر له إن لم يعث في ووجهها لحية . وسر هذه الكراهة التي نمت كالسرحة ، أن سميحة أغريت به وألحت عليه بالتحجب إليه ولجت في محاولة « توريطه » أمام الأقارب والمعارف لتوهمهم أن كلا منهما - هي وإبراهيم - يصفو إلى الآخر بما هو أقوى من الود بين الأقارب ، ولم تكن هي تحبه أو تعباً به ، ولكنها شارفت الحادية والعشرين ولم يخطبها أحد ، فحزنت أختها نجية ولم تبال أن تتكلم أمامها بخوفها أن تكون سميحة قد كتب عليها أن تعنس ، وجعلت لها دالة عليها كأنما أرادت أن تعوضها بالعطف عليها من الانصراف عنها ، فأفسدها التدليل وأكسبها جرأة تحمد في الرجال ولا تكون في النساء - عوضاً عن الحياء - إلا منفرة . وفكرت نجية ثم فكرت فلم تجد أمامها من « المرشحين » سوى اثنين : إبراهيم والدكتور ، والدكتور أغنى ولكن إبراهيم أسمى مقاماً ثم إنه أثر عندها لأنه قريبها فلتهد إليه سميحة ! أما الدكتور فثم شوشو تنتظره إذا شاء ولا يضيره الانتظار لأنه أصغر سناً من إبراهيم ، وشوشو لم تبلغ العشرين ففى وسعهما أن يصبرا ومن أجل هذا جعلت تلقى سميحة على إبراهيم وتغريها ، وتتغاضى عن مغازلة الدكتور لشوشو وتحمد لشوشو في سرها أنها تنفر منه ولا تقبل عليه فإن ذلك منها اعون على شحذ رغبته وادعى إلى إطالة « الحبل » حتى يأذن الله وتزوج سميحة .

ولم يكن إبراهيم يعرف كل هذا - وأنى له أن يعرفه ؟ - ولكنه كان يلمح امارات الرضى من نجية عن سلوك سميحة ويشعر شعوراً غامضاً أن بينهما تفاهماً أو اتفاقاً - قد يكون صريحاً وقد لا يكون - على مطاردته وتوريطه ، فكان هذا يستفزه ويستثير نغمته ، وينفره ، ولو أن الأمر جرى على خلاف ذلك لكان من الممكن أن يفكر إبراهيم في سميحة ، أو هلى الأقل أن لا ينطوى لها على كل هذا المقت .

وكان الله شاء ان تكون حياة إبراهيم كلها حرباً ومشاكل : فما طلب

أمرا أو اشتهت نفسه شيئا إلا اكتظ طريقه بالعوائق ، حتى زوجته الأولى كان اقترانه بها على رغم أذى أمها . حتى ماري - آه مسكينة ماري ، لقد نسيها - غرقت قطرتها في الأقيانوس الذي أزخره حب شوشو . ولكنها قد تسلت عنه ولا شك ؟ - حتى ماري كانت علاقته بها مشكلا . هو الان . تقف سميحة في وجهه وتأخذ عليه طريق قلبه . ويسد شيطان خبثها كل فج أمامه . ولماذا ؟ أمن أجل أنها سبقت شوشو إلى الوجود وتقدمتها في الحياة تكون أحق بأن تحب وأولى بأن تكون له زوجة ؟؟ كلام فارغ . وما ذنب شوشو ؟ ماذا جنت حتى ينزل بها هذا القضاء المالحق ؟

ونهض إبراهيم يتمشى . وراح يتصور المستقبل المظلم الذي قسم لشوشو ، سيزوجونها يوما ما ، واحدا لا تعرفه ، أو تعرفه ولا تحبه . واحدا كالدكتور مثلا . فلا تجرؤ أن ترفض . وهبها استطاعت أن تجترىء وحبست نفسها عن الزواج فإن هذا لا يكون أقل قسوة . ولماذا كل هذا ؟ لأنه هو - إبراهيم - أقنطها ودعاها إلى اليأس وزينه لها على الرغم من حبها له ومن حبه لها . فهل من حقه هذا ؟؟ هل تجيز رجولته له أن يتخلى عنها ويدعها تحترق - تحترق في الجحيم الذي أضرمه بيده . ثم قذف بها فيه ؟؟ الا يشعر أنه مسئول عن مصيرها هذا ؟ بلى وإن تبعته لعظيمة . وهبه غير مسئول فإن عليه واجباً لنفسه ، فلماذا يسمح لسميحة ان تعرض طريقه وتأخذ عليه متوجهه ؟ ما سميحة ؟؟ فتاة ؟ ومن أجلها يدع نفسه يشقى ؟ من أجلها يترك شوشو تعاني الفصص ؟ من أجلها يقف هو وشوشو متقابلين ولكنهما محرومان معذبان ؟ لا يفصلهما شيء . غير ان أيديهما لا ترتفع ، وشفاهما لا تلتقي ، وانفاسهما الحارة لا تبرد ؟ كلاهما يجب أن يصرع رغبته في الحياة ، كلاهما ينبغي أن يغيب - وهو حي جدا - في فراغ الموت المظلم - يجف ويندوى . ويرفض الماء الذي يرويه ، - ويقتات سم الألم ، وتذبل شوشو ، ويبيض شعرها الجميل المتهدل على جيدها الناصع المتألق وتغور عيناها وتعمق الكهوف حواها ، وتنقلب تغريداتها نعبا وفتنة صوته حشرة ، لأن سميحة تشاء هذا ؟؟

لأنى انا ضعيف مهين كغيرى من الناس الذين أحترقهم من أعماق قلبي .
لأنى لست من طراز بروميشيوس ؟ لأنى لا أزال أنظر إلى الأشياء من وجهة
شخصية أنانية ؟ « أنا » دائما . و « أنا » فى كل شيء . بحسبى أن فزت منها
بقبلة ! يا لها من نعمة ! وما أعظم بطولتى ! ثم أدعها تغرق فى اللجة الطامية
التي دفعتها اليها ! أتركها تحترق فى النار التي أوقدتها وعجزت عن
إخمادها .

كلا كلا ! ان يكون هذا .

وارتاح لما انتهى إلى ذلك ورمى إلى الحديقة نظرة مطمئن إلى ما صمم عليه
وكانت الحديقة العطرة مظلمة ، وأغصان أشجارها تكون فيما بينها أقبية تحت
السماء الخضراء ، وعلى سطح الأرض البليلة ضباب خفيف خافق فكأنما هناك
أشباح غير مرئية تجوب مسالك الحديقة الصامتة وتسرى بين الأشجار الجملة
« فترجف لطيفها الأوراق والأزهار الناعسة .

الفصل الثالث

« اما خاطيء واحد فيفسد خيرا جزيلا »

- ١ -

- آه زوزو .

وفتح عينيه على كفيها الصغيرتين تعبثان بحبيب جلبابه وتخرجان إزاراه من عراها ثم تعودان فتدخلانها فيها ، ولم يكن أحب إلى الشيخ على ولا أثلج لصدره من أن يصبح على وجه فتاته « زوزو » ولم تكن وحيدته ، فإن له غيرها ابنا هو محمد ، ولكن « زوزو » آثر عنده ، وهو بها أكلف ، وكثيرا ما كان إبراهيم يعجب لذلك منه ويقول له إن الولد - لا البنت - هو الامتداد الطبيعي لحياة المرء فيزال الرجل الطبيب رأسه ويقول :

- كلا يا صاحبي وليس ليثاري لها لأنها الكبرى ، كلا أيضا . أنت شاب - فن حقت أن يكون هذا رأيك في ربيع العمر وللشباب حكمه الذي لا يؤثر فيه فلسفة ولا يغيره علم أو اطلاع .

ويصمت برهة ثم يقول كأنما يحدث نفسه - بصوت خافت متهدج :
- للحياة كما للأيام فصول . ولكن فصول الحياة تتوالى على غير ميعاد ، وليس كل فصل منها ككل فصل فقد يكون الربيع أياما والتحريف أعواما ! والذي يجيء منها لا يعود ومتى جاء التحريف وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خيرا ما كتب له في عمره ، وأن ما بقى من رحلته في هذه الدنيا أشبه بأن يكون « وجودا » منه بأن يكون « حياة » - استمرار ومجرد اندفاع في الطريق الذي كانت تجرى فيه « الحياة » الأولى ، كما يجرى النازل من « الترام » خطوات إلى جانبه بقوة « القصور الذاتي » عرف المرء أن أذنه التي كانت تشملها همسة الحب الخافتة لن تسمع

بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذى كان يطفر إذا هتف بالنفس .
هاتف من أمل أو طماح ، يخفق بلا احتفال ولا يخرج فى دقه عن انتظام ..
وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتر بها ونحرص عليها تفقد حلاوتها وقوتها :
ونضارتها ، ويهن استيلاؤها على نفوسنا ويضعف إغراؤها لخيالنا ،
وتتعرى زهراتها من أوراقها وتجف وتصفى وتتساقط على اليد ويطيها
النسيم هنا وهنا - متى صرنا إلى هذا فإن المرء تهتز نفسه لابنته وترتاح إلى
منحها الحب ، إن هذه الفتاة الصغيرة يا صاحبي تعيد إلى الشعور بحرارة
الحياة وقوتها الدافقة فى ربيع العمر ، نعم انها انما تحيى « ذكرى » ذلك .
ولا تجدد الشعور ولا تهب القوة التى نفدت ، ولكن الذكرى غناء .
ويطرق هنيهة ثم يرفع رأسه ويستأنف الكلام :

- وأنعم بالصبيان . يشبون ويكبرون ويصبحون رجالا يحملون
الأعباء ويشقون لأنفسهم طريقا فى هذه الدنيا . ويفوزون بحسن الذكر
وطيب الأحداث ويشرف بهم الأصل الذى هم فرع ، ولكنهم يا صاحبي
بعد أن يدخلوا فى حدود الرجال ينقلبون « اصولا » لأنفسهم ولا يعودون
« فروعا من غيرهم » . . . ثم . . . هذا يا صاحبي أوجع ما فى الأمر -
يحتلون المكان الذى نخليه نحن ، ويجعلوننا نشعر أننا أخليناه لهم . وما أكثر
ما يجعلوننا نشعر بأنهم يطالبوننا بإخلائه . أن مجرد وجودهم فى الحياة يشيع
فى نفوسنا الشعور الذى كان غامضا قبل بضع سنوات ، بأننا لسنا من أهل
هذا الزمن الحاضر ، لسنا من أبناء هذا الجيل الذى يزحف ويستولى على
الدنيا - نعم يحتلموننا ولا يبخلون علينا بالرعاية والترفق ، وقد يحبوننا
ويحترمونا ولكنهم يشعروننا أننا انتهينا ، وأننا محسوبون على الماضى مضافون
إلى آثاره - يصغون إلينا - هذا صحيح - وقد يطيعوننا ولكن بلا حماسة .
ولا اقتناع بل على التسامح .

فيقول إبراهيم وقد غلبه صوت الشيخ على وعذوبة لهجته على الرغم
من المرارة التى فيها .

- صحيح ه لقد كان يولييس فحلا في زمانه . طوف في الدنيا بشجاعة
وغامر بقوة . ولكن تلماك هو الذى نجعل بالناس إليه ونوقظ له قلوبنا
وعقولنا .

فيقول الشيخ على وكأنه لم يسمع :

- ولكن البنت شيء آخر مختلف جدا ، ويظل أبوها - حتى يحل زوجها
محلّه - مستويا على العرش الذى ألفت أن تنظر إليه من طفولتها ، لا يزويه
في نظرها الكبر ، ولا تخلق ديباجته العادة . كل صفاته المحببة تزداد على
الأيام رقة . اخوتها الصبيان - على حبها لهم - ليسوا سوى صور ضعيفة
فاترة من ذلك الأصل العظيم وفضائلهم ومزاياهم أضواء منعكسة . أبوها هو
محور وجودها وقطب الرحى في حياتها . وجه لها سماوى ملائكى . .
ليس من هذه الأرض . لا يشوبه ولا يعكر صفوه الاحساس بأنها ستحل
يوما محلّه ، وهى بنت أمها . فأخلق أن تثير في نفسه ذكرى مهذبة لوجه
القديم لأمها ، ذكرى تكون كالحاشية لذلك الحب الأبوى الذى هو من أسعد
وأقدس أسرار الحياة .

وكانما يتذكر فجأة شيئا فيرفع رأسه ويقول وهو يحدق في وجه
إبراهيم :

- كيف تستغرب ؟

فيقول إبراهيم : « ماذا ؟ » .

فيقول الشيخ على مستأنفا : « وأنت القائل - لا أذكر في أى كتبك - إن
المرأة هى الحياة مختزلة ؟ لقد أثمرت تعاليمك كما ترى »
ويضحك .

فيقول إبراهيم : « هذا أكثر مما كنت أعنى . واعترف أنه لم
يخطر لي » .

وبينما كانت « زوزو » تداعب أباه وتفيض عليه من حبها وإشراق نفسها ، كانت أمها نجية قاعدة في غرفة أخرى على الوسادة ، وأمامها الموقد على مستداره أباريق القهوة كبراه وصغراها ، في واحدة منها القهوة ، وفي الثانية ماء مغلى وهى ترشف من الفنجان تارة وتبسط كفيها فوق النار التماسا للدفء تارة أخرى وتفكر طول الوقت ، على حين كانت شوشو لا تزال مستلقية في سريرها ، وسميحة تروح وتجيء وتدخل وتخرج ، وفي يدها مكنسة وهى لا تصنع شيئاً وكأنها تصنع كل شيء .

وكانت نجية وهى قاعدة على الوسادة وكفاها على كرشها « والشال » يغطى رأسها وأذنيها وظهرها ويجمع طرفاء على صدرها . تفكر فيما يكربها ، وهى لا يكربها شيء سوى مستقبل سميحة ، ولا نحتاج أن نقول إن مستقبل أية فتاة في رأى نجية ليس له معنى سوى زواجها .

زواج سميحة ؟ نعم . لاشيء غيره ، وقد أدارته في رأسها مائة ألف مرة واجترته حتى لم يبق له طعم وحلمت به أغرب الأحلام وأبعدها عن إمكان التحقيق ، ومن حقها أن تولى الأمر هذه العناية ، فإن حادثة حياتها الوحيدة هى زواجها ، به استغنت عن الإقامة في مصر بعد وفاة والديها ، وأمنت الفاقة واستطاعت أن تحيا حياة ترف عليها النعمة ، وأن تكفل أختيها ، وأن تعلمهما في أرق المدارس الفرنسية في الإسكندرية ، وأن تنشئهما أحسن تنشئة .

ولم تكن هذه أول مرة تحلم فيها بزواج سميحة ، فقد كان هذا خاطراً مخامراً وما نخلت إلى نفسها لحظة إلا راحت تتصور أختها هذه معقودا لها على واحد ومزفوفة إلى آخر ممن تسمع بهم أو من لهم بزواجها أو بالأسرة صلة ما ، ولم تكن أحلامها ، على خلاف المؤلف في الأحلام ، منطقية أو منتظمة ، فقد كانت تصور لنفسها سميحة وقد تزوجت كل واحد ممن

يخطر على بالها ، فترى بعين خيالها واحدا وقد تقدم إليها ليلبسها سوار « الشبكة »
وجاء ثان في حفل من الأخوات والأقارب والأصهار ليعقد له عليها ،
وأقيمت الزينات وجيء بالمغنين والمغنيات وأحاطت « العوالم » بسميحة
يزفونها إلى ثالث ، ولا تكاد تبلغ هذه المرحلة حتى تؤثر شابا رابعا فتجعله
هو الداخل عليها ، حتى إذا مد يده ليرفع النقاب عن وجهها ويقبلها انقلب
في خيالها شخصا خامسا وهكذا فليس لخيالها حين تطلق له العنان استقرار ،
ولا لاختيارها تعلق بشخص دون سواه .

وكانت نجية أذكي وأحزم من أن تدع أحدا يطلع على هذه الصور التي
تتعاقب على ذهنها وترسم واحدة بعد واحدة في نفسها ، وإن كانت هي
لا تكف عن إحضارها وتمثلها في خاطرها لتنعيم بها وحدها ، ولم يكن أحد
من الشبان أو الرجال الذين تحلم بهم أزواجاً لأختها ، يتوهم أنه بعض
ما تدور عليه هذه المناظر العجيبة في رأس هذه السيدة الضخمة الساكنة
ولا كان يجري لهم في بال . - وهم جلوس في بيت الشيخ على يشربون
القهوة ويتحدثون في شتى الشئون ، أو وهم في حقولهم أو أمام مكاتبهم أو
في دورهم - أنهم ينقلبون أشخاصا آخرين فتتضي عنهم ثيابهم العادية
ويكسبون بدلا منها أخرى سوداء رسمية على قبض أبيض وربطة بيضاء ،
أو جبة سوداء وقفطانا مخططا وإن أيديهم واحدة بعد واحدة توضع في يد
الشيخ على الكبيرة وأن أفواههم تتمم في حياء « قبلت نكاحها » وأن
السراقات تنصب فوقهم وتزدان ، وأن أصوات المغنين ترسل فضية
« النغمات تجاوبها أصوات السامعين بأهات الاستحسان ، وإن الموسيقى
تعزف مرحة بالقادمين من المدعوين .

ولم تكن سميحة تلزم حالة واحدة فيما تتخيل أختها فهي مرة زوجة
« باشا » يغنيها ويرفعها مقاما محسودا بين أترابها ولداتها ، ثم تستحيل زوجة
« وجيه » موسر له مصيف في الاسكندرية ومشتى في القاهرة وضبيعة طويلة
عريضة يقصدان إليها كلما سثما حياة المدن وتبرما بضجائها وحفلاتها

هو استقبالاتها ، طلبا للزوج والراحة بين أحضان الطبيعة ، ثم هي بعد ذلك
 زوجة الدكتور يعنى بها ويسبغ عليها الصحة وينتقل بها بعد أن تسع دائرته
 ويتسامع به الناس ، إلى رمل الاسكندرية فتكون قريبة منها ، ويغنى شيئا
 فشيئا ويكثر لديه المال فيبتاع لها الحلى الثمينة يزين بها رأسها وأذنيها وجيدها
 ومعصمها وأصابعها وصدرها أيضا ، ويلبسها كل ما يشتهى شبابها من
 الأفواف والأوشية ، - ثم يهتز الكليد سكوب وتتغير مواضع الزجاج الملون
 فيبدو مع سميحة إبراهيم الحازم العطوف ، يبيعها قلبه وبقية طعها حبه
 ويلزمها طاعته ويحكمها كما يجب أن تحكم المرأة ، وكما لا يحسن غير إبراهيم
 فيما تعلم أن يفعل وتتهمد وتبهتسم حين يطوف برأسها هذا الحلم الذى تستريح
 إليه وإن كان المال فيه قليلا وفرص الثراء ضئيلة ، ويخيل لها وهي ترسم
 خطوط هذه الصورة وتلونها أن سميحة تصبو إلى إبراهيم وتحبه ، وتنحى
 عن خاطرها أن إبراهيم لا يبادلها هذا الحب ولا يبدو منه مثل هذا الود ،
 وتقول لنفسها من يدري ؟ أليس الواقع أن الرجال يتزوجون من لم يروا
 من النساء ثم يحبونهن بعد ذلك ؟ وتغالط نفسها وتنسى أن إبراهيم يعرف
 سميحة وأنه يمحقتها ، فلا أمل هناك إذا كان ثم أمل بين غريبين ، وتشعر
 بوجود التعجيل ، ويقوى شعورها بذلك ما فطنت إليه بغريزتها وأدركته
 مما رأت من شوشو وإبراهيم . وكأن شوشو ليست أختها ، وكأن
 تحطيم قلبها وتخيب أملها إذا كانت تحب إبراهيم ، شيء لا يعניה ، ولكن
 صورة إبراهيم وشوشو تأبى أحبانا إلا أن تبرز ، وتكر عليها صفو
 أحلامها فتثير غضبها وتروح تنكر على شوشو أن تحب أحدا بله إبراهيم ،
 وتقول لنفسها إن هذا من شوشو قلة أدب وتسخط على المدارس التى
 تعلم البنات الكلام الفارغ قبل الاوان ، وتنحى على نفسها باللوم هي التى
 أصرت على تعليم أختها - وفى مدرسة فرنسية أيضا - ولكن سميحة كانت
 معها فلماذا لم تتعلم مثلها هذه الوقاحة ؟ ولماذا تنفرد شوشو بسوء الأدب
 وفساد التربية ؟ أتريد أن تجر على الأسرة عارا ؟ أتريد أن يذاع فى البيوت أن

شوشو أحبت إبراهيم؟ يا للفضيحة! يجب أن تضرب على فيها. نعم لا بد من زجرها عن هذا وإلا فالفضيحة لا محالة واقعة.

ويزيدها هذا تصميها على إهداء سميحة لإبراهيم ويبدو لها ذلك كأنه خير حل للإشكال، والسرعة هي كل شيء، وليس أجدى في مثل هذه المسألة من قطع الأمل.

وأفرغت في الفنجان الذى كانت ترشف منه القهوة، نقطة من الماء وهزته. ثم صبته على حافة الموقد، ووضعت بين اخواته ثم صفقت فجاءت سميحة تسبق فاطمة فقالت نجية:

— قولى للبننت ترفع هذه الأشياء. ألا تزال شوشو نائمة؟ يالها من مكسال!

فقالت سميحة: «أنا عارفة ياختى! إنها لا تريد أن تقوم. وماذا كانت تصنع لو كانت متزوجة؟ أكانت تدع الرجل يفطر ويشرب القهوة ويلبس ثيابه وهي منطرجة في السرير؟ ولكن الكلام معها لا يجدى وقد تعبت معها وهي لا تسمع لى كلاما. فلا شأن لى بها فإنها لا تقبل منى كلاما، فأنت وشأنك معها».

فهزت نجية رأسها ومصمصت بشفتيها ولم تقل شيئا ونهضت — على يديها أولا.

ولما صارت مع زوجها وجلست على الكرسي إلى جانب سريرها قالت لزوجو: «ردى الباب يا بنتى».

فالتفت إليها الشيخ على ورفع رأسه عن الوسادة واتكأ على كوعه وقال: — هل من جديد يا فيلى الصغير؟

فلم تجعل بالها إلى مزاحه ووضعت ذراعها على الوسادة وقالت بصوت خافت وهي تتلفت إلى الباب بعد كل كلمة:

— تريد إبراهيم لسميحة.

فاستوى الرجل قاعدا وصاح بها.

— ماذا؟

فارتدت مذعورة حتى كاد الكرسي يقع بها فما كانت تتوقع ذلك وقالت
وهي تشير بكفها مستهجنة :

— يا أخى لماذا تصيح هكذا ؟ لقد أفرعتنى ؟

فقال اليها الشيخ على وقال بأنخفض اصواته :

— ما الذى جعلك تفكرين فى هذا ؟

فقالت مستغربة : « ولماذا لا أفكر فيه ؟ ألسنت موافقا ؟ »

فقال : « موافق ؟ أنك عمياء ! »

فقالت : « عمياء كيف ؟ والله لا أعمى سواك ، ألا أستطيع أن أكلمك

من غير أن تثور كالزوبعة ؟ » .

فلم يعبأ بهذا وابتسم وهو يقول :

— لقد كذبت عليك سميحة مرة أخرى ! اعترفى بالحق .

فقالت بلهجة السخط : « كذبت ؟ تقول كذبت ؟ سل إذن فاطمة ؟ » .

فضحك الرجل وقال :

— الغرض مرض ! تريد الحمقاء أن أسأل الخادمة .

فقالت ملحة *

— نعم سلها . فقد بعث إلى سميحة أمس بأن توافيه فى غرفته بعد أن

يقوم من عندك ، فاستأذنتنى فأذنت فاستصحبت فاطمة فسلها إن كنت فى

شك . انك لا تصدقنى أبدا فلعلك تصدق الخادمة .

قلم يكثرث للمرارة التى فى لهجتها وقال :

— إذن أنا لا أعرف ابراهيم !

فقالت وقد أزعجها أن أحست أن زوجها يعرف ما تعرف هى « ماذا تعنى ؟ » .

قال : « أعنى أيتها الفيلة العمياء ان ابراهيم يمقت سميحة بكل جارحة فيه » :

فكأنما طمأنها هذا وسرها أنه بكل ما يعرفه فقالت :

— يمقتها ؟ انك تبالغ دائما . ومع ذلك فإنه سيحبها شيئا فشيئا وهى ذكية

وماهرة ويجب أن تعرف كيف تستميله ، دع هذا لها ولي أيضا .
فأرسلها زفرة طويلة ثم قال :

— ما أشد غفلة النساء واعظم لجاجتهن في الخطأ . يا عمياء انه لا يمقت
سميحة فقط بل هو يحب شوشو . أسمعت ؟ أكان لا بد ان اشق لك جفونك
بالسكين لتفتحي عينيك فتبصرى ؟

فريعت كأنما كان هذا نبأ جديدا وأسرعت تقول :
— شوشو . كلام فارغ ، لا والنبي ابدا . والله لو ملأ لي حجرى ذهباً .
مستحيل .

فاضطجع الشيخ على ولم يزد على ان قال بلهجة قاسية :
— قومي من هنا . واسمعي . أحذري أن تقولي أو تفعلي شيئا فاهمة ؟
فنهضت طائعة وهي تقول :
— أجنونة أنا ؟

فقال : « بل أنت مستشفي مجاذيب بأسره . إن إبراهيم حساس جدا .
ولا أريد أن اخسر صداقته مهما كلفني الاحتفاظ بها . اتفهمين كلامي هذا ؟
فشورت بيدها وخرجت وكرشها امامها .

الفصل الرابع

« في النهار ادعو فلا تستجيب ، في الليل ادعو فلا هدوء لي »

الوقت الصباح ، و ابراهيم يتمشى في الحديقة ، ولا يرى شيئاً فما يكظ ذهنه الاموقفه الذي لم يعد يحتمل . فكل ما يخطر له أن يفعله ، يبدو له خطأ ، فهو اذا بقي يخطيء ، وإذا سافر يخطيء ، وإذا خطب شوشو وعيناها العميقتان الساكنتان وشعرها الذهبي المتموج على جبينها . فهل ينقاد لنفسه أو يكبحها ؟ ولم يعجبه هذا التعبير المفكك فتساءل « كيف يكون الكبح وكيف يكون الانقياد ؟ إن المسألة ليست ألفاظاً لعب بها ولكنها عمل فما العمل ؟ »

وثني رجله إلى السلم ، ولكنه لم يكد يبلغه حتى ارتد فقد ذكر شوشو . وهي تعدو اليه منه وتكاد تقع فتلقى بنفسها بين ذراعيه وتستريح ! فعصر قلبه الألم ولجت به الصبوة إلى شوشو وهاله « القحط » الذي ينتظره في أيامه المقبلة فرمى بنفسه على الحشائش ، ولم يكن وهو راقد يفكر في شوشو وسوء حالها ، بل في الدم الذي يغلي في عروقه هو ، وفي النار المندلعة في جسمه وفي رغبته الثائرة ، وفي حنينه إلى قبلتها . . إلى جسمها الرخص . . إلى حبها الحار . . في ظمئه اليها كما كانت وهي تطعمه من النافذة . . كما بدت وهي واقفة تنزع أوراق (الاراوله) وتعددها وتستنبثها حظه . . في صدرها على صدره . . وشفثتها على شفثيه والليل باسط رواقيه ، والنسيم يهمس مع القمر في آذان الشجر ، والضفادع تنقنق ، والبوم ينعب من بعيد ، ووجهها هي تغمره ابتسامة الحب وضوء القمر .

تعاقت على ذهنه هذه الصور وتزاحمت ، وهو مستلق على الأرض يكابد حمى الحنين ، ثم خطر له أن شوشو قد تخرج إلى الحديقة فتراه واخلق بذلك أن يضاعف ألمها ! فنهض ومضى إلى غرفته .

وتذكر ما كان من سلوك سميحة وزورتها له تحت جناح الظلام ، وما
يمشي به ذلك من القصد إلى توريطه ، فتسور الدم إلى رأسه وأيقن أن الرحيل
لامناص منه .

وصعد إلى الشيخ علي وكاشفه بعزمه ، وكان هذا أعرف بإبراهيم وادري .
بصلابته وعناده من أن يحاول أن يثنيه عن مراده ، وكفته نظرة واحدة إلى
وجه إبراهيم المربد أن يوقن أن سميحة واختها كاذبتان وأن اثماهما به هو
الذي يرجع إليه اعتزامه السفر .

وقال الشيخ علي يمازحه :

— ملنا أم نبا بنا أم جفانا ؟

مشيرا إلى بيت البحري . فقال إبراهيم :

— كلا لم أكن أريد أن اعتاض منكم سواكم ولكني مللت . لا اكتمك
هذا . كأني في سجن . لا أرى أحدا غير السجانيين . . . أعني بنات خالتي
وخدمهن حتى أنت شاء الحظ أن يقعدك عن مرافقتي إلى حيث أشتاق أن
أكون . . . أعني في الحقول . . . مللت والسلام .

فنظر الشيخ علي بنجبت وقال :

— أهذا كل شيء ؟

فرفع إبراهيم رأسه وقال « وما سؤالك هذا ؟ » .

قال . « صدقت لأجل للسؤال فإني أعرف كل شيء . ولكنني أرجو
أن لا تكون مغفلا . كلا ، لا تشكرني .. »

فقال إبراهيم بلهجة الجدد الصارم « إن من واجبي أن أخبرك . . » .

فقاطعه الشيخ على بدوره : « لا تفعل . فلن تزيدني علما . أو تحسبه
ليس لي عين ترى ؟ »

ولكن علمك قد يكون مشوها أو غير مطابق للحقيقة .

فضحك الشيخ على ضحكة حافلة بالقرقرة ثم قال :

— أرجو أن لاتصدع لى رأسى بالشروح والتفسير . : أبقها إلى أن
أنام ، أو أكتبها بأسلوبك الجزل وضعها في ظرف واختمه بالشمع الأحمر
واعطنى إياه . ولك على أن امزقه قبل أن أقرأه أو إذا كنت تحرص على
آثارك الأدبية ، احفظه لك إلى أن تكبر وترشد لتتاح لك في كهولتك
فرصة تضحك فيها من حماقات شبابك .

فابتسم إبراهيم ولكنه قال بلهجة اليأس : « لا أرى في صلاحك
أملا » .

فقال الشيخ على : « سألق بك بعد غد . فأنا أيضا قد مللت
البلدة . »

ولم يكن هذا ما يريد إبراهيم ، ولكنه كتم ما في نفسه وقال
للشيخ على :

— أو لا تزال مصرا على خطف تلك المرأة ؟

فلم يكثرث الشيخ على وقال :

— قل لمحمود إني سأدق له رأسه ، ولفرج البواب إني سأشقه بيدي
هذه ، ولأم الخير . . ولكنك تستطيع ان تنوب عني في انذار الخدم
جميعا ، إذا عدت فوجدت أن الأجراس لم تصلح ، أو أن واحدا منها
لا يلق بأعلى من جرس الكنيسة . أما أنت فلا تخشى أن أجيء لك
بسميحة وان كنت لا تستطيع أن أعذك بأن أحضر معى شوشو .

فنهض إبراهيم كأنما كان قد كواه بمسمار محمى وصاح به (قبحك الله) .

- ٢ -

حلم إبراهيم وهو نائم في بيت الشيخ على في رمل الاسكندرية ،
أنه قد انقلب بقوة الله القادر على كل شيء ، (بجة) مثلجة في زجاجتها ،
وان محافظ الثغر شربه على كمية غير معقولة من كبار « الجنبرى » وانه — أى
إبراهيم ، احتج في حلقه او وقف فيه ، ولكنه اكرهه على الانحدار

في جوفه فلم يزل يجاهد ان يقات - اعنى ان يرتد - حتى أصيب المحافظ -
بانتفاخ دائم جعل له كرشا كروية ، أكسبته سمنا وابهة ورشحته لعليا
المناصب التي لا يصلح لها النحاف العجاف ، وانه - اى المحافظ - سر بذلك -
كثيرا فأقام - على سبيل التذكار لهذه الحادثة السعيدة - « سيلا » يستطيع
من شاء أن يرشف منه اعذب السم الزعاف بلا ثمن ، وفي كل ساعة من
ساعات الليل او النهار إذا شاء ، وطلبه بلسان « سريانى » فصيح .

فقام من النوم مفزعا ويده على رأسه كأنما يبحث عن « سداة »
الزجاجة ، وكانت الدنيا ملفوفة في شملة سميكة من الظلام تفيض على
الليل سحرا ورهبة ، واندمج كل موجود في ظله ، ولم يعد شيئا بعيدا ،
وآخر قريبا . والبحر يهدر وكأنه يزحف وراء صوته ، والنسم الوانى
يهمس في آذان الشجر .

وحانت منه التفافة إلى حيث كتلة البناء - وكان هو في جناح متصل
بها ومرتفع عنها - فلمح شعاعا من النور باديا من خلال الشمسية ، في
غرفة المائدة ، فاستغرب ثم قال : « لعل الخادمة جهزت لى طعاما ثم
قامت تنظر هل اصببت منه » ولكن النور لم ينطفئ ، فأشفق إبراهيم على
الخادمة أن تحيى الليل كله في انتظار من لا يجيىء ، وخطر له ان الواجب
ان يصرفها لتنام ، فأنحدر حافيا وقال لما بلغ الباب :

- لماذا تنتظرين يا

ولم يزد ، وان كان فيه قد ظل مفتوحا ، ذلك انه لم يبلغ « يا » حتى
كان مسدس مضوبا إلى رأسه ، وكان الذى رفعه إلى وجهه أشبه بالعمالقة
منه بمن رأى إبراهيم من الناس ، وهوى وذراعاة إلى جانبيه وتخلخلت
ركبتاه وجحظت عيناه من المفاجأة ، وابتسم العملاق ، فابتسم إبراهيم ،
لا سرورا ، بل لأنه صار فيما يعلم آلة حاكية ، وقال :

- سوف . كلمة واخذ . وتروخ بلاس .

فلم يفهم مراده ، وحار في هذه « الكلمة الواخذ » مامعناها هل .

هي مقصورة على الصراخ والصياح والاستنجاد أم تشمل الكلام العادي أيضا ، ولكنه أثر الحذر والاحتياط ، لأن التفسير - ولا سيما إذا كان من جانب واحد هو الجانب الأعزل - غير مأمون المغبة ، فأطبق فيه وكان لا يزال مفتوحا ، وهز رأسه مرات إعلانا للامثال .

فقال له : « خمس » .

فود ابراهيم لو نحى عنه هذا الحديد البارد قليلا ، ولكنه أطاع وحملته رجلاه خطوات في خط مستقيم حتى صدته المائدة ، وهو وراءه ، وأدار له وجهه وحده مستفهما ، وأشار بعينه إلى كرسي ، فابتسم العملاق وسأله وأصبعه على فيه :

- لسان مفيش ؟

فتشهد ابراهيم ، وعلم أنه يبيع الكلام أيضا ، وعادت الطمأنينة مع الحياة واللسان ، أما السرقة فلم ير له حيلة في منعها الآن ، وإذا لم يحدث ما ليس في الحسبان فما من شك في أنه سيمضي بما يجمع .

وقعد على الكرسي الذي أوما إليه في زاوية بعيدة عن الباب ، وانصرف هو إلى عمله في هدوء رائع ، وكان يجمع الأواني الفضية ويفحصها ويرتبها ويضعها في حقيبة معه ، وتبين ابراهيم وهو ينظر إليه ان على كفيه قفازين .

ومضى عام فيما أحس ابراهيم وهو قاعد ، واشتاق ان يدخن فقال : « معك سيجارة ؟ » .

فرفع العملاق حاجبيه كالمستغرب ، ثم ابتسم وقال :

- آه بردون يا خبيبي .

ومضى إلى « البوقية » وعاد بسيجارة وأشعلها له ، فشكره ابراهيم وهو ذاهن ، فما رأى لجرأته مشبا ، ولا سمع بمثل سكينته وتنظيم جهوده وقصرها على ما ينشد دون أن يفسدها بتجاوزها إلى ما سواها ، وبدأ له وهو جالس يتأمل وينفخ الدخان كأن السطو

والسرقة ليس أسهل منهما فما على الإنسان إلا أن يعد نفسه صاحب البيت الذى يدخله ، وأعرب للعملاق عن هذا رأى ، وفى مأموله أن يجره إلى الكلام فيطول الوقت لعل شيئاً يحدث أثناء ذلك يلجئه إلى الهرب وترك ما جمع أو يؤدى إلى القبض عليه ، وكان ذلك أملاً بعيداً ورجاء محقق الخيبة وما دام قد استطاع أن يدخل على الرغم من الكلاب الحارسة - ترى كيف دخل ؟ - فأخلق به أن يخرج بلا صعوبة ، ولكن المشفى على الفرق يتعلق بقشة .

وأدرك اللعين المدرب غرضه ، فقال وهو ماض فى عمله :
- أنت مكار .

فأكد له إبراهيم أنه كفنان ، معجب بفنه ودقته وحذقه فيه ، وأن السرقة حقيقة تبدو له سهلة قياساً على ما يرى ، فقال للعملاق :
- سوف ، أنت على البر .

فقال إبراهيم : « بل فى قاع الحب ، أو على كل حال حيث لا أحب أن أكون » فلم يلتفت للعملاق إلى هذا ، ولم يجب بأكثر من ابتسامة ، ثم قال :

- أو خمس حاجة ال . . . ال . . . اسموايه ؟ مس يسبع ؟

فقال إبراهيم : « الطمع » .

قال مثنياً : « برافو » .

فقال إبراهيم : « أحسبك تفعل ما تفعل الآن على سبيل الإحسان وبدافع من الزهد وحب التقشف ؟ » .

فقال للعملاق شارحاً : « سوف ، فيه كثير راخ فى داهية سان لازم كان . . مس يسبع » .

فأعرب له إبراهيم عن إعجابه بهذه البلاغة وقال :

- كنت أظن لبلاحتى أن اللص يأتى كل ما يجمع فى غرارة ، ثم

ينهب من حيث جاء ، ويفعل الباقي في مخبئه ، ولكنك علمتني شيئا ،
وإني لأعجب الآن كيف فأنك أن تجيء بالأدوات اللازمة لصهر
المعادن أيضا .

فقط العملاق فه مستخفا وقال : دمس سغلى دى .
فهبز إبراهيم رأسه وقال : « آه ! أنت اخصائي في السرقة فقط ؟ » :
فقال العملاق : « أنت فاهم دى كله يروخ كاسورة ؟ » .
فقال إبراهيم : « لم أكن أعرف أنها لازمة لأنية بيتك فعذرة » :
فلم يرد العملاق ، وكان قد فرغ مما جاء له ، فأطبق غطاء الحقيقة
وأدار المفتاح في قفلها ، ثم أوما إلى إبراهيم وقال : « من فضلك » .
فهبز وهو يقول :

— هل أطلب لك عربة ؟

فابتسم العملاق وقال : « مرمى ! انت كوينس » .
فقال إبراهيم « شهادة قيمة ، ألا تكتبها لى لأحتفظ بها ؟ » .
فلم يلتفت إلى هذا وقال : « بس مس يلزم تخاف كده دوغرى » .
فقال : « معذرة يا خواجه ، سأندرب على لقائك » .
فربط له يديه وراء ظهره ، ووضع له بين اسنانه بكرة خيط صغيرة
وتناول قبعته وقال :

— ليلتك سعيدة يا بيه .

ولم يستطع « البيه » أن يرد التحية بأحسن منها أو حتى يمثاها ، ولكنه
استطاع أن يشيعه إلى باب المسكن أو الدور .

وعاد « البيه » يعدو كأحسن ما يستطيع موثق مكهم ، إلى غرفة
الخدمة فوق السطح ، وانه ليركل بابها برجله ، واذا بنباح يوقظ
الموتى .

وكان الذى حدث أن اللص لم يكذب يدنو من باب السور الحديدى حتى كان الكلب الحارس على ظهره وأسنانه مغروزة فى عنقه ، وكان كلبا أرمنيا ضخما كالسبع ، لا يدرى أحد أين كان رابضاً ، ولا ماذا ألهمه أن يظل ساكناً ، حتى يصير اللص أمامه ، وعلى مسافة كافية للوثب ، ولكنه على كل حال من فصيلة لا يحمى الغريب لقاءها فى الليل ، وقد ردت وثبته صاحبنا آخر الأمر بشر من - خفى حين - أى بقطعة ممزقة من لحمه وبالقيد فى يديه .

وكان من الطبيعى أن تحضر الأسرة كلها إلى الاسكندرية لا الشيخ على وحده .

الفصل الخامس

« اين الطريق الى حيث يسكن النور ؟ »

في الصباح أيضا ، وإبراهيم يتمشى وحده في حديقة الدار ويمد يده من حين إلى حين - وهو يروح ويحيى - إلى وردة يلمسها ، أو فلة يشتمها إليه ليشمها دون أن يقطعها ثم يعود إلى المشى .

وحده ؟ كلا ، بل معه .. كيف نقول ؟ نفسه . تحاوره وتداوره وتناوشه وتنوشه أيضا ، وتقول له فيما تقول :
- إنك تحبها . ألسنت تحبها ؟

فيقول : « أحبها ؟ ويحني إله لقد كان لي ثوب رجولية زين ، فأين الآن وفائي للخلاق الرزين ؟ تجعلني أين ؟ وكرامتي ماذا صنع الله بها ؟ وردى النفس إذا جمحت ، على مكروهاها ؟ أحبها ؟ وآسفا ، لقد صرت عارى الهوى ليس لي ما يستر القلب عن الناظرين . وكأنما هذه الدنيا قواء فما أحسن الناس فيها . لا حياة ولا عزة . وما دامت الأرض في عيني خرابا مأمونا فمن أستحيي ؟ وماذا يبعث في النفس الشعور بالعزة ؟ .

ويطلق ضحكة مثقلة بالدموع المحبومة فتقول النفس ملحة :

- تحبها إذن ؟

- نعم :

- جسمها ؟

- يفتنى روحها فيه .

- طبيعتها ؟

- نادرة . نادرة .

- ويرسل آهة :
- فتزداد نفسه عليه شدا ولا تترفق به وتقول :
- إذن لا شك في النتيجة ؟
- فيقول : « لا أدري ! » .
- فتعيد عليه الكرة .
- ألا تظن أنه من المحتمل أن تظفر بزواجها ؟
- فيهر كتفيه ويقول :
- ربما ! ولكن كيف واللعينة أختها تكيد لنا وتعترض سبيلنا .
- وتكف النفس هنية ثم تعود فتسأل :
- أليس كل حب إلى ملال ؟ وكل حسن إلى هفاء ؟
- نعم .
- ولالقلب بجمحة ، أليس كذلك ؟
- نعم ..
- أليس أولى بك أن يجعل العقل لجاما ؟
- فيسألها بدوره « كيف » ؟
- فلا تجيب ولا تسمح له أن ينقلب هو السائل وتقول :
- هل لك عمران !
- ماذا تعنين !
- هل ضمنت عمرا جديدا غير هذا ؟
- كلا !
- أو هل تعرف أن لعمرك هذا من يرفوه إذا بلى وتمزق :
- أي فكرة !
- كم ساعة عشتها بعقلك ؟
- فيعجب لسؤالها ويلتفت كأنما يخاطب شخصا محسوسا إلى جانبيه ويقول :
- ياله من سؤال !

- إن حولك الأرض والسماوات تغرى العقل بالتفكير .
فيقول مستخفا « نعم ؟ » .
— كان حقلك أن تصقل عقلك لا أن تصدته !
— يعنى ماذا ؟
— يعنى أنى أراك تطلب الحسن لتغنيه . أليس كذلك ؟ طبيعة الفنان ؟
هيه ؟
— لا تسخرى بى من فضلك !
— لست أسخر . ولكنى أحسب الحسن يوجد فى غير الإنسان أيضا .
— نعم ولكنه فى الإنسان أتم وأبهر وأوفى تعبيراً .
فتقول النفس : « أحسبى فهمت : لا بد لك أن تسند صدرك القريح
إلى شوكه الوردية إذ تغنيها ؟ »
فيثور بنفسه يلعبها فلا تعباً وتقول :
— كنت أظنك احق بأن تحاكى النسر لا القمارى !
— النسر ؟
— نعم ترفع الطرف مثلها فى سماء الفكر . ولكنك عبد الحياة . عبدها
الباكى الشادى بغناؤه الذى لا يعجب الأحرار والطلقاء . وأحسب أنك
معدور إذا بكيت أسارك وحاولت أن تتلهى فى سجنك لا بأس « ارسل
صوتك ليؤديه الصدى مقطعا آه نعم . غن وتسل كما يصيح الصبى فى
الظلام ليطرد عن نفسه المخاوف . واحلم على الرغم من الرق والأسر —
بالخلود . وغالط نفسك وقل إن الجمال وحى ، وإن الحب لا أدرى ماذا
أيضا ؟ ولكن ألا تسمح لى أن أسألك ما وحى الأزاهر الذى يذكى أنفاسها ؟
أو كيف تغدو الأشجار رفاقة الغصن فيحاء الثمار ؟ أو أين وحى
الينبوع فاضت به الاصلاد ؟ لا بأس . غن يا عبد الأيام واللوعة اللبالي !
فلوح بذراعيه وقد ضجر وقال « أوه ! العقل العقل ، ليت إذن
المقادير حرمتنا هذه النعمة التى لم نغن بها ، ماذا عليها لو أنها كانت

قركتنا نرعى الكلاء ؟ ماذا كانت تخسر الدنيا لو كانت الحياة حمتنا « فكرة »
السماء وسمرت لحظتنا إلى الأرض ؟ كنا نرعى ملء البطون نباتاً وننشق ملء
الصدور هواء ولا نعد السنين ، فلا سنة جاءت ولا أخرى مضت ، ونحيا
ونحن نجهل أننا أموات ، ثم نموت وما كنا أحياء ، ونلبس الحياة في كل حال
راضين ناعمين جاهلين ابتداءها ؛ وانتهاءها ؛ ولكن المقادير أفاضت علينا
نعمة الحس فهيات ينفع العقل . نحن أحياء الأحياء فلو أحسنا الحياة
بالأعصاب العارية لما كان ذلك يكفى . . والمرء يظالم الله ويحسد فضله إذا
خزن ما منحه الله وخبأ ما وهبه ، لا لا . انك تريد نعمة ليس فيها حلم .
وعلى أنه يانفس ، ما الفرق ، آخر الأمر ، بين من يقول ليس ثم سوى الأرض
ومن يقول لن تنالوا السماء ؟ ولكن ... »

أو بعبارة أخرى ، ما الفرق ما بين زينون وابقور ؟ لست أعنى أنى
أحدهما .

فقاطعت النفس وقالت : « على ذكر هذين وما داما سيبين فاسمع
مشورتى » .

وكانت لفئة النفس مفاجئة ولكنه تعود منها هذه المباغثات أو الوثبات
فيسألها بإبتسامة :

— ماذا ؟

قالت : « شوشو لا حاجة بها إلى صدحاتك » .

فقال : « ماذا تقولين ؟ »

قالت : « أقول أنه ليس ما يضطرها أن تعاني الأصغاء إلى « سحر »
غنائك . لا تعجل . أن دهرها لم يرعها ولم يشبع أنفاسها إلا استواء .
ولم تعرف جفونها ألم الدمع الذى يابى أن يذحدر . فليس جميلاً منك أن
تثقل صدحاتك بالدمع لعين لم تذق البكاء . وأن تحملها عبء عمرك وهى
الغريزة الرقيقة التى تشكو الإنداء ، وأن تزعج ألحان حسننها بكلام تغصه

«بالضوضاء ، بل ليس من العدل أن تحيط بجمالها بأنقاض حياتك . إنك
زلزال يا صاحبي فاحذر .» :

فقطاً رأسه وقد راعته هذه الصورة ، ومضت النفس في كلامها
وقالت :

— فانفض يدك من هذا الحب . اسرع . عد إلى ماري . التقطها .
ان قلبها « كالاستراحة في أقليم الحب » .

فابتسم وقال : « بالضبط . استراحة خالية مجعولة للنزهة . . ولكني
تعبت ومللت أن أظل أحمل حقيقتي الملأى بمؤونتي . سئمت أكل الأطعمة
المحفوظة واللحوم الباردة ، ولذلك سامضى في رختي مع شوشو » .
فسألته نفسه : « هل قدرت المخاطر » .

فقال بحدة : « هل كان أنطونيو يجمع وي طرح ويعنى بهذه العمليات
الحسائية وهو يتلکأ بجانب كليو باترا ؟ » .

فعادت تسأله . « ولكن المسئولية » .

فقال : « إنى أعلم أن المسألة خطيرة ، ولكن الرجوع لأسبيل اليه
الآن ، ثم أنى لا أريد أن أراجع » .

فسألته : « ومتى تخطبها ؟ » .

فقال : « قريباً . في أول فرصة » .

— « وإذ رفضوا ؟ » .

« آه . إذن أدفن سرى في قلبي ولا أرثيه حتى بقصيدة . »

الفصل السادس

((مشرقة مثل الصباح ، جيلة كالقمر ، طاهرة كالشمس ، مرهبة كجيش بالوية))

غرفة شوشو- وإبراهيم واقف على عتبتها مترددا ، ومن حقه أن يتردد فإن غرفة الفتاة حرم مقدس ، فيها ترسل نفسها على سجيتها ، أحلامها الجديدة تنسج لها آمالها وتطرز حواشيها وتوشبها بمختلف الصور التي تتعاقب على ذهنها في ربيع العمر ، ولكنه لم يلبث أن ملك نفسه وضبط أعصابها ودخل . وكان للغرفة نافذتان عليهما ستاران أو شباكان من أرق نسج ، وعلى الحائط مما يقابل السرير صورة أبيها مكبرة ، وعلى السرير المسوى حبس سماوى اللون مطروح على ظهره ، أما الكلة فمجموعة ومربوطة بشريط بنفسي وإلى جانب السرير سهوة أعوادها متعارض بعضها على بعض ، وفوقها طائفة من الكتب الفرنسية تناولها إبراهيم واحدا واحدا وقلبها ، وهو يعجب فقد ألنى دى موباسان إلى جانب برناردشو ، والفونس دوديه مجاورا لاسبينوزا ، وفرويد وراء تولستوى ، و « له فيه » و « لانفان دى فولبتيه » تحت آخر كتاب له هو ولم تقع عينيه على كتاب مما يوضع للأطفال ، أو مما يزيد هستيريا البنات ، ولقت عينيه إلى السرير وجعل يفكر في شوشو وهي راقدة عليه ، ومعانقة مخلوقات خيالها أو مرسله لحظها إلى المستقبل تستشفه وتستنبئه عن حبها وتمثل سكرة القلب بخمر التسليم . وتصور لنفسها أغماءها من فرط السكر ، وحلاوة التخذير والتفتر في جسمها الطاهر ، ثم تمرد ضميرها على هذه الصور وعراكه معها ونهوضه لنحق خيالاتها - ثم إستدار ووقف ينظر إلى أدوات الزينة ، فرأى مكحلة فارغة سدادتها مرودها ، وحلية دقيقة براقة على صفة الوردية.

مما يغرز بين الشعر على جانب الرأس ، ومساحيق بيضاء في أوعيتها
وميلًا أحمر لصبغ الشفاه لم يستعمل ، ومشطين ، وكوما من الأشرطة على
كل لون ، وبقايا شعر وزجاجة كولونيا .

ودخلت عليه شوشو وهو ذاهل أمام هذا الخليط ، فقالت :

— يا قريبي المسكين أهذا أنت ؟

فالتفت إليها فراعته شحوبها وتقدم إليها باسطة يديه فتناوأتها وقالت
وهي تجره إلى السرير وتقف مستندة بظهرها إليه .

— اتعرف انى كنت اقرأ كتابا في تربية الارادة ؟

فابتسم ، ولم يسهه على الرغم من كل حبه لشوشو الا ان يستخف
بها ، وقال بلهجة مبطنه بالسخر . « هل قررت ان تشتغلى بالتنويم
المغناطيسى ؟ »

فقالت . « لا تسخر ، فان تربية الارادة والتغلب على العواطف ،
شئ يستحق الاحترام » .

فقال . « نعم . . نحن القلب وانماء العقل ، اليس كذلك » .

قالت . « نعم مارأيك ؟ اعنى رأيك الجدى ، بصراحة » .

فقال . « بديع جدا وضرورى ايضا ، لرجال السياسة » .

فسألته . « وللمرأة ؟ » .

فقال : « جحود . كفر صريح . تمرد على الطبيعة لاطائل تمحته

ايضا . امرأة بدون قلب ؟؟ ماذا تكون ؟ مخلوقا وحشيا »

— هل قرأت ما قال « اوفيد » فى « فن الحب » اعنى قوله « ان

الفضيلة أنثى . هى كذلك بشبابها وبلطفها » وانا اضيف اليه ، وأزيد

عليه ان الحب لقلب المرأة كالارج للزهرة » :

فقعدت على السرير ودلت ساقها ، وقالت وهى تهزهما .

— إنك تعرف جيدا أن قلب المرأة كصندوق « بندورا » إذا فتحت
انطلقت منه كل الآلام والأوجاع والمصائب .
فمعجب لشوشو ، ماذا تراها تعنى بهذا التشبيه ، ولكنه كتم خواطره
وقال :

— يجب أن تتعلم الواحدة منكم كيف تفتحها بحذر .
ففتحت عينيها العميقتين ، فتحتهما جدا وقالت :
— ماذا تعنى بالحذر ، أتريد أن تقول : أن على الفتاة منا أن يكون
في مقدورها أن تقرأ الغيب ، وأن تنظر في صدور الرجال ، فإذا قلوبهم
لوح مكتوب تطالعه ، هل تدعى أنت ان لك هذه القدرة على النظر في
هذا الكهف العميق المظلم ؟
فزادت دهشته ولم يستطع أن يهتدى إلى الباعث لها على هذا الكلام ،
ولكنه سايرها وقال :

— اسمعى يا شوشو . لقد أهاب بنا نيتشه أن نحيا حياة خطيرة ولكنى
أقول أنه ينبغي أن نحيا حياة أيضا مؤلمة . ان الألم لا سخييف ولا بشع .
أنظري هذه الشمس التي تنحدر للغيب . ان للشمس بقعها . والشمس على
الرغم من بقعها هي حياة الأرض . هي وحدها حياتها . والسعادة أيضا لها
بقعها . ولك أن تسميها آلامها ، ولكن هذه الآلام هي التي تجعلنا نقدر
السعادة التي نفوز بها . والحياة بالقلب هي الحياة الثامنة . أما من يبلد قلبه ،
من يخنقه ، فهذا إنما يحيا حياة هندسية في ناحية واحدة . واحسبه مهما
حاول لن يستطيع أن يقنع نفسه بعقله وحده ، وماذا يصير الناس في عالم
تسيطر فيه العقول أتم سيطرة على القلوب ؟ ينقلب الرجال « نظريات » ذات
لحى أو شرارب ، والنساء ملاحق لها ، والحب لو غارتما للرغبات !

فقالت له : « ابراهيم . ان فصاحتك لا تقنعنى اليوم ، إني انا فتاة
دون العشرين ولكنى بكيت أنهارا وتأملت . . بكيت ليالى بأسرها على
آمالى الميتة .. »

فأخذ كفها بين يديه وقال بأرق لهجة :
« شوشو . ان دموعك التى سكبتها فى ظلام الليل هى التى تجعل المستقبل
مخصبا . آه يا شوشو . لا تدبلى زهرة نفسك .. ان الحياة تدخر لك ساعات
من أسعد الأوقات واحلاها وأنداها » .

فطأطأت رأسها وقالت « وتدخر لى أيضا دموعا مرة .. »
فصاح بها « شوشو ! »

فقالت « اقتناعك يعجبني فهل لم تتألم قط ؟ ! »
فقال « ياله من سؤال ! كأنى لا أتألم الآن ! أولى أن تسألى سمك
البحر هل ذاق طعم الماء المالح ؟ نعم . تألمت يا شوشو . بسبب قلبي أيضا ..
القلب الذى تريدن تربيته ؟ وسأتألم مرة أخرى . ولا يزعجنى علمى بهذا .
بل أنا راض به ومستعد له » .

وذهب إلى النافذة ونحى عنها الستار ونظر من زجاجها ثم ناداها فجأة :
— شوشو !

فأسرعت إلى جانبه ووضعت يدها على كتفه فقال دون أن ينظر إليها :
— لقد عزمت أن أخطبك اليوم . وهذا سر حضوري إليك .
فراجعت خطوة وقالت ويدها على صدرها المضطرب :

— تخطبنى ؟ اليوم ؟
قال « نعم . أيسوءك هذا ؟ »
فرمته بنظرة عتب وقالت :

— أرجو ألا تفعل . ليس الآن . تمهل . انك لا تعرف . أظننى فى
هذا . لا تقض على بهذه السرعة . انتظر حتى تكون أختى ميسو فى ...
فى ... الريف — بعيدة عن أختى نجية .. أرجو .. الخ .

وكان ينبغي أن تحلل عزمه لهجتها وإلحاحها وتوسلها والفرع الذى فى
عينها ، ولكنه غاظه واسخطه وأثار تمرده واستفز عناده أن يكون لسميحة

مثل هذا السلطان ، وجرح كبريائه أن تكون لمثل هذه الفتاة التي يعقها
قدرة على اعتراضه وأخذ الطريق عليه ، والخيولة بينة وبين أنختها . ولم
يبد له — فضلا عن ذلك — أن للانتظار والتمهل أى مسوغ أو فائدة ،
فسميحة ستقاوم على كل حال ، فخير أن تنشب المعركة الآن فليس من
وراء أرجائها أى أمل فى اتقائها . وما دام أن الحرب لا محالة دائرة على كل
حال . فلتدر والمعسكران متقابلان . . وهو بين أنصاره . . أنصاره ! ابن
هم ؟ ليس له من نصير غير الشيخ على ، ولكن اليس فيه الكفاية ؟ إنه جيش
وحده ؟ وماذا تستطيع امامه مائة الف سميحة ونجية ؟

والتفت إلى شوشو وقال بلهجة المصمم :

— لقد سمعت منك إنك تقرئين كتابا فى تربية الإرادة ! يل اليوم
أخطبك يا شوشو !

الفصل السابع

(لذلك اسمعى هذا ايتها البائسة والسكرى وليس بالخمر)

قالت شوشو لإبراهيم :

— هذا أنا .. قد جئت ..

فد إليها يده ، ولكنها لم تصافحه ، فقال :

— أهو كبر ما بنا أم جفوة ؟

— لا كبر ولا جفوة .. وإنما أنا مغيظة .

— منى ؟ ..

— كلا !

— ممن إذن ؟

— لماذا تسال ؟ .. من نفسى .

— مسكينة يا فتاتى ! ماذا صنعت مما يورث كل هذا الأسف ؟

— لست آسفة على شيء .. هذا ما يغضبى .. ولو وجدت للأسف

مسا لكبرت فى عين نفسى .

وكانت الليلة مظلمة والرياح كالمجنونة ، ولا يكاد أحدهما يحس من

صاحبه — وهما مستندان الى سور السطح — غير صوته فقال :

— انت فى عيني كبيرة وجليلة دائما .

فلان ما كان متجمدا من نظراتها ، وسلس الصعب من جانبها ، ورقت

حاشيتها ، وانسجم صوتها ، وجذبها تكلفة البشر ودنت منه ووضعت

يمنها على كتفه واقبلت عليه تسأله أصحيح ما يزعم ؟ احق انه يكبرها

وسيطل يكبدها على الرغم مما فعلت ومما تفعل ؟ إنها لا تسأله

عن حبه لها فقد استوى على الرغم من حلاوة الثقة به ؛ أن يحبها أو لا يحبها ، ولكنها تسأله هل يحترمها ؟ فهبط قلبه وقال وهو يتناول يدها في يده :

— وماذا فعلت يافتاتي أو ماذا تفعلين الآن أكثر من أنك قد جئت تؤنسين وحشتي تحت عيون هذه النجوم ؟

فرفعت وجهها إليه ورمته بعين مفتوحة كمغمضة وقالت .

— أو هذا كل شيء ؟

— كل شيء الآن . . الآن وإلى الآن .

ولبثا هنيهة صامتين تحت هذه السماء المهيولة المتلامحة النجوم ثم قالت .

— وماذا كنت تريد أن تقول لي مما أجهل ؟

فأربد وجهه ولكنها لم تره في ظلمة الليل ولم تدر ماذا عانى حتى عاد محياه يرف لها بينما كانت هي تجذبة من كتفه وتلح عليه بالسؤال .

— كنت أريد أن أقول أن هذا لذيذ (بابتسامة متكلفة) .

— ماهو ؟

— كون يدك في يدي .

فانزعتهما بحركة لدية وبلا تعتمد لذلك وقالت :

— لقد أنسيت أنها في يدك .

— أنسيها مرة أخرى .

— لا أستطيع أن .

— ماذا ؟

— ان أنسى . .

— تناسيها اذن .

— كلا .

— هل من سبب ؟

— « لا » مخطوطة طويلة « سوى ان التناسى ليس كالنسيان »
وتناول يدها وسكتا مرة اخرى وتكلم بينهما الهوى .

* * *

وطال سكوتها لأن الليل عظم وقعه في صدر ابراهيم . ، وكان
مما يرفه عن اعصابه ان يرسل اللحظ يريد ليخرق به احشاء الظلماء
فتشف له عن نجوم السماء ويرتد اللحظ عما دونها كليلا حسيرا ، وأروع
ما تكون السماء عنده حين تنتقل العين في اجوازها المربعة فلا تقطع منها
سوى بيد هائلة عن بيد اشد هولاً . وكذلك كانا واقفين في ليلتهما
تلك . هي مفتونة بجمالها ؛ وهو يكاد يسحقه الرعب ويفنيه الشعور
بضآلته اذ يجيل عينة في فيافي السماء اللانهائية ، ثم قال لها كأنما أراد أن
ينقل اليها احساسه بهول السماء وضآلة الانسان وكل ما يتعاق به أو كأنما
كان يعنيه أن ينهض عليها متعتها بهذا المنظر .

— ثقی أن هذه السماء ليست مفعولة للانسان مهما تكن علة وجودها
انه لا شيء في الارض أو في السماء مفعول لهذا المخلوق الذي يحسبه
الفارغون مركز الدائرة ومحور الوجود ! بل ليس اقرب من
هذه السماء على اشعار الانسان ضآلته ولا شيبته اذا شئت .

فأدارت اليه وجهها وقد سحرته نبرة صوته وراعتها ما في لهجته
من المرارة وقالت كأنما تريد ان تصرفه عن هذا الاسلوب من
التفكير .

— ماذا يوجد بين هذه النجوم ؟

فضحك — ضحكة عصبية — وقال « يوجد ؟ يوجد ، ان صح التعبير

بلفظ الوجود — صحر اواث فضاء مظلمة تركها من يعلم السر ، بلا شمس ،
وتوجد أقيانوسات من الفراغ لا آخر لها يحمد الفكر كلما حاول أن يتصورها
— هذا ما يوجد ! .

وضحك مرة أخرى ولصقت هي به كالحائفة ، وهو عنها في شغل يحدق
في السماء وقد شعر فجأة — على كل حبه لها — كأنما بينه وبينها بعد ما بين
الأرض والمشتري . ومضى يقول :

— وهذه السماء التي يسحق النفس بجلالها المرعب ، ويهول الخاطر أن
يقذف به في أجوازها اللانهائية . . ليس جمالها الذي يسحرك بالخاطر
ولا الباقي ! ها .. حتى هذه مرجوع وهجها رماد ! « وجذبها من كتفها »
أنظري هذا النجم الذي يكاد ينجو وميضه بين اخوته نجوم الدب الأكبر
كان منذ بضعة قرون يخفق مثلها لمعاناً ! فليس يخلو كل هذا الجلال من
دواعي الرثاء ! وتصوري هذه النجوم كلها — كلها — قد خمدت ؟ تصوري
عقلك يتلمس طريقه في سماء مظلمة خبا فيها كل ما كان يضيء ! تصوري
عقلك يصطدم في ظلمة الكون بقطعة كابية من هذه الكواكب ! نحى عينك !
غضى بصرك من السماء إذا أردت أن تستبقى بشاشة نفسك .

ففرغت وأقبلت عليه وأسندت رأسها الصغير إلى كتفه وأراحت خدها
على جانب صدره وتعلقت يسراها بكتفه الأخرى فأفاق ومسح لها شعرها
حتى زايلها الخوف ، وإن كان لم يزايله هو الاكتئاب ، ولم يفارقه الشعور
بما بينهما الآن من البعد ، على قربهما بل تلاصقهما ، وآه لو أن كل ما بينهما
فرسخ أو فراسخ ! إذن لأمكن أن يبتسم . وخطر له في هذه اللحظة أن مما
يعزبه ، لو أن هذا مما يعزى ، أننا سعدنا أو شقينا ، سندهب كما ذهب من
كانوا قبلنا . وأن الدنيا ستومض فيها عيون خير عيوننا ، وتنفق فيها
قلوب أخرى ، وترهق عقول جديدة ، وأنها ستشهد أشجاء طريقة
تندب ، ومسرات ومباهج حديثة تطلب ، ويستعزبها ، على حين نعود
نحن ، كما سيهود كل شيء ، قبضة من تراب .

وقالت شوشو : « لن أفعل هذا مرة أخرى ؟ »

— لن تفعل ما ذا يا فتاتي ؟

— ألقاك هكذا ! إنك مخيف . هي الأولى والآخرة .

فابتسم إبراهيم ابتسامة فيها من الحنان والعطف عليها وعلى نفسه أكثر مما فيها من صباية الحب ، وقال وهو يتهدد :

— لا أدري أى سحر ضربته على حتى صرت ، كلما عزمت أن أروض

نفسى على مراجعة الصبر فيك ، لا تكاد عيني تأخذك حتى يتحلل العزم !

فى كل يوم أعالج أن أرد نفسى على مكروها ثم ما هو إلا أن أراك ، أو تخاطر

فى القلب ذكراك ، حتى أنسى كل شيء سواك . ولا يبقى لى منى إلاك :

فابتسمت وسألته وقد سرها أن ينصرف عن السماء إليها :

— وماذا تريد أن تصنع بى ؟

— ماذا أريد ؟ أن أحملك معى وأخفيك حتى عن عيون أهلك . هذا

ما أريد . إن رأسى ليدور حين أرى واحدا من الخلق ينظر إليك . ولكن

لك قدرة على المبالغة والمخافة حين تشائين . وفى هذا عزاء لى ، وإنى ليخيل

إلى أحيانا أن تناسخ الأرواح حق وأنت أنت « برونهيلده » بعينها يحيط بها

سور النار الذى حولها .

— ليتنى كنتها . ليت حول كل فتاة مثل هذا السور من النار تحمى به قلبها

وتتمحى من ينشده .

— بحسبك غرائزك النسوية سوراً من النار .

— ولكن ألم تعرف — ألم أقل لك — أن ماتبغى عسير لا يقع فى

الإمكان ، فما جدوى هذا الذى نحن فيه ؟

— أعرف ؟ من أين لى علم هذا ؟ كل ما أعلمه أن أهلك حتى وأنهم

يفضحون بك فى سبيل أخذك .. لاتضعى يدك على فى ! دعيني أتكلم ! لأنهم

يحولون دوننا تقدما لها عليك ، وقد علموا أنك لى لا بعيد عن ذلك ! هن

رضى منهم أو محمولين على مكروهم .

وفى هذه اللحظة دفعها الريح إلى صدره فأسكره قريبا ، وأخذ منه

شذا شعرها ، فضحك ضحكة عصبية ، ورفع وجهها إليه وأهوى على فمها
يقبله في بساطة كأنما كان هذا حقاً له ، وهى تجاهد وتعالج أن تفلت من
عناقه ويأبى هو أن يدعها .

— انك ! .

وعضت شفتها وردت اللفظ الذى همت به .

— أنا أى شىء ؟ قولها . اقدنى بها فى وجهى كما قذفوا .

— وحش . فظيع . هذا أنت . دعنى .

غير أنه لم يدعها ، بل ضمها وهو يضحك فى رقة وجدل وسكر حتى
همست فى أذنه :

— لم أكن أعنى ما قلت كما تعلم .

فقال : « لم تعنه أبداً بالطبع » .

وقبلها ثانية .

وقالت وقد تخلصت من عناقه :

— كيف تعيدها وقد وعدت ألا تفعل ؟

— أنا ؟ متى وعدت ؟

— كيف تسأل يا . .

— يا وحش . قولها ؟

— ولكن أليس لك ضمير ؟

— ضمير ؟ ياله من سؤال . بالطبع لى ضمير .

— لا أراك تحفل به الليلة .

— أنا فى شغل عنه . قبلينى .

— أى فكرة . ماذا أصابك الليلة ؟

— افعلى .

— مستحيل .

— من فضلك .

— مستحيل . قلت مستحيل .

— إذن تعالى أقبلك .

— ولا هذا .

— ولم لا ؟ ألا يسرك أن تكوني محبوبة ؟

والتف حول خصرها ذراعه ، ووجدت شفتاه السبيل إلى شفتيها فهل هذا معنى أن تكون محبوبة ؟ وهل هي له كما سمعته يقول بلهجة اليقين على الرغم من رفض أختها ؟ أنها على كل حال لم تعد تحس أن لها في نفسها كثيراً أو قليلاً ، فياليت من يديرها ماذا أصابها ففترها وأفقدتها الإرادة والقدرة على ضبط نفسها ؟ وعلى أنها لم تعد تكثر لذلك أو تفكر فيه ، فقد كان الدم يتدفق كالمجنون في عروقها .

— أمصغ أنت ؟

— « نعم » بصوت تخنقه عريضة الشفتين في تحررها .

— إنني أعلم عظم حبك لي وإلا ما فعلت الليلة ما فعلت على الرغم من الحيلولة بيننا . ولكن أى فتاة تستطيع أن تفتنك عن نفسك ساعة ، وما أحب أن يكون هذا أثرى عندك ، ولأن يسهل أن تلهيك عنى وتعللك بالدنيا . ولقد أردت أن أهبك ما تذكرني به — ما يطيل اذكارك لي — ألا تفهم الآن لماذا تركتك تقبلنى هكذا ؟ إنه الزهو والغرور والأنانية .»

— بل قولى إنه الحب .

— هو هذا وذاك بلاشك ، ولكنى أردت أن تذكرنى .»

— أو تحسبن أن نفسى ستطيب عنك ؟

— أخشى .

— لماذا ؟

— كل امرئ ينسى القبله بعد أن تبرد شفتاه .

— من علمك هذا يا .»

والتقت شفاههما في قبلة طويلة ، ثم تناولت خديه بين راحتيها وقالت :

— دعني أذهب الآن :
ولكنه ضمها وهو يقول : « أدعك ؟ كلا ! إني أعتشى أن تشريني
في الهواء إذا تركتك » .
— كلا لا تخف .

وعاطفته التقبيل وخنقت صوتها العبرات وهي تلح عليه أن يدعها
فسألها :

— أواقعة أنت أنك تريدني أن تمضي ؟
— كلا ! ولكنني واثقة أنه « يجب » أن أذهب .
فخلعها فتراجعت قليلا ثم أصلحت ثيابها وشعرها والتفتت إليه
وهي تقول :
— لا يشق عليك ما تقول أختي .. وأيقن أني .. ولكن ليتني أكون أنا على
بقين من وفائك !

ومضت أخف من الفراشة .
وسافر هو في الصباح إلى الأقصر .

الفصل الثامن

« من هو جاهل فليمل الى هنا ؟ »

أدار الدكتور محمود ظهره إلى المركز حيث عيادته وقصد إلى الإسكندرية :
وكان عمله يضطره أن يجعل زيارته غبا لبيت الشيخ على في القرية ،
ولم يكن يعنيه من بيت قريبه إلا شوشو على الحقيقة ، وأمره معها عجيب ،
فهو حين كان يراها لم يكن يحس أن لوجودها أثرا عميقا في نفسه أو أن
طلوع وجهها في مدار حياته قد أضاف إلى هذه الحياة شيئا ، ولكنه بعد
أن رحلت مع بقية الأسرة إلى الإسكندرية وجد نفسه كثير الشرود وأدرك
أن ما كان سلوة فيما يعتقد لا أكثر ولا أقل قد صار حاجة ملحة وبعبارة
أخرى مألوفة ، أنه يحبها .

وهكذا أحب شوشو اثنان : واحد بمعاشرتها وتوالى النظر إليها والآخر
بالبعد عنها والانقطاع عن رؤيتها .

أما كيف أحبها الدكتور ، متى كان ذلك فهذا ما لم يستطع أن يهتدى
إليه ويحل لغزه ، والحقق هذه على كل حال ، أنه لما تركها آخر مرة
قبل أن تغادر القرية - لم يشعر بذلك الأسف والاكتئاب المهودين ساعة
الفراق . فهل بدأ يحبها يوم سمعها تغنى ورآها معتمدة على حاجز السلم ؟
لقد أعجب بها حينئذ وتعلقت صورتها بذهنه وألحت على خاطره ولكنه
يذكر مع ذلك أنه وجدها « جافة » . أم ترى أحبها لما أكرهته بعد ذلك بقليل
على مبارحة المنزل والعودة على الرغم من المطر والأوحال إلى المركز ؟ لقد
راقه حديثها قبل ذلك ولكن نجبها أفزع ومكيدتها أمسخته . أم هو اكتئابها
وتفترها وما عراها من الدبول بعد رجوع الشيخ على إلى القرية ؟ لقد وقع
في نفسه ذلك وأدركه عليها عطف عظيم حين رآها لا تكاد تتكلم أو
تضحك ، ولا تميل إلى ترك غرفتها إيثاراً للوحدة . . ترى لماذا ؟ وقد

كانت تصده عنها في ملل وضعف فاذا كان يكرهها ؟ وكيف حالها ياترى في الإسكندرية ؟ .

والواقع أن حب الدكتور محمود لشوشو كان شاهدا على أن هذه العاطفة ليس من الضروري أن تكون نتيجة لتلاقى العيون وتلامس الأكف . وذلك أن قلبه لم يصب إليها إلا بعد أن نأى عنها واستحالت في ذهنه خيالا ومعنى ؛ فأدرك أنه يحب روحها التي لازمته في رقاده ويقظته واستبدت به حتى صار يرتجف اشفاقا من العواقب التي قد تترتب على ادخال هذا العنصر الجديد في حياته الهادئة المنظمة ؛ فاشتد قلقه واضطرابه ثم صار يشرد فكره ويتعلق بصورتها وراح يجد لذة في التفكير فيها .

وكان يوما في القرية يعود مريضا فلم يطق أن شوشو ليست فيها فصمم على الذهاب في هذا اليوم إلى الإسكندرية ؛ واعتدل في مقعده في المركبة أو « الفيتون » على الأصح ورفع السوط ولوح به فوق رأس الجواد الأصيل فانطلق بخطف ، وسره عزمه الجديد وأنهشته المناظر على الجانبين وراح يتصور نفسه بطلا غازيا سيدخل الإسكندرية فاتحا - يومئذ - بأصبع فيهرع إليه الخلق ويحرك شفثيه ، فينطلق مائة رجل في خدمته ، ويتسم فتشرق الوجوه وينعم الناس ببشره و . .

وهنا صادف الجواد مصعداً وصار السير بطيئاً فتساءل من أين له هذه الثقة بالنجاح أولا وبالسعادة بعد ذلك ؟؟ وفكر في النجاح أولا فما هي فرصته ؟؟ وقال لنفسه : « لا أدري . . من أين لي العلم بما يبطنه هؤلاء النسوة . أنهن جميعاً يلاطفنني إلى آخر ذلك ، ولكن هل هذا من المرأة له قيمة أو دلالة خاصة ؟ » وجره ذلك إلى التفكير في السعادة ، فحصى يقول : « لست أذكر شيئا معيناً قالت له شوشو يبعث على الأمل ، نعم تجرى أحيانا لاستقبالي وتظهر السرور بوجودي ، وهذا كل شيء . وأجسبها تجاملني لاني قريب الشيخ على ، ثم اني طيب والمستقبل أسمى حسن ، ومكاسبى الحالية ليست بالقليلة ، فهل يتقدم لها مني هو خير مني ؟؟ »

وانتهى الصعود وبدأ الهبوط ، وعاد الجواد يحب ، ومضى هو في مناجاته لنفسه : « صحيح أنها لم تختصني بشيء يروق ويعجب ، ولم تهد لي إشاراً ، ولكن ما دلالة هذا ؟ ، وماذا انتظر غير الاحتشام من فتاة حسنة التربية ؟ وإذا كانت قد صدتني عن مغازلتها ، أفليس هذا أولى بأن يرفعها في عيني ؟ أكنت أحترمها أو أفكر في الزواج بها لو أنها أسلمت لي قيادها ومنحتني زمامها ؟ كلا ! وما على الآن إلا أن أتقدم لأفوز . . أمد يدي لأقطف الزهرة . . ومما يزيد سروري أنها فيما أعلم لم تحب أحداً قط . صحيح أن علاقتها بإبراهيم وثيقة ، ولكن هذا ابن خالتها والأسرة كلها تكبره وتحبه ، ثم إنه ضيف وإن يطول مقامه على كل حال ، وهو بعد رجل حاد حكيم قوى فمخالطته لشوشو تنفعها ولا تضرها ، تؤتيها الاتزان الذي ينقصها . وفيما عدا ذلك لم تقع عين شوشو على أجنبي ولم تخالط غريباً فهذه مزية ، فليس أبغض إلى من أن أتصور نفسي أحب امرأة جربت هذه العاطفة من قبل . نعم فإن من المستحيل أن يطمئن المرء إلى زوجة كانت لها برجل آخر .

علاقة حب » :

وابتسم وهو يتصور شوشو نخالية القلب مستعدة أن تثني عنان قلبها إليه .

وكان الجواد قد انتظمت خطواته وخفت سرعته ، فهبط أمل الدكتور تبغا لذلك فقد خطر له أن سميحة قد تكون عقبة في طريقه وطريق شوشو . نعم إن الشيخ على رجل واسع الذهن ، طيب القلب ، ولكن الأمر فيما يتعلق بشوشو ليس إليه ، بل إلى زوجته ، وهي سيدة مؤدبة ولكنها لاتفهم شيئاً ، ثم إنها عنيدة جداً ، فهل تقبل أن يتخطى الدكتور سميحة ؟ هذه هي المسألة . . لماذا لم يخطب أحد سميحة هذه ؟ إنها ليست أقل جمالاً من اختها ، وإن كانت . . اوه ! مالي أنا ومالها ؟ . . لتكن ما

شاءت فليس لي بها شأن . ولكن هذا لا يحل العتدة . ولست أرى أن أكلم الشيخ على في ذلك فقد يسخر مني . فمن استشير ؟ ليس أمامي سوى إبراهيم ، فهو الرجل الذي له من الاحترام والتوقير ما يجعله خير معين لي في هذه الورطة . ولن أعدم لحظة أخلو فيها به في الإسكندرية .

ولما صار في الاسكندرية قادته رجلاه إلى دكان صائغ ، فانتقى منه قرطين من الذهب تتدلى منهما حبات من اللؤلؤ قال لنفسه أهديهما إليها . واتخذ مجلسه في قهوة وأخرج العلبة وجعل يقلب القرطين معجباً بهما مستغرباً من نفسه هذه الجرأة . . . الجرأة ؟ نعم . وهل يجوز أن يتقدم بمثل هذه الهدية إليها وليس بينهما ما يسمح بالتهادى ، واضطرب وأضاع نصف ساعة في التفكير في هذا ، واستسخف نفسه جداً لأن هذا الاعتراض لم يرد على خاطره قبل أن يشتري الهدية ، فقد أيقن أن ما هم به ليس إلا عملاً ينكره العرف والتقاليد بل العقل ، وكيف يفاجيء بهدية كهذه فتاة لا يزال ينقصه أن يعرف ما تنطوي عليه له ؟ وكيف يتمخطي أهلها ويقصد إليها مباشرة ؟ أمن أجل أنه أتم دراسته في (ليبون) ينسى بلاده وعاداتها والأصول المرعية فيها ؟ وتناول العلبة وفتحها أسفاً وجعل يقلب القرطين ويتأملهما فجري بباله خاطر آخر كان تنغيصه أشد . هب شوشو لم يعجبها اختياره ، ولكن هل انتهينا من القبول حتى نفكر في الذوق الذي حدا إلى الاختيار . وكاد الشك يطير بلبه ويعصف بعقله فجعل طول النهار يتأمل القرطين من قريب ومن بعيد . وفي الظل وفي ضوء الشمس حتى اقتنع بأنهما شر ما كان يستطيع أن يشتري — فضلاً عن حماقة العمل في ذاته .

والآن ماذا يصنع بهذين القرطين ؟ وتمنى أن يفقدتهما ، وود لو يسرقهما منه لص ، وأخيراً استوقف مركبة وثب إليها وقد خطر

له حل جميل . واشترى قرطين آخرين ، وخرج بالزوجين وقال أهدى
كل فتاة واحداً ، فلا يبقى هناك اعتراض ، ويكون عمل هذا إشارة
صريحة إلى أنى أفكر فى مصاهرة الأسرة . . ولكن رأسه تدلى وقلبه
هبط لما تنبه إلى أن أول ما سيخطر لأى امرئ هو أن سميحة هى طلبته .
مسكينة سميحة . . لو عرف إبراهيم هذا لأدركه العطف عليها . .

الفصل التاسع

« ابتعدوا عني يا جميع فاعلي الاثم »

كانت شوشو راقدة في غرفتها وعيناها مفتوحتان ، تدبرهما فلا ترى أثراً لإبراهيم ، لا صورة ولا هدية ولا رسالة ولا بطاقة زيارة . جاء وذهب كالعاصفة ولم يخلف إلا مثل ما تخاف من التحطيم — وأين هو الآن . في الأقصر ! يدفن الحب الذي خيبتته نجية — « نجية أختها ويحبها — فكيف لو كانت امرأة أبي وضرة أمي » يدفنه بين أطلال طيبة وهو متكبر وعر الطبع فأما أن يخلق هذا الحب ويدفنه وأما أن يقضى نجية معه « لا شك في ذلك . ولن يرجع من طيبة ، إذا رجع إلا بقلب سليم ما في هذا أيضاً . شك . كرامته عنده فوق كل شيء وهي أحق بالمراعاة من كل عاطفة . ألم يقل للشيخ على حين أراد أن يقنعه بوجوب التسليم على نجية قبل سفوه « قد خلعت ثوبي فكيف ألبسه ؟ قد غسلت رجلي فكيف أوسخهما ؟ » متمثلاً بالتوراة .

وطفر الدمع من عيني شوشو وهي تتصور عناد إبراهيم وصلابته ومراة نفسه وانتساخ كل أهل في لينه أو تساهله ، وكاد يسخطها هذا على إبراهيم . إذ كيف يقسو عليها هذه القسوة ؟ ماذا صنعت هي حتى يحطم قلبها ويدوسه بحذائه ؟

وهمس في أذنها الأنصاف « وقلبه هو ؟ ألم يتحطم ؟ أليس المحقق أنه إذ يحاول أن ينتزع حبها من قلبه ينزف ؟ » .

ف قالت « نعم . نعم . » ودفنت وجهها في الوسادة وتركت دموعها تنهمر . وأفاقت . . مريضة . كل أعضائها يخذل بعضها بعضاً . وماذا يكون المرض إن لم يكن منه ذلك ؟ قلبها تحسه هابطاً وروحها مسحوقة وأملها ضائع والعزاء لا سبيل إليه . نعم هو يحبها . وهل

يمكن أن تنساه وهو واقف أمامها . النور الذى فى عينه ، والنبرة التى فى صوته ،
و وفاؤه لها . إن فى وسعها أن تراهن بحياتها على حفاظه : ولكن ما جدوى
وفائه وقد محقت أختها حياتها ؟ ما خبر أن يظل يحبها وقد اثمرت بها أختها -
كلتاها - ليقضيا عليها ! والشيخ على يقول : ان بها حاجة إلى قليل من
الراحة ! آه لو علم ! إن حاجتها إلى ما هو أكثر من الراحة ، ولورآها وهى
تبكى وشعرها منفوش ووجهها على الوسادة وقلبها يتمزق لأدرك أن الراحة
لا تغنى !

ولم يكن يمسكها فى هذا اليأس الأسود الذى يخطط بها والنقمة الماحقة التى
تشعر بها لأختها ، إلا يقينها بأنها محبوبة ، والا ذلك المقدار من السعادة الذى
ينتج عنه هذا اليقين . بهذا الخاطر تشبثت بينما كانت عواطفها تزخر وصدورها
تعيث فيه عواصف الألم . ومن الذى يستطيع أن يسلبها هذا الحب مهما
حدث ؟ قد تكون الأقدار قد خبأت لها تجارب أخرى وآلاماً جديدة فى
حياتها ولكن الأقدار نفسها لا قدرة لها على حرمانها الشعور بأن إبراهيم يحبها -
كلا ولا اليقين بأنه إن يحول أو يتغير . فقد فطنت شوشو بسرعة إلى عنصر
الثبات الهادئ الرزين فى أخلاق إبراهيم ، وحتى لو تغير إبراهيم أو حال عن
عهدها فإن ذلك لا يغير الحقيقة الراهنة ولا يمحو السعادة الحاضرة ولا يجرمها
كنزها الذى تضمن به وتعيش عليه . وسألت نفسها وهى فى هذه الحالة
النفسية التى يختلط فيها الجدل والألم « أكنت أستطيع أن أحس هذا السرور
الخفى الدقيق ، مثل هذه القوة لو لم أتعلم من سلوك سميحة أن أميز بين الصحيح
والزائف ؟ لو لم تكن هناك عقبة ، لو أن سميحة لا توهم أختها نجية أن بينها
وبين إبراهيم خبأ ؟ أكنت أعترض بحب إبراهيم كما أفعل الآن ؟ أكنت أعتد
بحبه لى - لى أنا وحدى دونها - عزاء وذخرا لى ، وكترأ أطويه فى أعماق
أعماق قلبى وطلسمأ أدفع به الشقاء ، ورقية يبلغ من قوتها وفعلها أن تسلى
القلب لحظة وتنسيه أن كل رقية عبث وكل سلوى محال ؟ »

ودخلت عليها أختها سميحة وهي على هذه الحال فلم تأخذها بها رحمة وصاحت !

— «ماشاء الله . ماشاء الله . طبعاً ياستى . معذورة . ربنا يكون في حونك» .
فاحست شوشو بالرغبة في خنق أختها ، أو على الأقل في جلدتها بالسياط .
أليست مجرمة ؟ ألم تقض على نفسين ؟ ألم توكل بهما الشتاء طول العمر ؟
ألم تقمع حياتهما في شبابهما ؟ ولكنها ملكت نفسها ومسحت دموعها واعتدلت
وقد زهاها أنها هي المحبوبة دون سميحة ، وأن سميحة خسرت مثلها ولم
تكسب ، ورمتها بنظرة اختقار مرة ونهضت متثاقلة إلى المرأة فاصلحت
شعرها في صقاتها ثم التفتت إليها وقالت :

— أنا المعذورة ؟ ربما . على أنى أرجو من فضلك أن لاتلعبى دور الأم .
لست أكبر منى إلا بعام ، فلست أقبل منك أن تعدى نفسك مربية لى . أكبر
منى ؟ ليتك كنت الصغرى ؟ أعنى ليتك أنت مكاني ، أنت المطلوبة بدلا منى ،
ولكن بختك هكذا وأحب أن تكبرنى واثقة أنى لأعيا بك ولاأحترمك ، اعلىجى
هذا لترى نفسك وإلا فساكون مضطرة أن أسىء أدبى عليك أمام الناس ،
إن مايعنينى يعنينى وحدى ز

ورفضت شوشو عن نفسها لأنها استطاعت أن تكبح عواطفها وأن تنفخ
على أختها التنصارها ، وأن تصمد لها على هذا النحو ، وطاف برأسها أن
هذا تأثير ابراهيم ، تأثير روحه القوية التى تأبى أن تنهزم ، هى بلاشك روحه
التي أوحى إليها هذا الموقف الحازم . ولم تكن سميحة تتوقع من أختها هذا
التمرد لأنها ألفت الطاعة والانصياع والأدب ، فاذهلها ما سمعت وصدمة
وآلمتها الوخزة ، وكان فيها جبن — والجبن والمكر صاحبان — فاشفقت
أن تسوء العاقبة وأن تفقد كل سلطان على أختها إذا لم تتراجع ، وأيقنت
أن العصفور لم يعد فى القفص ، فاقبلت على شوشو تمسح لها شعرها وتلاطفها
وتؤكد لها أنها آسفة وأن العطف عليها هو الذى أطلق لسانها مما قالت وأنها
لا تحب لها أن تدبل زهرة خمسها بالبكاء .

ولكن شوشو لم تلتن ولم تخدع بل زادها تجول سميحة إلى الملاطفة شعوراً بأنها وفقت إلى ما يجب عليها فنحت يدها عنها وقالت : « كنى نفاقاً . لا تحاولي أن تخدعيني . أأست أقول لك بصراحة أني لا أحترمك ؟ فإذا تبغين مني ؟ ان ملاطفتك أبغض وأثقل من سلاطة لسانك فاذهي عني من فضلك وإلا فانا غير مسئولة » .

ولكن سميحة كانت أقوى من أن تظهر الهزيمة ، فقالت : — كل ما أردت أن أخبرك به هو أن الدكتور محمود جاء وسيبقى الليلة هنا . وقد يسأل عنك فإذا نقول ؟ ان الأوفق أن تنزلي فما يليق أن يطلع على شيء .

فضحكت شوشو وقالت :

— الدكتور محمود جاء . يالها من فرصة ، أعني لك طبعاً . فغضبت سميحة لهذا التعريض وكان غضبها حقيقياً لا تكلف فيه وثارَتْ بشوشو تعنفها على هذا الكلام الجارح وتحتج على هذه اللهجة : ولكن شوشو كانت تجد لذة في إيلاء سميحة فسرهما غضبها وهلمت أن الوخزة شكت قلبها وقالت :

— مهلاً . مهلاً . أليس الدكتور إبراهيم .. أعني رجلاً ؟ كل ما أنشاه هو أن أخرج للدكتور فيقع في خبائلي وأقنصه كما قنصت إبراهيم فتضيع عليك فرصة ثانية . لذلك أكرر لك تهنئي بالفرصة الجديدة وأعدك أن لأرى الدكتور وجهي .

فلم تطق سميحة هذه المكايدة ومخرجت . وعجبت شوشو لنفسها من أين لها كل هذا الهدوء .

الفصل العاشر

« ثم سمعت صوت السيد قائلا : اذهب »

« آسفة ! »

لم يستطع الدكتور محمود أن يصدق هذا .

« آسفة لأنها... ماذا قالت ؟؟ أوه لا أدري ! لم يعد لي عقل أدري به شيئا .. آه لا تريد أن ترى أحدا .. هذا « الأحد » هو أنا ، لا سبب غير ذلك لا تريد والسلام . مامعنى هذا ؟ معناه ؟ وهل له غير معنى واحد ؟ أختها تخبرني أنها متعبة فأظهر قلتي وأعرب عن استعدادي لعيادتها فتبعث إليها بسميخة تبلغها أني سأعودها : : سأعودها .. هية ، ليست زيارة ولكنها عيادة .. عيادة طبيب لمريض . شيء عادي جدا ، ولكنها ترفض رؤيتي ، تأتي أن تراني ، لا تريد أن ترى أحدا ... وأنا هنا واقف كالبلبل ، مامعنى هذا ؟ هاها ! »

كلا . لم يستطع الدكتور أن يفهم ما حدث ، وله العذر ، وكلما أطال التفكير في الأمر زاد استغرابه واضطرابه ، وكان هذا أول ما حدث له من هذا القبيل باعتباره طبيبا ، وأول ما جرب الصدمات لرغبته في الحياة فراح يقطع « الصالون » جيئة وذهابا ويحاول أن يضبط عواطفه ويقبض على الزمام الذي تفلت من يديه ويحدث نفسه بأن لهذا السلوك سرا لعله غير راجع إليه ، وعسى أن يكون هناك شيء يجهله هو ، ربما كانت الصدمة التي تلقاها ليس معنيا بها على وجه التخصيص ، وإنما هي صدمة كان أي إنسان عرضة لها بدلامنه ، لو اتفق أي إنسان آخر كان بدلامنه . ولكن الذي لا يفهمه هو أن كل من في البيت لا يستغرب أن ترفض شوشو أن يراها طبيب على الرغم من أنها متعبة ، وبعبارة أخرى مريضة ، فهل هذا معقول ؟

كيف يتلقون رفضها بالتسليم المطلق ومن غير أن يرتفع صوت واحد بالاعتراض ؛ أو يبدو أى أثر للدهشة على أى وجه ؟ ؟ ليست هذه عادة الأسرة ، فان الطبيب أول ما يفكر فيه الكبار والصغار والنساء والرجال والخدم والسادة ، لأنفه انحراف ، حتى الزكام يستقدمون من أجله الطبيب إلى القرية ، ولو كانت المصابة به فاطمة الزنجية ! ولهم هنا فى الإسكندرية طبيب لا يعودهم سواه ، وينقدونه أجره فى المواسم الزراعية ، لا بعد كل زيارة فما معنى هذا ؟ ما الباعث لشوشو على الآباء ولأختيها على السكوت ؟

ووقف أمام البيانو ينظر إلى الصورة واللعب المرصوفة فوقه ، وأخرج سيجارة وقدح عودا من الكبريت ورفعه ليشعل به السيجارة ولكن خاطرا جال فى ذهنه فنحى السيجارة عن فمه قبل أن تشعل وسأل نفسه : « وأكن هل هى مريضة ؟ ان شكى عظيم ! كلا ! لا يمكن أن تكون متوعدة وتأتى أن يراها طبيب . كل ما أعرفه عنها وعن الأسرة كلها يحملنى على الاعتقاد بان المرض دعوى » . وهز رأسه كأنما أوشك أن يهتدى إلى السر ويقع على حل للغز ، وأشعل السيجارة وزم شفثيه وأرسل الدخان خيطا طويلا إلى فوق كما يفعل المرء وهو يفكر ، وكاد يبتسم ابتسامة الرضى عن النفس والارتياح إلى ما أبدى من الذكاء والفطنة ، ولكنه عبس ولم يبتسم ، عبس لأنه تذكر هيئة نجية وهى تشكره على اقتراحه أن يعودها ، وتقول له : « أوه يا بنى والنبي كتر خيرك ، أحسن البنت مش عارفه جراها إيه : لو تشوفها ماتعرفهاش . مابقلهاش شكل . روحى ياسميحة ياختى قولى لها الدكتور جاي يشوفها . إياك على الله يا بنى امال ، لحسن موريانا الصديد » فكيف لا تكون مريضة وهذا كلام أختها ، وتلك لهجتها ؟

ووقفت فى هذه اللحظة سميحة فى مدخل الباب وقطعت عليه التفكير بسؤال :

— يادكتور ابن عمى هنا ؟

فالتفت إليها وقال : « لا . اسمعى . »

فدخلت وحار كيف يسألها عن شوشو وكيف يتقن أن يثير شكوكها
بسؤاله ، ولكن مهنته أسعفته فقال :

— كيف أخذك الآن أرجو أن تكون حقيقة في غنى عن الطبيب
فقلت وهزت كتفها :

— أختي وو ..

فلم يفهم هذه اللغة ، لغة الأكتاف الممزوجة ، والشفاه الممطوطة ،
ولم يدر أيطمئن لما يتبينه في لهجتها من الاستخفاف أم يقلق لما تم عليه
مركتها من الامتناع والضيق .

فقلت سميحة « لا » ممطوطة جدا — « إنك لا تعرف شوشو يا دكتور
هي هكذا دائما . دعك منها فلا أمل في صلاحها » :

فقال : « إني آسف لسماع هذا ، فقد كنت أظن أنها أعقل .. »
فقاطعته : « أعقل ؟ ها ها ! ليس في رأسها رائحة العقل . هل
يفرك منها ظاهرها ؟ آه لو عاشرتها ! ولكن الكلام عيب ، أرجو
أن تدع سيرتها ، فإنها تؤلني ، أني أتحسر كلما رأيتها كل يوم . ولكن
ماذا نقول ؟ ربنا هو الهادي ! »

فلم يدر الدكتور ماذا يقول ردا على كلامها وتنقصها لشوشو وآله
أن يسمع هذه الزرابة ، ولكن كيف يدخل بين الأختين ؟ وسميحة هي
الكبرى ، فأسفها معقول . إذا صبح أن شوشو كما تصف ؟ كيف يمكن ؟
لأنها تبالغ ولا شك ..

وكأنما أدركت سميحة أن الشك يخالج الدكتور فقلت :

— أنت معذور إذا لم تصدق ، لأنك لا ترى شيئا . ولو كنت غريبا
عنا لما كاشفتك بما في نفسي من الأسف والألم ، وقد ضاق صدري
ولم أعد أعرف ماذا أصنع ، حتى أختي نجيه وهي كأي أختها الحيل ،
بالطبع ليس هناك شيء معيب ، هذا بديهي ولكن تصور أنها مثلا
لا تعرف شيئا عن شئون البيت وتديره ولوازمه ، يكون معها الشيء

فتلقيه حينما اتفق وتكون غرفتها « كسوق الكانتو » والخادمة مشغولة فلا تكلف نفسها كنسها أو ترتيبها ، ولو ظلت شهرا على هذا الحال ، وتعطيها مبلغا فإذا سألتها عنه كيف أنفق اكتفت بأن تقول لك « في البيت » حتى كتبها التي تحبس نفسها في غرفتها أياما لتقرأها أنا التي أرتبها وأنظفها وأنفض التراب عنها ولا تستطيع أن تشتري لنفسها منديلا أو تفصل ثوبا .. وهذا كل ما استفادته من المدرسة ! الكتب ليس إلا ، وماذا أقول ؟ أقول تتفكر تنحسر ؟

وتهدت .

ووقف هو كالأبله .

وظهر الشيخ على في الباب فسد فضاءه .

وتسللت سميحة فخرجت من باب آخر .

وقال الشيخ عل وهو يدينو من الدكتور ، أو على الأصح صاح به :
— في الحديقة يكون منظرك أحسن . ليس هنا مكان التماثيل ، الغرفة أضيق من أن تتسع لتمثال كبير ! في الحديقة . تعال نختبر المواقع وننتق أوفقها ، أوه ما هذا ؟

ومد يده فجس جيب الدكتور فصار وجهه كالجمرة .

وقال الشيخ على : « أنفاح هذا ؟ لماذا تحمله في جيوبك ؟ لا ليس هذا تفاحا . أهو فحم كوك ؟ » .

وضحك وقد أعجبه منظر الدكتور يحمل في جيبه فحم « كوك » .

فابتسم الدكتور وقال « فحم ؟ لا لا » ولكنه لم يمدد يده إلى جيبه ولم يخرج مافيه ، وكيف يخرج علبتي الحلقات ويربها للشيخ على ؟ ومع ذلك لماذا لا يفعل ؟ هل كان ينوى أن يقدمها سرا ؟ كلا ولكنه لم يكن يفترض أن يكون الشيخ على حاضرا ساعة الاهداء ، ولا بأس بان يعرف الحكاية بعد أن يتم الأمر أو يكون هو قد رجع إلى المركز .

واستحيا أن يخفي الأمر عن الشيخ على ، وخطر له أن هذه قد تكون

فرصة أتيت للتخلص من الحلقان التي أنبسيها لما صدمته شوشو برفض عيادته ، فأخرج العلبتين ، ومد بهما يده للشيخ على ففتحهما هذا وقال :
— حلقان ؟ ها ها ! تكاثرت الظباء على خراش ! ! بل على العكس ،
تكاثرت على الظبية الخراشون .

فلم يفهم الدكتور ، وخيل إليه أن قريبه يهذى ، خراش وظباء ماذا يعنى ؟ ورفع إلى الشيخ وجهها كله علامة استفهام .

فقال الشيخ على ، وهو يدق كتفه بيده الكبيرة « لم يخطيء ظنى يا صاحبي ! وسأصف لك دواء هو خير من كل طبك الذى لا ينفع أحدا ، طبك الذى يخونك الآن ، طبك الذى ترفضه شوشو . آه . . لقد فضحك وجهك . . فاسمع : دواؤك أن تخرج إلى البحر وهو من هنا قريب ، مائة خطوة ، ومعك هذان الحلقان ، فتلقهما فيه وتلقى نفسك وراءهما هذا هو دواؤك . فلا أمل لك فى شوشو . ومتى قال الشيخ على هذا فيجب على قريبه أن يصدقها فذهب إلى البحر . تعال معى فقد تحتاج إلى معونتي » .

القسم الثالث

لأنى دعوت فابيتم ، ومدت يدى وليس
من يبالى ، فانا أيضا أضحك عند بليتكم

الفصل الأول

كيف أصف لك عن هذه

لو رأى القارىء إبراهيم فى الأتصر بعد الذى سردناه لك فى الفصول السابقة لحسبه من طلاب الآثار أو على الأقل من المولعين بدرس العاديات المصرية . فقد كان يقضى نهاره كله فى الهياكل والمقابر ، والهزيع الثانى من الليل مكباً على الكتب . أو مدوناً ملاحظاته وآرائه فيما شهد فى يومه ، وقد استغنى عن الأدلاء بطائفة متخيرة من الكتب التى وضعها العلماء والكاشفون عن الآثار أو المفتشون الأجانب التابعون للحكومة المصرية ، وكان يحلو له أن يجلس على صخرة بين الأطلال ويذهب يفكر — لا فيما يحيط به من المعاهد الدارسة ، بل فى هذه الصحراء العارية التى تكتنف كل شىء ، والتى عظم وقعها فى نفسه حتى لراح يتمنى أن يرزقه الله القدرة على نقل هذه الصحراء وحملها معه فى حلة وترحاله وفرشها وبسطها حوله فى حيثما يكون من الأرض — نعم ليت هذا فى وسعها ! إذن لاستطاع أن يطويها كلما غادر بقعتها وأن يلفها مع ثيابه وأشياءه فى حقائبه ، حتى إذا نزل مكاناً واستوحشت نفسه أنس بأن يخرجها وينشرها أمامه ويتأملها ويذكر بها لياليه فيها بما اشتملت عليه — فقد صارت نفسه فيما يرى كهذه الصحراء : تربة بكرى تغذوها الشمس ولكن خيرها دفن فيها ، فظاھرهما مجذب ووجهها أجرد ، ولا علم لأحد بما فى جوفها وبما كان يمكن أن يخرج منها لو أن الحياة لم توسعها حرماناً مما أغدقته على غيرها من رقع الأرض ، وكذلك هو : أخطأه الحظ فى ناحية ، فأجذب ظاهره وبقي باطنه زائحاً بقوة الحياة المكنونة فيه .

ولم يستغرب إبراهيم نشوء هذه « العاطفة » فى نفسه للصحراء ، فقد قرأ — أين ياترى ؟ ماأخون ذاكرته فى هذه الأيام — أن بعضهم

كان يقرأ وصفاً للصحراء الكبرى فأدهشه أن يحس أن أنفه قد غطته البقع فأهسل عن القراءة مخافة أن تخرج على بدنه الحصف من لفح ما يصف الكاتب .

وهز رأسه وتساءل وهو يدير عينه في الفضاء والخراب حوله .

— ماهى هذه المدينة؟ أهى شرط مرتبط « بالإنسانية والمروءة »؟ بانقطاع العذاب أو التعذيب؟ كلا فقد كانت أشور على حظ عظيم من المدنية وكان أهلها مع ذلك يساءلون جلود الأسرى من أعدائهم وهم أحياء ، وكانوا يقعدونهم على الخوازيق وكانوا يتركون الآلاف من الجرحى يتعذبون كما يموتون في حومة القتال !! وروما أيضاً كانت مركزاً للحضارة في أيامها ، ومع ذلك كان أبنائها يلتذون برؤية مناظر القتلى — فتك الحيوان بالإنسان والإنسان بالحيوان ومشاهد الدماء سائلة منهما كليهما . ومصر التى تهرنى آثار مدنيته ماذا تقول نقوشها على جدران هياكلها؟ ماذا يقول الهرم وحده؟؟ فى كم سنة بنى وكم روحاً زهقت فى سبيل حجارته؟ .

« أم ترى للمدنية علاقة بحقوق الفرد فى ظل الديمقراطية؟ ولا هذا أيضاً فإن أوربة وأمريكا متحضرتان ولكنهما تستخدمان الجموع المهترئة والجماهر المنظمة فى جيوشهما وفى اتحادات الحرف فيهما وبذلك يتيسر تحقيق مآرب القليلين باستغلال طاعة الكثيرين ، ويبلغون غايتهم كما يفعل زعماء قبائل « الزولو » المستوحشة بقوة « العدد » ؛ وبفضل الكثرة المدرية على الطاعة . والرأى العام ماذا يبقى للفرد من الحقوق فى ظل الديمقراطية؟ .

« أم المدنية مرتبطة بالشرف والنزاهة؟ حتى ولا هذا فإن الفساد والرشوة فاشيان فى أرقى الجماعات مدنية حتى لكأن المدنية تعين على استفاضتهما .

« ماذا إذن؟ أترى علاقتها بالفضائل الجنسية؟ » .

أيهنا ابتسم وقال لنفسه « إن جو المدنية أصلح ما يكون للذائل الجنسية »
وتلفتت عينه إلى ناحية الفندق الذى ينزل فيه .

ومل هذا السرد والنفى . ونهض وهو يقول « إلى أن يجيء ذلك اليوم
الذى يدرك فيه الناس — كل أحد — أن الرقى العقلى وحده ، أن الكولتور
الذى صدع رءوسنا به الألمان — إن المدنية التى نلهج بها ليست هى الآخر بل
الأول ، ولا النهاية بل الابتداء ولا الغاية بل الوسيلة ، ولا الحصاد بل
التربة — إلى أن يجيء هذا اليوم فلن يكون رقى الإنسان مستحقا للذكر
إن روح الإنسان هو المهم » .

وانحدر إلى مقبرة أمنحوتب الثانى وهبط الدرج المنحوت فى الصخر
وعبر الجسر الذى أقيم فى هذا العصر فوق البئر ، ودخل القاعة ذات
العمودين ونزل سلام أخرى إلى قاعة ذات ستة أعمدة ، وجدرانها مغطاة
بالنقوش والمناظر المنقولة عن « كتاب ما فى الآخرة » ، ومضى إلى آخرها
وأطل على تابوت الملك وأشار إلى الحارس فأطفا الأنوار الكهربائية ولم
يبق إلا المصباح الذى يلقى ضوءه على مومياء الملك الراقدة وكأنه نائم ،
وقال لنفسه وهو يتأمله .

— إن هذه الأعضاء النخيفة المعروقة كانت فى حياة صاحبها مكسوة
باللحم قوية العضل ، وكان هذا ملكا قوى الجسم وكان ينزع قوسا لا يقدر
أحد من حاشيته أو جنوده أن ينزعها . وكان حاكما قويا شديدا البطش
عظيم البأس ، ولقد وسعه أن يضم شتات الدول العديدة والشعوب
المختلفة التى أدخلها هو وأبوه من قبله فى دائرة ملكه ، وكان قاسيا على
خلاف أبيه حتى ل قيل عنه أنه ذبح بيده عدداً من الأمراء الذين ثاروا
عليه وربط واحداً من رجليه وعلقه مقلوبا يتدلى من السفينة — رأسه إلى
الماء وربطه إلى السماء — هذا كله كان منذ ثلاثة وثلاثين قرنا ومع
ذلك يحس المرء وهو ينظر إلى نضارة ألوان التابوت ودهان الجدران كأن
مصر القديمة ليست بعيدة منا كما كان يتصور — ثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة

فوقها ليست شيئاً — يعبرها الخاطر بسرعة وسهولة ولا يحس مسافتها ولا يشعر بمشقة هذه الرجعة ! فهل كان هذا الزمن لاشيء على الحقيقة ؟ هل مسافة هذه الحقب الطويلة المديدة التي تشبه الابد ، وهم ليس إلا ؟ عجيب .. عجيب ! » .

وانثنى إلى غرفة صغيرة فيها ثلاث موميات مجهولة الأصحاب : مومياء عجوز لا يزال شعرها الذي أشابته الأيام يلمع كالفضة ، ومومياء فتى لا يتجاوز الرابعة عشرة على صدغه نخصلة من الشعر .. »

ونحنى إبراهيم عينه وهو يقول : آخر كل شيء هذا .. آخر الحزن والسرور .. آخر السعادة والشقاء ... آخر المجد والعزة والذلة والحمول ، آخر الشهرة وآخر الخفاء .. باطل الأباطيل الكل باطل .. صدق ابن داود .. صدق سليمان .. » .

وخرج من القبر وعاد إلى الفندق .

- ٢ -

ولم تبارحه صورة شوشو لحظة ، ولم تخمد وقدة حبه لها ولا انقطع حنينه إليها ؛ لكن بضعة أيام بين هذه الأطلال والمقابر والمومياءات والصحراء قللت من حدة غصبه على أختها نجية وإن لم تنقض عزمه المبرم ومكنته من أن يتدبر ما حدث وهو ساكن . فاستطاع أن يقنع نفسه بأن ردها عليه ليس فيه ما يسوء ولا هو يجهز على الأمل ويمنع الرجاء أن يكون له محل ، وماذا قالت له ؟ أنها لم تزد على أن قالت أن إبراهيم كشقيقتها وليس أبعث على سرورها من أن يكون زوج أختها ، ولكن شوشو هي الصغرى ؛ هناك سميحة وهي أكبر منها ؛ فإذا تزوج شوشو فقد قطع الطريق على سميحة ، وخلق بالأسنة السوء أن تذهب تحتلق أسباباً شائنة لتخطى سميحة . فهل يرضى هو هذا ؟ وهما أختان ولا فضل فيما ترى .

لشوشو على سميحة ، فإذا شاء أن يتزوج سميحة ، فهي له بلا مهر ولا قيد ولا شرط .

هذا كل ما حدث ، وهو عين ما كان يتوقع ، وصحيح أنه بلغه أن نجية حلفت أن لا تعطيه شوشو ولو ملأ حجرها ذهباً ، ولكن لماذا قالت ذلك ؟ ما الذى أنطقها بهذه الكلمة الجارحة ؟ إنه الشيخ على ! نعم هو . فقد أراد أن يحملها على القبول والتساهل ، وكان عنيفاً كعادته ، وهاجها بسخره ؛ ففضبت وقالت ما قالت ، ولا يزال صحيحاً أن عدواً عاقلاً خير من صديق جاهل .

وابتسم . . الشيخ على صديق جاهل ؟ كلا ! إنه الإخلاص مجسداً ، والبكاء مصوراً ، ولكن ذكاه خانه هذه المرة ، فندت الكلمة الجارحة عن صدر نجية أكل ما تنطوى عليه من مرارة وخيبة أمل كانت سميحة مناطه . ومن يرد الكلمة بعد أن تخرج ؟ من يعيد العصفور بعد أن ينطلق من قفصه ؟ .

هذه هي المسألة ، فلا سبيل إلى إعادة الكرة . نعم لم يذهب الأمل ، ولكنه هو لا يستطيع أن يتقدم مرة أخرى طالباً أو خاطباً . كلا . هذا محال ومحال مثله أن يرى شوشو . . . وكيف يراها وأين ؟ وإذا لم تقى نجية إلى الرضى ولم تتقدم من تلقاء نفسها إلى إبراهيم ، فكل رجاء عبث ؛ ويجب أن تراض النفس على مرارة الحرمان ؛ واحتمال البعد .

وشعر بالدم يغلي في عروقه وهو يفكر في كلمة نجية . كيف يستطيع أن يرى وجهها بعد الآن ؟ ؟ كيف يمكن أن يصفو لها قلبه مرة أخرى ؟ لو ملأ لها حجرها ذهباً ؟ نجية تقول هذا وهي مع ذلك مستعدة أن تزوجه سميحة بلا مهر ! ! ها ! وأدار وجهه . كأنما أراد ليتقى أن يراها ، وتصاب وجهه وثبت حلاق عينه

وصرت أسنانه وهو يقرضها من الغيظ وصار منظره مفرعاً ، وكانت فتاة مصرية تمر به وهو لا يراها ؛ فوقفت وارتفعت يدها البضة إلى قلبها ، ثم رجعت من حيث جاءت ، وولت هاربة .

وزايلته النوبة ؛ وعأوده السكون ورجع يسأل نفسه « كيف ؟ كيف ؟ كيف تكون رياضة النفس ؟ هذه هي المسألة ، لا تلك . كل شيء يهون إذا استراح القلب إلى الفراق ووطن المرء نفسه على احتمال عذابه .

غير أن الاضطراب لم يطل ، لأنه كان أصبح تفكيراً وأسلم نظراً من أن يدع نفسه يتخبط ، فلم يلبث أن سخر من نفسه وقال يعنفها « ما سؤالي هذا عن الكيف ؟ إنه لا محل له . وسواء استراح القلب إلى الفراق أم لم يسترح ، فالفراق موجود ؛ أما العذاب فهل لم أحتمله إلى الآن ؟ لا أدري كيف ؛ ولكن الذي أدريه أني أحتملته والسلام ، ولست أرى أني خرت أو وهنت فيجب أن أضع حداً لتخليط النفس . نعم لا يجوز أن أسمح لها بأن تحيلني امرأة لا تعرف إلا البكاء » .

وشوشو ! مسكينة مسكينة ! حزنها دفين في صدرها . وليس لها ما يعينها على التسلي ، بل كل شيء يؤجج النار التي في قلبها ، ولا صديق بجانبها أو صديقة ، كل ما حولها عدو لها ؛ ما خلا الشيخ على وهو لا يسعه كثير ، ولو كان في مقدوره شيء لما حدث ما حدث ، فخطبها أدهى ، ومصيبتها أعظم ، ألا أبرق للشيخ على أوصيه بها خيراً ؟ يحسن ولا يحسن ، ولو أمكن أن ترسل البرقية إلى غير بيته . . ولكن هذا غير ميسور ، وإذا وصل التلغراف فسيعلمون جميعاً بأمره ويسألونه عنه ، وربما كان الآن في القرية فيفتحونه ويطلعوا عليه فيقع المحذور . كلا . ومع ذلك ما الحاجة

إلى إيباء الشيخ على ؟ ثم إني . . نعم يجب أن أقطع الصلة الآن . . كل القطع . . وفي خلال ذلك ماذا ؟

لا أعلم سوى أن قول القائل :

إن من مائة الزمان بشيء لحقيق إذن بأن يتسلى

يدور بنفسى . صليق . ولكن ذهني لايسعني باقتراح . فلندع الأمر للمصادفة ، وبحسبي الآن كأس من الويسكى .
وصفق .

الفصل الثانى

« كل طرق الانسان نقيه فى عينى نفسه »

— ١ —

كان الشيخ على لا يزال راقداً فى سريره وإن كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة ، ولم يكن نائماً ولكنه يتسمع ؛ وكان سريره يسد باباً مؤدياً إلى غرفة مجاورة ، وكانت سميحة وأختها الكبرى نجية فيها ، وكانت سميحة تقول وهى تخلع برقماً أسود تسدله على وجهها حين تريد أن تخرج متنكرة ، لأنه كثيف يغطى الوجه كله ما عدا العينين :

— أعوذ بالله من البيت يا أختى ! لم أر فى حياتى أقدر منه ولا أضيق :
غرفة واحدة فى الدور الأول لها نافذة مفردة مسدودة بالحصير والهواء ينفذ منها . والبرد فيها شديد ، وهى جالسة على وسادة فوق الحصير ، وفى أصابعها خواتم من الفضة ، وفى أذنها قرطان كبيران من الفضة أيضاً ، وعلى ساقها خلخالان من الفضة كذلك . لا شئ من الذهب أبداً . كل ما تتحلى به من فضة . ووجهها سمح ونظراتها حلوة . وقد كنت أول من دخل ولكنها لم تنزل إلا بعد أن أزدحم البيت — الغرفة والسلم — بالنساء . وكان النساء يتناولن طعامهن — بعضهن جئن به معهن — طعمية ودقة وكسرات من الخبز المقدد — وبعضهن اشترين سميطاً وجبناً أو بيضاً من رجل يبيع ذلك فى سلة كبيرة جلس بها إلى جانب الباب . وماذا أقول لك ؟ لقد كان المكان كالزريبة ! أما الضوضاء فأعوذ بالله منها ! لقد صدعن لى رأسى . ومع أنى كنت لابسة هذا الإزار الخلق الذى استعرت من فاطمة ، فقد أحسست أنى غريبة بين هؤلاء النسوة .

فقاطتها نجية قائلة :

— وماذا قالت لك ؟

وكانت سميحة قد كورت البرقع وهى تتكلم فألقته على الكنبه وهمت

قليلاً لتسحب الإزار من تحتها ثم جمعتها وكومتها وقذفت به وراء البرقع وتهدت ثم قالت :

— قالت ؟ لقد قالت لي كل شيء ! روت لي الماضي كله وكشفت لي عن المستقبل أيضاً . كيف عرفت يا أختي ؟ إن هذا لغريب والله ! لكأنني كنت في حلم حتى ما كنت نسيته أذكرتني به . لقد ذهبت إطاعة لك فقط ، ولم أكن أعتقد أنها ستعرف شيئاً ، أو أنها ستنبئني بماض أو حاضر ، وكنت أقول لنفسي في الطريق : ومن أين لها العلم بشيء ؟ إن هذا كله دجل ولكني لم أكّد أجلس إليها وأناولها المنديل حتى قلبته في كفيها وقالت : « هي ! لا تصدق ! إيش عرفها دي رخرة ؟ معلهش ! يمكن يعطى سره لأضعف خلقه . مين عارف ! أهو حانشوف بعينا ونسمع بودننا » وأقول لك الحق يا أختي لقد دهشت ونججت من إنكارى قدرتها على الإنباء بالغيب ، وضحكت مستغربة لأنها كانت تتكلم وهي مطرقة وكأنها تقرأ في كتاب .

فقلت نجيّة :

— ألم أقل لك ! ليس مثلها ، كل من رآها يروى عنها الغرائب ، ولكن ماذا قالت لك !

— « قالت لي ! وهل تركت لي شيئاً لم تقله ! حدثتني عن شوشو وعن إبراهيم ابن خالتي وعن الدكتور محمود . ليس بالإسم طبعاً ولكن بالوصف . أيوه قالت لي « آل ! طيب ماعلهش ! بكرة نعقل ونرجع نقول ياريت اللي جرى ما كان ! لكن نقول إيه ونعيد إيه ؟ هو الضفر يطلع من اللحم ؟ هيء لكن ده مش ممكن . ولا لما تشوف لبن العصفور . وازاي ده يجي ؟ ده كلام عقلا ولا مجانين ؟ لأ برده عقلا بس المكتوب على الجبين ، واهو عمل عملوه ولاد الحرام والسلام » .

نجيّة مقاطعة . « شوفي يا أختي ناصحة صحيح ! وهل لم تصف لك شيئاً يفك العمل ؟ » .

فقلت سميحة : « آه ! قالت لى فى الآخر هاتى حاجة أقرأ لك عليها ثم خديها واعطيها له لياكلها فيفك العمل بإذن الله . فقلت لها إنه مسافر وبعيد جداً ، فقلت إنها تعرف ذلك ، فهاتى الحاجة أولاً وبعد ذلك تكون إرادة الله .

فوضعت نجية كفها على خدها واتكأت بكوعها على ركبتيها وقالت :
— ولكن أى حاجة ؟ ألم تفكرى فى شىء يصلح ؟

ووقفت سميحة وهى تقول بصوت أعلى قليلاً :

— لقد فكرت فى كل شىء ، وهل يربكنى شىء ؟

ثم مالت فوق أختها وقالت :

« فكرت أن أشتري شركولاته — صندوق كبير يصلح أن يكون هدية . أقدمه لها تقرأ عليه ثم أرسله فى البوستة إذا كان لا يزال باقياً فى الأقصر . فما قولك ؟ »

فدنت نجية يدها حتى لمست رأس أختها ومسحته وقالت بلهجة الإعجاب :

« يحرسك ربى من العين . يحرسك ربى من العين »

وتلفتت يمينا وشمالاً .

— ٢ —

قال الشيخ على لما سمع هذا :

« همهم ! شكولاته مسحورة ! تحبب فيها إبراهيم ! » .

واستوى قاعدا على السرير . وكان الشيخ على — على الرغم من

نشأته الأزهرية واختلاطه الدائم بالفلاحين والعوام وخرافاتهم وأوهامهم —

لا يؤمن بشىء من ذلك ولا يطبق الصبر عليه ، وقد هاجه أن عرف أن

زوجته أغرت أختها بالخروج خلصة فى البكور والالتجاء إلى امرأة سوقية

دجالة ، وأنها هدمت بذلك كل ما بناه التعليم الحديث ، وزاد غضبه

أن زوجته تتغفله وتدور من وراء خديعته وتلجأ إلى مثل هذه السخافات معتقدة أنها ستجديها وأنها ستحمل إبراهيم على الاقتناع بالتزوج من سميحة ، فهي إذن لم تعبأ برأيه ولم تكثرث لنصيحته ولم تحفل بما أمرها به من الكف عن محاولة التقريب بين إبراهيم وسميحة ، ولم تصدقه حين قال لها إن إبراهيم لا يطيق سميحة وأنه إنما يحب شوشو ، ثم هي لا يكفيها أنها حالت بين شوشو وإبراهيم ، وأنها رفضت وساطته وكان واجبها أن تطيعه ، وأن أطلقت لسانها بما أطار إبراهيم إلى الأقصر وهو موغر الصدر مهيب الكرامة ، وأن جعلت إبراهيم حقيقاً أن يعتقد أن الشيخ على لا رأى له ولا إرادة ولا سلطان له في بيته ، لا يكفيها كل هذا ، بل يجب أيضاً أن تتعلق بالسحر « والكتابة » وتجبر أختها معها ، وتعلمها هذا الكلام الفارغ وتغريها بهذه المساخر التي لا تليق .

وهز الشيخ على رأسه ، وهو يفكر في هذا ، ويتأمل ما صار إليه أمره مع زوجته من الفتور ، ومع سميحة من الكراهية والنفور ، وانشى خاطره إلى شوشو المسكينة التي لا صديق لها ولا معين سواه في هذا البيت ، والتي لا تبارح غرفتها مادام هو بعيداً عن البيت ، حتى حال لونها وغارت عيناها وتهضم وجهها وفقد جسمها نشاطه ولينه ومرونته .

ومضى .

فلم تدخل زوجته ، فقد صار لا يجب أن يراها وإذا جاءت إليه صرفها من غير أن يرفع وجهه إليها وأمرها أن تدعو الخادمة .

ودخلت الخادمة فقال وهو مطرق :

« شوشو » .

فخرجت في طلبها .

ودخلت « زوزو » ابنته وقالت :

— بابا .

— نعم .

ورفعها إليه وأجلسها على رجليه — فوق اللحاف . وقبلها .

— متى نذهب إلى أبي قير ؟

— اليوم .

— صحيح ؟

وصفقت يديها الصغيرتين ثم نهضت على ركبتيها وطوقته وأوسعته
في تقبيلها في عينيه وأنفه وخديه وأذنيه .

ونقرت شوشو على الباب ثم دخلت متثاقلة متحاملة تجر رجليها ، وعلى
شفتيها ابتسامة ليست في عينها فقد لها الشيخ على ذراعيه وقد فاض لها قلبه
الكبير بالعطف والحب فأسرعت إلى يمينه وأهوت عليها تلثمها ، فانتزعها
وهو يتكلف الابتسام :

— بل هنا . أسرعى فإن جلدة وجهي تأكلني .

فابتسمت له وقد شعرت بشيء من التسرية في حضرته ، وطبعت على
خده قبله بنوية صامته ، ثم مالت إلى زوزو وعانقتها ولثمها كأنها تفيض
عليها من ذلك الحب الدفين في صدرها المحبوس بين ضلوعها ، وأغرورقت
عينا الشيخ على وهو يراها وقد تعلقت كل منهما بالأخرى ، ثم رفع وجهه
إلى السقف وقال متمما : « الله يجازيك يا نجية ! » .

ثم ضبط نفسه وكبح عاطفته وقال :

— شوشو .

فلفتت إليه وجهها الساكن الحزين وقالت :

« نعم » ولم تزد .

فقال وهو يردعها زوزو :

— زوزو تقترح أن تذهب إلى أبي قير ونقضى بقية النهار هناك ، وقد وعدتها فما قولك ؟

فقلت : « أمرك » .

فقال وهو يميل نحوها ويكاد السرير يميل معه :

— أنت معنا ؟ قولى نعم .

ولكنها لم تقل نعم ، وإنما قالت كالمستغربة .

— أنا ؟ حاضر .

فأحس الشيخ على كأن بعض ضلوعه يتقصف من فرط التوجع لها ، على أنه ملك نفسه وقال :

— لا أراك يسرك هذا .

فقلت بلهجة من ينكر أن شيئاً يسره أو الساخر من أن فى الدنيا ما يسر .

— يسرنى ؟ أوه . لماذا لا يسرنى ؟

فلجأ الشيخ على إلى المزاح ليرفه عن نفسه وعن شوشو أيضاً وقال وهو يقلد فتورها ويبالغ فى التقليد

— لأنك تقولين « أنا ! حاضر ! » هكذا .

فابتسمت شوشو — بشفتيها فقط ، فقد خبا الضياء الذى كان فى عينيها ولم يبق لهما إلا ظلام العمق ، وقالت :

— ماذا كان ينبغى أن أقول إذن ؟

فمضى الشيخ على فى مزاحه وإن كان قلبه يتمزق وقال :

— لا تقولى شيئاً . كان ينبغى أن تقبلى على وتطوقينى بذراعيك وتقبلىنى هنا وهنا . هيه ؟

فضحكت ، ورنّت ضحكها فضيحة النبرات ، ولكنها كانت ضحكة

قصيرة وكأنما اختصرتها شوشو ، واستغربتها ، ولكن الباعث على الضحك لم يكن قد انقطع مع الضحكة ، فنظرت إلى ذراعيها ممدودتين أمامها كأنما كانت تقيسهما لترى أيكفيان لتطويق هذه « الدبة » ، وجمال برأس الشيخ على خاطر كهذا فقهقه ، فارتج السريـر وفزعت زوزو في أول الأمر ثم أدركت أنه إنما يضحك فتهافتت على اللحاف ودفنت وجهها بين طياته وهي تضحك مسرورة جذلة .

الفصل الثالث

((من هذه الطالعة من البرية ؟))

- ١ -

مضى أسبوع على إبراهيم وهو في الأقصر - وحده - لا يعرف أحدا ولا يعرفه أحد سوى موظفي الفندق الذين أفضى إليهم - كما هي العادة - باسمه ومهنته وما إلى ذلك ، حتى طعامه كان يتناوله وحده في أوقاته على مائدة صغيرة أصر على أن ينفرد بها على الرغم من ازدحام الفندق بالأجانب من كل أمة وبالمصريين كذلك ، وقد لفت الأنظار إليه إثارة العزلة وحرصه عليها وذهوله عن كل ما يجري حوله كأنه لا يرى ولا يسمع ، وإكبابه على القراءة والكتابة ، وعنايته بالآثار ، وقد التقى به كثير من النزلاء - رجالا ونساء - في معبدى الأقصر والكرنك وفي وادى الملوك ولاحظوا نفوره من الناس وشروء نظراته واستغراق خواطره له ، فلهجوا بأمره فيما بينهم وتلاغظوا بحديثه وهو غافل معرض عنهم كأنه ليس من بنى الإنسان ، وتساءلوا عنه ودفع الفضول بعضهم فسأل عنه كاتب الفندق فعلموا منه كل مدون في سجله - وما أقل ذلك - وما كادوا يعرفون أنه أديب وكاتب حتى استفاض الخبر وتجسم الأمر وصارت لإبراهيم شهرة واحترام لم يكن يدرى بهما في هذا الفندق ولو عرف الحقيقة لرحل للتو والساعة .

واتفق أنه كان عائدا مرة من وادى الملكات ، وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، فلما وصل إلى حيث التمثالان الكبيران قائمان بين الزروع ، حانت منه التفاتة إليهما فإذا على الحشائش فتاة مصرية الوجه ولكنها في ثياب أجنبية وقد مدت رجلها وأسندت ظهرها إلى قاعدة التمثال وحدثت في الأفق بنظرها ، فكبح البغل الذى يجرع عربته -

وكانت من النوع الذى يسمونه « السنكارة » وهى مركبة مكشوفة تسع اثنين على عجلتين عريضتين - ووثب إلى الأرض وقد طاف برأسه أن الفتاة متعبة وأنها تستريح ، وتقدم إليها وعرض عليها مركبته ، ولكنها شكرته ورفضت ، مؤكدة له أنها لامتعبة ولا تائهة وأن له أن يطهئن وأن يثق فى أنها ستعود سالمة .

وكانت الفتاة أقرب إلى الطول منها إلى القصر ، وكان قدما نحىلا ولكن جسمها ناضج ، ووجهها ظريف الحركة حلو التعبير ، وليس فى مظهرها ولا فى ثيابها ما يدل على العامية ، وكان لونها على سمرة رائقا صافيا ، ومع أنها كانت فى رأى العين صغيرة السن فقد كان فى سياها ما ينبئ أنها فكرت كثيرا وعرفت فوق ما يعرف أترابها ، وكانت معارف محياها دقيقة جميلة ، ولكنه محيا أجهل مافيه ما ينطق به ، ولعل السر فى ذلك أو الفضل فيه راجع إلى عينيها وفها ، فقد كانت انعينان عسلتين وأهدابهما طويلة ، ولم تكن العين واسعة ولكنه لم يكن فيها شيء من المكر ، وكانت إذا رفعتها فجأة بباعث من الدهشة أو السرور أو الغضب أو غير ذلك لا يسع المرء إلا أن يقتنع بجمالها وفتنتها ، وكان حاجباها كثيفين ومقوسين وجبينها واسعا عريضا يخيل للمرء أن لصاحبه ملكة شعرية ، وعليه من شعرها الأسود خصل ملتوية يعبث بها النسيم . ولكن أغرب مافيهما فها ، ذلك أنه لم يكن من الصغر بحيث يفسد تناسب الوجه وحسنه ، ولكن الشفتين كانتا حادثين حاسمتين باردتين ، وكان لونهما سريا ولكنهما لا تفران عفوا مع كل خاطر ، وإنما تتحركان بالإرادة . وفى هاتين الشفتين ، وفى صلابتهما على الرغم من لينهما ، شيء يجعل الفتاة تبدو أكبر مما هى فى الواقع ، فعيناها البراقتان العسلتان ، وخداها المستديران - هذه هى كل معارف الفتاة الصغيرة . أما جبينها وفها فتلك معارف المرأة التى خلفت الشباب وراءها ودبت بها الرجل بين وعور الحياة .

وشاءت الأقدار أن تمطر السماء فى ذلك المساء رذاذا ضعيفا بعد أن

ركب إبراهيم الزورق وهم صاحبه أن يدفعه إلى شاطئ الأقصر قبالة الفندق ، وقلما ينزل من المطر كثير أو قليل هناك ، فذكر إبراهيم الفتاة الجالسة فوق الحشائش المستندة إلى التمثال ، فأسرع إلى سائق المركبة وأمره أن يعود إليها ليقبّلها ، ومضى هو بزورقه دون أن ينتظرها. أو يفكر فيها بعد ذلك .

- ٢ -

دخل إبراهيم حجرة الطعام الفسيحة متأخرا في تلك الليلة ، وجلس إلى مائدته كمائدته من غير أن يلتفت يمينا أو شمالا ، وكانت الفتاة على مائدة أخرى قريبة منه ولكنه لم يرها ولعله لورآها لما حفلها ، وكان جائعا وألوان الطعام شهية والنبيد حسنا ، فأقبل عليه ياتهمه بشره غير معهود فيه ، ولما قارب الانتهاء طلب أن ترسل إليه القهوة في حجرة المطالعة ونهض .

وكان يريد أن يكتب رسالة إلى ابنه ، فتناول القلم فجري بضعة سطور به ثم توقف ، ثم أمسك وأبى - أى القلم - أن يخط حرفا . فقرا ماكتب وزاد نقطا هنا ووضع حرفا هناك . وأنه لكذلك وإذا بالخدام يضع أمامه صينية عليها إبريق فيه القهوة ، وإلى جانبها فنجانان ، وخرج الخادم رابراهيم يفكر في رسالته التي استعصت كتابتها عليه فجأة ، ثم هم بأن يصب القهوة فرأى الفنجانيين فصدّه هذا ، وخطر له أن الخادم ربما كان قد أخطأ وجاء بقهوة سواه ، ثم قال لنفسه « سيرجع الآن بعد أن يظن إلى خطئه » ورح ينتظر ، ولكن الخادم لم يرجع ومضت دقائق خملت إليه أطول مما هي ، وخاف أن تبرد القهوة وتفسد ، وهو يحبها حارة ، فقال لنفسه « أنظر في إبريقها فإن كان مافيه قليلا فهو لي وحدي وإن كان كثيرا فلا شك أن هناك خطأ » وتناول الإبريق ورفع الغطاء فإذا به ملآن .

ولما رفع وجهه عن الوعاء التفت عينه بعين الفتاة التي صادفها في الطريق

وأرسل لها المركبة ، فارتد إلى الوراء ، وكاد الإبريق الصغير يسقط من يده ، لكنه استطاع بجهد أن ينهض والإبريق بين أصابعه وقال :

« لقد كنت أنظر في الإبريق هل مافيه لواجد أو لاثنين » .

فنظرت إليه مستغربة ، ثم رأت الفنجانيين وابتسمت وقالت :

ما أغباه ! لقد أمرته أن يرسل لى القهوة هنا ، فاختصر المسألة على ما يظهر ! وقد انتظرت كل هذه المدة ؟ » .

فقال إبراهيم : « لقد كنت أفحص الإبريق الآن . وكان ذلك أشبه بالمقامرة ، فإذا كانت القهوة لواحد أهملت الفنجانة الأخرى ، وإذا كانت لاثنين انتظرت » .

فابتسمت مرة أخرى وجلست قبالتها فقال :

— بسكر ؟

فقالت : « كلا ! لقد كنت أريد أن أشكرك » .

فقال مغالطا : « على الانتظار ؟ » .

قالت : « كلا . بل على .. » .

فقال مقاطعا وقد أدرك مرادها :

— على أنى لم أشرب القهوة كلها ؟

فابتسمت مرة ثالثة وقد راقها أنه يحاورها فرارا من الشكر وقالت :

— ألم تمر بى اليوم عائدا من وادى الملوك ؟

فقال : « نعم . برغمى ! »

ففتحت عينيها جدا وقالت : « برغمك ؟ » .

قال : « لقد أردت أن أعرف لماذا تجلسين عند التماثيل على الحشائش

فى المطر ؟ أتسمحن لى أن أدخن » .

فأذنت له بابتسامة ، وفتحت حقيبتها وأخرجت منها علبة سجائر مذهب ،

وقالت بعد أن أشعل لها السيجارة :

-- ولماذا لا أجلس هناك .. في المطر ؟
فقال : « لا أدري ، سوى أنى لا أعرف أن الناس يحبون التعرض
للمطر ، على أنك لم تكونى تعرفين أنها ستمطر » .
فقالت : « هذا صحيح . ولكنى أحب المطر . ما أقل من يحبونه
أو يذكرونه بالخير . والفلاحون ..
فقال : « إنه فى مصر دائماً ، إما أكثر من اللازم وإما أقل من
اللازم » .

فقالت : « إن المطر يعبد فى بعض البلاد » .
فقال وهو يرسل الدخان ولا ينظر إليها :
— إن ذلك يتوقف على المطر .
فقالت : « ماذا تعنى ؟ » .

قال : « هل يفيد الأرض خضرة أو يفيد الإنسان الرمازم .
أما أنا فأصارعك أنى أحب أن أنظر إليه منهما — ولكن من وراء
زجاج النافذة » .

وكانا قد شربا القهوة — باردة — فهضا وذهبا يتمشيان فى حديقة الفندق
الواسعة والناس ينظرون إليهما فى دهشة ، كأنما استغربوا أن يروا إبراهيم
ومعه إنسان ، والتفتت إليه فجأة وقالت :

— لقد كنت أفكر ..

فقال : « وأنا كذلك .. »

فضت فى كلامها من غير أن تعباً بمقاطعته :

— كنت أفكر فى أنك أقل الناس فضولاً أو أكثرهم عدم مبالاة .

فقال : « أنا ؟ ربما ! أعنى أنى حقيقة لأبألى سوى ما أنا فيه ، ولا يجاوز
فضولى ما تأخذه عيني » .

فالتفتت إليه لتبين فى وجهه هل يتكلم جاداً أو هو يريد أن يثنى

عليها ضمنا ، ولكن وجهه كان خاليا من كل أمارات المزاح فصنت
هنية ثم قالت :

— لقد كان ينبغي أن تسألني عن السبب . ان المرأة حين تتهم
الرجل بقلّة الفضول أو قلّة المبالاة يكون معنى هذا أنها تريد أن تخبره
بشيء .

فقال : « أهذا صحيح ؟ » .

فهزت رأسها أن نعم ، وخيل إليه أن هذه الهزة قد رفعت ما بينهما
من الكلفة .

وقال : « إذن أرجو أن تخبريني » .

فقالت : « إنك تتعب المحادث — لا تنهر فرص الكلام التي يتيحها لك » .
وابتسمت ، فقال :

— ولماذا ترينني رجلا عاديا جداً ؟

قالت : « لم أقل ذلك ، إنما قلت إنك قليل الاكتراث ، قليل
الفضول » .

فقال : « ولماذا ؟ أعني أرجو أن تذكر لي السبب » .

قالت : « ألم يخطر لك أن تعرف من أنا ؟ »

فقال بلهجة الجد : « ولكنك عابدة المطر . فإذا أريد أن أعرف
فوق ذلك ؟ » .

فضحكت وهي تقول :

— لكن أبي لم يسمني هذا الاسم !

فقال : « إن آباءنا لا يعرفوننا كما نحن » .

فهزت رأسها موافقة فقال :

— إذا كنت تحبين أن أعرف من أنت ، فما عليك إلا أن تخبريني .

فقالت : « إذن أنت لا تعرف اسمي » .

فقال : « لا أعرف الاسم الذى اختاره لك أبوك » .

فقالت : « اسمى .. اسمى .. ليلي .. » .

فقال : « اسم جميل ولا شك .. ليلي .. نعم ، ولكنى أرجو أن تظلى عابدة المطر ؟ » .

فقالت : « لماذا ؟ » .

قال : « أخشى .. أخشى أن أصبح أنا المجنون » .

فضحكوا . وعرفها بنفسه وهما راجعان إلى الفندق .

الفصل الرابع

« أن تكن سورا فنبني عليها برج فضة
وان تكن بابا فنحصرها بالواج أرز »

— ١ —

بدأ ابراهيم يلاحظ أن الناس — ونعني النازلين في الفندق يتبعونه بنظراتهم ؛ وان رموسهم تتداني حين يظهر في مدخل الفندق أو على سلم الحديقة ، فظن ان معرفته بلبلى هي التي يرجع إليها اكثر انهم له والتفاتهم اليه ، وصافح مسمعه كلمات من هنا وهناك تبين منها ان نزول هذه الفتاة في الفندق حادثة ، ولكنه لم يستطع ان يفهم لماذا ، لأنه لم يكن يعرف عنها اكثر من ان اسمها لبلى وانها سارت على الأيام تصحبه في روحاته وغدواته .

ومن العسير ان نقول ماذا كان احساس ابراهيم نحوها على الدقة فقد كان يجد في محضرها روحا وايناسا ، ويحس ان الوحشة قد زابت عنه ، ولكنه لم يكن يشاقها حين تغيب ، وكان ربما قضى النهار كله وحده فلا يفتقدها ، حتى اذا التقى بها شاع في نفسه السرور ولم يعن هو بأن يحلل عواطفه ، لأنه على الأرجح ، لم يشعر بالحاجة الى ذلك ، ولم يحس بأن لهذه العواطف الحاحا او ضغطا ، وكل ما هنالك ان وقدة نفسه كانت تهدأ حين يراها ويحادثها وان الاضطراب الذي في صدره كان يسكن ، وان ألسنة الهوائف كانت تنقطع ، وان النجاوى كانت تخفت ، وانه كان كالذي صهرته الشمس ورأى شجرة قنواء فال إليها يستروح في ظلها ..

وراق ابراهيم بعد ان فطن الى اهتمام الناس بلبلى ان يلاحظ مظاهر

ذلك . وان كان قد ظل عاجزاً عن تعليل هذا كله ، لأن الفتاة مصرية وأكثر
النزلاء أجنب على أن الأجانب كانوا محتشمين في التفاتهم إليها . وكان الأمر
لا يعدو التهامس والنظر — خلسة على الأكثر — أما المصريون فكانوا أجراً ،
وكان أمرهم معها يشبه المطاردة وقد رأى ابراهيم أحدهم مرة يعترض
طريقها ويخرج من جيبه منديلاً فسقطت ورقة نقدية من فئة الخمسة جنيهات
كأنها كانت في هذا الجيب مصادفة ، أو كأنما صاحبها قد نسيها فيه ، فسارت
ليلي في طريقها وداست الورقة بحذائها كأنما كانت بعض ما في البساط من
النقوش ولم تعر لا الورقة ولا صاحبها أدنى نظرة .

وفي مرة أخرى كانت ليلي تتكلم على التليفون فاندفع شاب إلى غرفته
وفتح بابها ولما رأى ليلي شرع يعتذر اليها ، كأن ما وقع منه كان عفواً ،
ولكن ليلي مضت في حديثها على التليفون وكان الباب لم يفتح وكأنما لأحد
في مدخله يكلمها معتذراً متأسفاً .

وكان هناك آخر لا تجلس ليلي في مكان إلا دار به ينظر حوله باحثاً
عن شيء كأنما من خواص ما يفقد أن يكون على مقربة من ليلي .

ورجل آخر في سن الكهولة كان يخيل لإبراهيم أنه يتحين فرصة ليخلع
طربوشة ويضعه على الكرسي الذي تهم ليلي بالعود عليه ، ليجرها إلى الاعتذار
أو إلى الاصغاء اليه وهو يعتذر لها . وهكذا ..

وعنى ابراهيم بأن يحصى هؤلاء المصريين الذين يتحركون بليلى ،
فعد منهم تسعة عشر ، فأطلق عليهم رقهم ، وسماههم التسعة عشر
وكانوا جميعاً تنقصهم شجاعة الإقدام على مخاطبتها ، أو لعل الأصح
أن الشجاعة لم تكن تعوزهم ، ولكن شيئاً في وجه ليلي وهيشها كان
يصددهم ويزجرهم ، فقد كان في هيشها احتجاز ، وعلى وجهها وقار
مستغرب ممن هي في مثل سنها ، وكان الناظر اليها لا يسعه إلا أن يحس
ذلك .

ومن غريب ما حدث أن فرص التعرف بالمصريين كثرت فجأة بعد

أن نزلت ليلي في الفندق وصاحبت ابراهيم ، فلم يمض يومان حتى عرف ابراهيم مواطنيه جميعا وصار له بينهم احترام لم يعهده من قبل فإذا دخل الصالون ، ألح عليه كل من يكون موجودا منهم أن يجلس مكانه ، وكثر عرض السجائر عليه وتقديمها اليه والتبرع باشعال الكبريت له ، وكان هو يعجب لهذا في أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن عرف السر لما تعددت الأسئلة عن ليلي ، فعلم أنه ليس محترما لذاته وأن مجده مستعار ، والضوء الذي عليه منعكس عن تلك المرأة .

وفي رابع يوم لاتصال ابراهيم بليلى ، كان عائدا قبيل الظهر من حديقة الفندق فقابلها على السلم فقال لها وهما يعودان الى الحديقة بعد كلام متقطع :

— اسمحي لي أن أؤكد لك أني لا أريد أن أثقل عليك بوجودي ، ولكني أحب أن أسألك كم ساعة في اليوم تستطيعين أن تتحملي ظلي ؟

وكان يتنسم ، وفي وجهه ما يدل على أن للسؤال غرضا آخر وأنه ليس سوى تمهيد لسواه ، فقالت وهي حائرة عاجزة عن التكهّن فقد ألقت منه اللف والمحاورة والمفاجأة .

— اني هنا كما تعلم وجدى .

فقال وهو ينكت الأرض بكعب خذائه أثناء السير .

— إن هذا لا يكفي ، ثم أنه نخبّر لاجديد فيه فهل لك أن تجيبني ؟
فقال بلهجة رقيقة .

— ألا تختصر الطريق وتفضي الى الغرض من السؤال ؟

قال : « حسنا . سأفعل . اني أريد أن أختار أحد الشرين ؟ » .

فرفعت حاجبها مستغربة وفتحت عينيها جدا وقالت :

— أحد الشرين ؟

فابتسم وهو يقول : « معذرة . لقد كنت أريد أن أقول ان عليك أنت أن تختارى أحد الشرين » .

قالت : « هذا أبعث على الدهشة . أى شرين ؟ » .

قال : أنا أو التسعة عشر » .

فرددت قوله « أنت أو التسعة عشر ؟ ماذا تعنى ؟ » .

قال : « نعم . فإن فى وسعنى أن أدخن كالمدخنة ، وأن أسبح فى الخمر كالسمكة ، وأن أكل وأنام مابدا لى — كل ذلك من غير أن انفق مليا » .

وسكت فقالت : « كيف ؟ وما علاقة هذا بسؤالك ؟ » .

قال : انتظرى ، ولكن هذا يكلفنى جهدا اذا كان لا يكلفنى مالا واخلق بالمدخنة ان ينقطع مددها ، ويبحر الخمر ان يجف ، وبالموائد ان يطير عنها كل ما عليها من الإلوان اذا لم افعل ما هو متوقع منى فى نظير ذلك كله . . . اعنى بعبارة صريحة اذا لم اعرفك بالتسعة عشر ! » .

فصاحت « ما افظح هذا ! »

قال : « لا تفزعى . فلن افعل شيئا من هذا . ولكن هنا تسعة عشر مصريا يريدون أن يعرفوك . . لقد عددتهم . . واحدا واحدا . . وهناك غيرهم ولكنهم — معذرة — لا يعباون بك . . فإذا عرفوك . . .

فقاطعتهم صائحة « لاتم هذا الكلام . . ارجو . . من فضلك »

قال : « اذن فلنتعاهد » .

فصمت قليلا ثم قالت « نتعاهد ؟ »

فقال : « نعم نتمشى معا نحو ساعة كل يوم هنا او فى اى مكان آخر تختارينه وفى مقابلة ذلك اتعهد بأن لا اعرفك بأحد من التسعة عشر » .

فأطرقت هنية كأنما تفكر وقال وهو يستحثها :

— اختارى أخف الشرين : انا واحد وهم تسعة عشر .

فقلت : « لا بأس . قد قبلت المعاهدة . ولكن يجب ان تقينى هؤلاء
(وضحكت) التسعة عشر !
قال : « لا تخافى . سأشترى مدفعا رشاشا اذا احتاج الأمر الى
ذلك » .

- ٢ -

وانتقلت بعد ذلك الى مائدته وصارا يتناولان الطعام معا ، وتوثقت
اواصر الصداقة بينهما وصارا لا يفرقان الا ليستريح كل منهما او ينام في
غرفته . غير انه بقى لا يعرفها الا باسم ليلي ، وهى لا تعرفه الا باسم ابراهيم ،
والغريب انه لم ينشأ ما يشعرهما بالحاجة الى استيفاء الاسماء ، ولم يعرض
بينهما ما يدعو الى التحدث عن الماضى وكانا ينتزهان ليلة فى النيل فى زورق
فقلت وهى مدلية يدها للماء :

- الى اكره الرجال .

فضى ابراهيم ولم يجب كأن الأمر لا يعنيه والخطاب ليس موجها
اليه ، فالتفتت اليه وعلى شفيتها ابتسامة عذبة وقالت :

- احسبني اسأت الأدب ؟

فقال : « كلا وانى لأعذر لك كلما ذكرت التسعة عشر - واعطف
عليك ايضا » فالتمعت فى عينيها نظرة خبيثة وهى تقول :

١ - من حسن الحظ ان الرقم لم يبلغ العشرين .

فقال وعينه الى السماء ، وعلى وجهه آيات الدهول :

- من يدري ؟ على أن الواحد المتمم للعشرين . .
وسكت .

فسألته وهى تدنو منه :

- لماذا تقول من يدري ؟

فأرسلها ضكحة مفرقة وقال : « وهل في الدنيا من يدري شيئا ؟
قد يكون مذهب المرء واضحا والطريق أمامه ظاهرا ، ولكن الغاية
التي يصل إليها بعد الجهد والعناء من الذي يستطيع أن يقول أنها هي التي
كان يقصد إليها حين أخذ الطريق » .

وأحس أن كلامه فيه من الجدة أكثر مما ينبغي فقال : « وليس لنا
إلا الحاضر ياليلي ، والواحد الذي يمكن أن يصبح متمما للعشرين مصمم
على إغتنام الحاضر الذي هو فيه » .

ولم يعودا يريان الفندق و (المعبد) ، والقمر يريق ضوءه على
صفحة النهر ، والنسيم البليل يصافح خديهما . وأخذت الأقصر تنأى عنهما
وتغيب في الظلام كأنما أسلمتهما إلى النهر الخالد . وتناول ابراهيم المجذافين
بعد أن استراح قليلا ، فضرب بهما الماء فانطلق الزورق يشقه ويعوم
على ضوءه مخلفا وراءه خطا طويلا . .

فقالت ليلي ، وقد أحست فجأة أن قوة لانتخاب قد استولت عليها
واستبدت بها :

دعني أجذف فإني أحب ذلك .

فابتسم وقال : « اذن فاجلسي أمامي . . هنا . . »

ونهم هو ووقف في وسط الزورق ، ومد إليها يده ليساعدها على الخطو
وجلست تجذف ، ولكنها كانت تخالط ، وتضرب الماء خفقا خفيفا
بمجداف بعد مجذاف ، وكان ضربها ، لحفته على وجه الماء ، فكان
رشاشه يطير إلى ابراهيم فيضحك والزورق يضطرب ويميل كل ميل ،
وهكذا سبحا على متن النهر ، والقمر يرسل أشعته على وجهها الأحمر
الصفافي ، وحاجبيها الكثيفين السوداوين وعينيها الضيقتين الברاقتين ، فخيّل
لإبراهيم وهو قاعد أمامها أنهما مقبلان على أرض مسحورة منعزلة عن
الناس خارجة عن دائرة القانون والعقل أيضا .

وقالت ليلي وقد أراحت طرفي المجذافين على ركبتيها :
« ما أجمل هذه الليلة ! » .

فقال ابراهيم بصوت خفيض ولكنه متهدج :
« نعم . اليس كذلك ؟ » .

فانفجرت ضاحكة وقالت وهي ترد قبعتها عن وجهها إلى رأسها :
« هل تعلم ؟ انى . . »
قال « ماذا ؟ »

قالت : أحس برغبة ملحة فى أن أخلع هذه القبعة والقيها فى الماء وأرسل
جسم شعري — أرسلها للنسيم والقمر » .
فقال ابراهيم فى لهجة فيها من الحزن نبرات :
« اذن فافعلى » .

ولكنها صمتت قلقة ، ولم تستطع ان ترسل نفسها على سجيتها فقال
إبراهيم :

« أنك تخجلين ان تطيعى رغباتك ، وليس خجلك لاني معك وانى
أرى ما تفعلين ، فلو كنت وحدك لما اجترأت ان تطلقى لنفسك العنان ،
وانه تفعلين ما يهتف به جسمك ، لأنك كغيرك — مثلى ومثل الناس جميعا —
تؤثرين أن توهمى نفسك انك فوق الحياة وفوق دواعيها وان كنت تعلمين
فى أعماق سريرتك انك لست إلا مظهرا ضئيلا من مظاهرها ، وان
كل مقايمة منك لطبيعتها وسننها الخالدة واحكامها المبرمة التى لا مفر منها .
مجلبة للشقاء والألم . لماذا تحمين الخجل والعار من رغباتك الطبيعية ؟ لماذا
تخفينها ؟ ان القوى المحبوسة فى النفس تتطلب منفذا ، والجسم ينشد السرور
واللذة ويتعذب من جراء صده وحرمانه » .

فقالت ليلي : « نعم . نعم » .

وغزت رأسها كتائب من الحواظر الجديدة ، ونلفتت حولها ، وعينها

تضيء ، وتغلغل إلى اعماق نفسها جمال الليل والقمر الساهم وحسن النهر
الجارى بين القفار الحاملة ، ولج بها الشوق إلى تجربة القدرة على افادة
السرور بلا خجل او تردد .

ومضى ابراهيم في كلامه فقال « انى أحلم — حلم فقط مع الأسف —
بعصر لا يحول فيه بين الإنسان وسعادته ، عصر يستطيع فيه أن يباشر حريته
اننى لا تعتدى على حرية سواه ، عصر يستقطر فيه ويعتصر من الحياة كل متعها
في جرأة وحرية » .

فسأله : « ولكن كيف يكون ذلك ، أنرجع إلى الهمجية الأولى ؟ »
فقال : « من قال ذلك ؟ كلا . ذلك كان عصرا سخيفا ، ولم يكن
الإنسان فيه يقدر حريته أو يعرف قيمتها او حدودها فكانت الحرية فوضى
وكان هو لا يستحق الحرية التى لا يفهمها ولا يحترمها ولا يحس الاستمتاع
بها ، وعصرنا الحاضر ايضا سخييف ، لأن التقاليد الخاطئة تتحكم في
العقل تحكمها في الجسم ، ولأنه تنقصه الهمة والذكاء والرشد . وإنما أحلم
بعصر لا يستنحى الإنسان فيه من نفسه ومن غرائزه المهدبة ومن مطالب هذه
الغرائز ، لا ينجل ان يرمى طربوشه اذا شاء ذلك وان يمشى عارى الرأس
إذا احس ان هذا أكفل باشعاره الغبطة والروح ، ولا ان يثب في الطرقات
ويرقص في الشارع او يجلس بشيابه الأنيقة على الحجارة او التراب اذا
اشتهى هذا ، لأن الوثب والرقص والجلوس على التراب لا يضير احدا » .
فسأله بلهفة كأنما خافت أن يسترسل من غير ان يعرج على ما في
رأسها :

— ولكن ماذا عن الحب ؟ إلا قيودا له يفرضها علينا ؟

فاكفهر وجهه ولكنه ضبط نفسه بسرعة وقال :

الحب يفرض قيودا ؟ لماذا ؟ ليس الحب هو الذى يفرض القيود علينا
يا فتاتى وإنما هي الغيرة ، اتفهمين ؟ انها الغيرة ! وليست الغيرة وحدها
هى التى تفرض القيود ، بل فضول الناس أيضا وتدخلهم فيما لا يعنهم ،

ونخوفنا من فضول الغير ، ذلك الفضول الذى نعبّر عنه برأى الناس فينا ..
ما دخل الناس فى حجبى وبغضى وهو شئ يعينى وحدى دونهم ؟ لماذا نخاف
رأى الناس أو فضولهم ؟

فقال لنفسها « لست أشعر بأى خوف الآن وأنا معك » .

ونظرت الى ابراهيم كأنما تراه لأول مرة ، واستغربت أنها تحسه قويا
طاغيا وان كان فى رأى العين ضعيفا يابس اللحم على العظام ذابل الشفتين ساهم
الوجه . وانكشف لعينها ، وهى تنظر الى ابراهيم ، عالم بأسره من القوى
الزاحرة والعواطف الفائرة ، فهل تدخله ؟ وابتسمت لهذا السؤال ، وارتجفت
أيضا وهى تتخيل هذا العالم الذى تفتحت أبوابه لها . وكأنما أعدته بخاطرها
أو أوحته إليه ، فأسرعت أنفاسه هو أيضا فصار يلهث كأنما كان يجرى .
ولكنه كبج نفسه وتناول المجذافين وأهوى بهما على الماء يضربه بسرعة وقوة ،
فانطلق الزورق يفرق الماء ، وصار خريره منغما فى مسمعهما ، واقتربا من
الشاطئ الغربى فأراح ابراهيم احد المجذافين وضرب بالثانى فمال الزورق .

وبلغا الشاطئ ، فوقفا ، ووثب ابراهيم أولا ، ثم مد يده لليلى فوثبت
إلى جانبه ، ولكن الوثبة إلى أرض غير مستوية أفقدتها توازنها فمالت إلى ابراهيم
وأمسكت بكتفه ووقعت بين ذراعيه . وطال التصاقها به على غير قصد منها أو
منه فاندلعت النار فى دماثها وخرجت من بين شفتيها آهة دهشة وسرور حارة
واحتضنها وشد عليها ، ومادت الأرض بهما وغامت الدنيا فى أعينهما ، وهمست
فى أذنه وهو ينحنى بها على دهن الشاطئ « ماذا تصنع ؟ دعنى بالله ! »
ولكن الصوت كان خافتا والأنفاس كانت سريعة ، وصدرها كان يعاو
ويهبط ويبغى صدره . . ولم يكن حولهما إلا الليل الممطر وإلا رائحة النهر
والأعشاب البايلة على حفافيه ، والا الجو يسخن تارة ويبرد أخرى وسكون
عميق ، وفقد كلاهما وعيه ، وتراخت أعضاؤهما بعد قبلة طويلة اعتصرا
فيها كل ما فى دماثهما من نار .

الفصل الخامس

كَلَّتْ عَيْنِي مِنَ الْحُزَنِ ، وَأَعْضَائِي كُلُّهَا كَالظِّلِّ
« يَوْجِدُ بَاطِلٌ يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ أَنْ يَوْجِدَ
صَدِيقُونَ يُصِيبُهُمْ مِثْلُ عَمَلِ الْإِثْرَارِ »

— ١ —

رسالتان بعثت بهما شوشو إلى إبراهيم ، ومضت الأيام ولم تتلق عليهما ردا ، وثالثة أنبأها الشيخ على أنه كتبها إليه ، ولا جواب أيضاً ، فما معنى هذا ؟ أمكن أن يتلقى إبراهيم رسائل منها وأن يهمل الإجابة عليها ويدعها تمزق قلبها ؟ لم تعهد شوشو في إبراهيم هذه القسوة ، نعم فيه جفوة ولكن لمن يكره ، وإنه لقاس ولكن على نفسه حين يريد أن يحكمها ويردها على مكروها ، وما ألفت منه شوشو إلا الحنو والرقّة والترفق بها حتى في ساعات ثورته وغضبه ، وهل تنسى ليلتهما على سطح البيت ، وكلاهما يعلم أن لا أمل هناك وأن الفراق لا محالة غدا ؟ ألم يعاطها الحب صرفا ؟ ألم يكن أحنى عليها من أمها ؟

ولما جاء الغد ودعها وحدها دون أختها ، حتى الخدم لم ينس أن يصافحهم واحدا واحدا وهو يبتسم ويمزح ، ولم يتجهّم وجهه إلا حين دعاه الشيخ على أن يسلم على نجية . حينئذ فقط عبس وقال : « قد خلعت ثوبي فكيف ألبسه ؟ قد غسلت رجلي فكيف أوسخهما ؟ » ولم يعبأ حتى بشعور الشيخ على ولم يحفل أن نجية زوجته ؟ فالذنب ذنب نجية وسميحة ، وسخط إبراهيم عليهما وحدهما ومقته لهما ، فكيف يعقل أن ترد إبراهيم رسائلها فلا يرد عليها ؟

لا بد إذن أن يكون إبراهيم قد زایل الأقصر ورحل عنها إلى أسوان أو إسنا أو غيرها ، بل هذا هو المحقق ، فما يستطيع إلا أن يعمل كل مكان

ليس على هواه ! ولو كان يسعها هي أن تنتقل مثله لما أطاقت الإقامة في مكان
 واحد إلا أياماً قليلاً ، ولو كانت تذهب من بلدة إلى بلدة ، لعل الثقل
 يفيد سلوى ! آه ليت هذا في وسعها ! إذن لأمكن أن تتجمل بالصبر :
 إذن لمان عليها أن تحتل التزيق في صدرها ، والاظافر التي تقطع قلبها ،
 والنار التي تندلع في عروقها وتصلبها الجحيم في الدنيا ! إذن لنجت من
 رؤية أختها كل يوم . كل ساعة . كلما شاءتاها أن تراهما لا كلما شاءت
 هي ! إذن لما اضطرت أن تحتل ما تكايدها به أختها سميحة التي سارت
 في عرس تلبس كل يوم معرضاً من معارضها تتجلى فيه ، ولا تدع شيئاً
 من زينتها وحليها الالبسته وبدت في حفلة وفي عينيها سرور تلتمعان به ،
 وفي قلبها حبور ينضح به وجهها هو سرور الشماتة وحبور الانتصار
 والفرجة بالخيبة التي منيت بها . وهي أختي ! بنت أمي وأبي وأنا وهي
 من دم واحد ، وقد انحدرنا من أبوين إثنين ! من يصدق ؟ بماذا أسأت
 إليها ؟ أي شيء جنيته عليها ؟ ما ذنبي أنا إذا كان إبراهيم لم يحبها ؟ نعم ،
 أنا أيضاً أحبه ولكن هذا ليس من ذنوبي لديها ، فما أرى حبي له قد نفعت وإنما
 ذنبي لديها إنه يحبني . وذلك ما لا حيلة لي فيه لو أن لي حيلة في نفسي ولقد
 جاهدت — علم الله — أن أصرفه عن طلبي وعن التقدم إلى أختي ، ولكنه
 لم يسمع لي ولم يعبا بي ، وليته كان قد أطاع إذن لأمكن أن أصبر ، واثقة
 أنه يحبني راجية أن يجيء يوم يقر فيه البعيد ويسهل فيه الصعب أما الآن
 فلا أمل لا أمل ! حتى ولا في سطر منة أنعزى به . يا لهول الظلمة الراكدة
 التي تحف بي وتجم على صدري وتخنقني ! ظلمة لا يضطرب فيها خيط
 ضئيل من النور ، ظلمة متحجرة لا ينفذ منها شعاع واحد من الأمل !
 ولا بد لي من احتمال أختي هاتين . أختي بنتي أبوي ، أختي اللتين
 قضتا علي ، وسحقنا نفسي وخنقنا قلبي — لماذا ؟ لماذا ؟ وارتمت على السرير
 وبكت ، وراح كيانه كله يهتز ويرتجف وامتدت كفها إلى شعرها المرسل
 فشدته كأنما أرادت أن تقطعه ، وصرفت أسنانها وهي تحاول أن تملك
 نفسها وزجر عينيها عن البكاء ثم أستوت قائمة وهي تقول « لماذا ؟ لماذا ؟ »

ونقر الباب قفزعت إلى المرأة فطالعتها في صقالها وجه محتقن وعينان منتفختان من البكاء وشعر منفوش فذعرت وأدركها العطف على نفسها ، لم تدرك ماذا تفعل ولكنها أسرعحت إلى القلة فأخذت منها ماء في حفتها مسحت به وجهها وعينها وتناولت منشفة ومضت إلى الباب تفتحه .

لم تخدع المنشفة والماء عين الشيخ على ، فتناول كتفها بين يديه وهو يقول لها بأرق لهجة وقلبه يتفطر :
« هنا إلى جانبي على السرير » .

وتولى هو عنها مسح وجهها بيمنه بينما كانت يسراه تربت لها على كتفها اليسرى ، ثم أسند رأسها إلى صدره وجعل يمسح لها شعرها بكفه الكبيرة ويسويه ويرقده ، واستراحت هي إلى ذلك فتركت رأسها كالطفلة على صدر أبيها ، ولكن الشيخ على لم يستطع أن يحبس حنوه الفائض فأغرورقت عينه وسقطت دمعة على جبين شوشو — حارة حامية ، فانتبهت ورفعت رأسها فأخذت عينها الدموع المترقرة في جفنيه .

هذه الدمعة — هذه القطرة التي نزلت على جبينها — كانت لشوشو عزاء جميلا ، أدهشتها وأفرحتها وأحزنتها أيضاً ، وكانت على النار التي في قلبها بردا واشعرتها شيئاً من السلام والسكينة فنسبت نفسها لحظة ، وذملت عن آلامها هنية ، ولم يبق أمامها إلا هذا الرجل الضخم يبكي لها ويستعبر من أجلها ، وقلبه الكبير يحنو عليها ويتوجع لها ، فدهشت كما يدهش المرء أن يرى جبلاً يقتلع وفرحت بعطفه وتحننه ، وإن كان لا شك عندها في رثائه لها ، وأحزنها أنه يتألم ، وليست بنته كزوزو ، وأكبرت منه رقة قلبه ومروءة نفسه ، فهضمت وتناولت وجهه الكبير بين يديها الدقيقتين وطبعت بين عينيه قبلة شكر صادقة .

وقال الشيخ على وهو ينهض : « زوزو تنتظرنى فالحقى بنا » :
ونخرج وتركها تصلح من شأنها .

لم يكن أغرب من منظر الشيخ على وبنته زوزو ، وهما يتقاذفان كرة صغيرة من المطاط وزوزو تحاوره بها وتلقيا إليها في حيث لا يكون إلى اليمين جداً إذا كان هو إلى اليسار ، وإلى اليسار إذا كان هو إلى اليمين ، أو تقذفها عالية فيتطاع إليها مترقباً هبوطها ليلقها فتتسلل هي وتكون إلى جانبه فإذا دنت الكرة منه في سقوطها ، صاحت به « ايه » ودفعته بيديها وفي ظنها أن تقلقله ! وهو يلهث من الجرى ، إلى كل ناحية وينفض عرقه وإن كان الجو بارداً ، ويخجل أن يقول لابنته « تعبت » ويعز عليه أن يخيب أملها فيه فيغالطها ويقترح لعبة أخرى لا تكلفه جرياً ولا تتقاضاه وثباً ، وهي تصر على الكرة وتروح تدب برجليها على سبيل التأكيد أو الخوف من أن لا يوافقها ، وتقول بسرعة كأنما تريد أن لا تدع له فرصة للكلام والاعتراض ، ووجهها مرفوع إليه حتى لتكاد تقع على ظهرها .

— لا يا بابا ، لا يا بابا ، الكورة أحسن ، ماليش دعوة ، أنا مالى تقف هنا وأنا هناك ، لك على ما احذفهاش بعيد ، بشويش ، هيه ؟ أعمل معروف .

ولكن الحظ كان موافقاً لأبها فقد ظهرت شوشو على رأس السلم وراها الشيخ فنجأ وفرح بنجاحه ، وبهذه الفرصة للخلاص من غير أن يحتاج إلى أن يؤلم ابنته برفض رجائها وتوسلها فأنحنى عليها وتناولها ورفعها إليه بلا جهد وقبلها وأدار وجهها إلى السلم وهي معلقة بين يديه في الفضاء وقال :
— خالتك شوشو .

فصفقت زوزو ، ونسيت كرتها وتوسلاتها وسرورها الذى كانت تفيده من رؤية أبها الضخم يعدو ولا يدرك الكرة ، ويلهث من هذا الجهد واحدى يديه على وجهه يمسح بها العرق المتصبب والأخرى ممدودة لتلقف الكرة ، وإن كانت لا تزال بعيدة — نسيت ذلك كله لما رأت شوشو خالتها

فونازمتها نفسها أن تجرى إليها وأن تستقبلها عند السلم ، فراحت تحرك رجلها في الفضاء بسرعة وتحاول أن تتخلص وتنظر إلى الأرض فتراها بعيدة فتناشد أباه أن ينزلها ، وهو يعايبها ، ويدعي أنه يطيعها فيدنو بها من الأرض حتى إذا كادت تلامسها قذفها في الهواء وتلقفها بيديه ، وهي تصيح وتصرخ وتضحك أيضاً .

وصارت شوشو قريبة منها فالتفتت زوزو إلى أبيها وقالت :

— وحياة خالتي شوشو .

فوضعتها على الأرض في رفق ، وابتسمت شوشو وقد سرها هذا الدليل الصغير على سمو منزلتها عند الشيخ على ، وأن زوزو الصغيرة تعرف هذا وتدركه وحننت عليها تقبلها ، ثم همت بان تعتدل وتستوى واقفة ، ولكن زوزو دفعت ذراعها فجأة وطوقت عنقها ، فلانت لها شوشو ، وتلقت قبالتها الحلوة على شفثها ونحديها وعينيها ورأسها — من فوق السكبة (١) — وأذنها ثم نخرجوا .

— ٣ —

وكانت سميحة تنظر من سجنى الستار ، ونجية وراءها وقد اتكأت بيدها على كتف سميحة ، وراحت تميل رأسها ذات اليمين وذات الشمال ، وتشب محاولة أن تنظر كأختها من الفرجة التي بين السجفين . ولكن سميحة كانت قد جمعت طرفي السترين ولم تدع إلا شقا صغيرا لعينها ، ولما لم يبق شيء تنظر إليه أرخت يدها وتهدت وهي تدور وتواجه نجية . وقالت :

— نخرجوا . استريحى بقى .

وكانت لهجتها تنم على الأسف ، ونبرة صوتها تشي بالكمد المكتوم . ولا أسف هنا ولا كمد ، وإنما كانت تتكلف ذلك وتتصنعه لتستثير نجية

وتغذى عنادها . ولم تكن تبالي في سبيل ذلك أن تمشى بالوقية بين نجية وزوجها . فقد كانت الغاية عندها تبرر كل وسيلة ، فلم تحجم عن أن توقع في روع نجية بالتلميح المتوالي أنه لا يبعد ، إذا ظل الشيخ على وشوشو كما هما ، أن ينتهى الأمر به إلى تطليق نجية والتزوج بشوشو ، وكانت أذكى من أن تصرح بهذه الدسيسة ، وأبقى من أن تزيد على الإشارة فكانت ربما تهدت فجأة وقالت : .

— الأمر لله .

فتقول نجية : « ماذا يا أختي ؟ »

فتقول سميحة : « لا شيء ربنا يستر ! ربنا يستر » .

وتنصرف عن أختها وتدعها تفكر وتخمن وتقلب الأمر على كل وجوه المحتملة .

ثم بعد ساعتين ، أو يوم .. تعيد الكرة فتقول :

— إن إقامتنا معك يا أختي لا يعلم إلا الله ما قد تؤدي إليه .

فتقول نجية : « كيف يا أختي ؟ لماذا تقولين هذا الكلام ؟ لماذا تتكلمين

كأنى استثقل وجودك ؟ »

فتقول سميحة « وجودى أنا ؟ » ياريت ؟ نهايته ! ربنا يسلم » .

فتلح عليها نجية وتقول : « ألا تقولين ماذا فى رأسك هذا ؟ إنك تفهمين

أكثر مما أفهم .. فهل .. هل . قولى .. تكلمى ..

فقاطعتها سميحة حتى لا يباغ الأمر درجة المصارحة وتقول :

ربنا لو حده هو اللى عالم بما فى رأسى .. ده تبقى مصيبة .. لكن هو

جنان ؟

وهكذا حتى اتجهت خواطر نجية شيئاً فشيئاً إلى هذه الناحية ، وعميت

عن السبب فيما يبدو من عطف زوجها على أختها شوشو ، وساورتها الوسوس

ودبت فى صدرها الغيرة ، وإن كانت قد ظلت قادرة على مغالبة الظنون

ومدافعة ما تهمس به ، وبقيت تعتقد أن هذا بعيد الوقوع بل مستحيل ، غير أن مجرد التفكير في هذا المستحيل غيظ من وجهها كل بشاشة لشوشو والشيخ على ، وأغراها بالتجسس عليهما ، وكان من الطبيعي أن تكل ذلك إلى سميحة وأن تفتح أذنها لكل ما تشاء أن تصبه فيها ، وزاد الفساد لأن الشيخ على أصر على جفوته وإهماله لنجية ، ومنح شوشو عطفه وعنايته وصار لا يفارقها مادام في البيت ، وكثر اضطحابه لها حين يخرج للرياضة والتنزه ، وكان الشيخ على يتوقع ، بعد أن أعلن إلى نجية سخطه على مسلكها حيال إبراهيم ، واستياءه لرفضها العمل برأيه ، ونقمته منها أنها حقرت شأنه في نظر إبراهيم بأن أظهرته له رجلاً لا سلطان له ولا إرادة في بيته . — نقول إنه كان يتوقع من نجية بعد أن أعلن إليها هذا وجفائها من أجله ، أن تندم وتحاول استرضاءه وتسعى لتألفه من نفرتة ، ولكنها لم تفعل لأن سميحة تكفلت بتوسيع الهوة بينهما ولم تقصر في الدس والوقيعة ، وكانت سميحة تدرك أن الشيخ على لن يفىء إلى البرضى أو يصفح عن نجية إلا إذا نزلت على حكمه وعادت إلى رأيه بتزويج شوشو لإبراهيم ، ولا بد أن ينتهي الأمر إلى ذلك إذا تنهت نجية إلى واجب العمل على ترضى زوجها ، فلا اطمئنان لسميحة إلا مع استمرار الجفاء — على الأقل إلى أن ترى لها وسيلة أخرى وتهتدى إلى حيلة جديدة .

ومن الأوهام الشائعة أن الأطفال آخر من يقطن إلى الحوادث التي تقع حولهم والبواعث التي تفضي إلى وقوعها ، وكثيراً ما يطمئن الكبار إلى جهل الصغار وعجزهم عن الإدراك والنظر والتمييز ، ولكن الأطفال كثيراً ما يخزنون في رؤوسهم أسراراً يقفون عليها ، لو اطلع عليها الكبار لراهم عمقها وأعجبوا لقدرة الأطفال على التقصى والاستنتاج وبقا البصيرة ، وليس بالنادر أن تكون سعادة الأسرة رهناً بما يبدية هؤلاء الصغار من الحكمة وصدق النظر والصمت ، وهي صفات قد يكون مرجعها إلى الإلهام وما أخرى كثيرين من الكبار بأن يتلقوا درسا في الكياسة من هؤلاء الصغار المستجهلين .

ومن أجل هذا لم يكن عجبياً أن عمى الشيخ على وشوشو عن حقيقة ما صار إليه الموقف في البيت ، وإن راحت زوزو الصغيرة تجمع نتفا من هنا وطرفاً من هناك وتضم هذا وذاك وتستخلص وحدها سر الأزمة وطورها الجديد ، وإن لم يخل الأمر من أغلاط غير قليلة متعلقة بالوقائع والأسباب ، ولكن النتيجة التي انتهت إليها كانت في جملتها صحيحة ، غير أنها ألهمت أن تمسك على ما خزنته في رأسها الصغير فلم تثرثر به .

وهكذا صار البيت محسرين . وتم انفراج الحال ووقوع النبوة لما عاد الشيخ على إلى القرية بغتة وأخذ معه شوشو وزوزو .

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

الفصل السادس

« هل انتهيت الى ينابيع البحر أو في مقصورة القمر تسييت ؟ »

— ليلي

— نعم .

— لا أدري ماذا أقول ! ولكنى أدري أنى أريد أن أقول شيئا :
اظن أنك عطوف يا ليلي .. ولو أنى كنت شبيخا هرما لردنى النظر اليك
شابا يافعا .. شابا باحساسى على الأقل ، ولو ان شكسبير عرفك لأكثر
نظم الأغاني وأقل من الروايات .

فأشارت ليلي بكفها البضة ناهية عن الاسترسال وانحنى له مازحة وقالت :

— أشكرك ، واسمح لنفسى ان أشك فيما تقول ، ولكن شيئا واحداً
أنا على يقين منه ، فلو ان شكسبير عرفنى لناولنى صيجارة .
فاعتذر لها ومد يده بعلبة السجاير ، وأشعل عود الثقاب .

وكانا جالسين فى معبد الأقصر فى الصحن المتسع الذى تحيط به
الأعمدة ، واليه يؤدى الباب مباشرة ، ويعرفه رجال الآثار بساحة
أمنحتب الثالث ، وكان ابراهيم قد رشا الحارس فاذن لهما أن يدخلوا فى
الليل ، فاتخذوا مكانهما إلى جنوب الصحن ، وكانت الليلة مقمرة والأعمدة
أكثرها سليم ، فجاسا يتصوران ما كانت عليه هذه الساحة من الأبهاء والروثق
فى أيامها وأيام هذا الملك — أمنحتب الثالث — الذى بلغت بلاده فى عهده
ذروة الغنى والرخاء ، وانطلق ابراهيم يتحدثها عن هذا الملك وكيف انه
وهو يبنى هذا الهيكل اغتتم الفرصة فرسم لشعب طيبة على الحدران
سلسلة من المناظر تتعلق بارتقاة العرش وتبرره ايضا ، وذلك لأن
الشريعة المصرية كانت تقضى بأن يكون الذى يتولى الملك زوجا لبنت
الملك الكبرى أو ابنا لها ، ولكن اباه — نحوتمس الرابع — لم تكن

له ، على ما يظهر ، بنت فيزوجها الابنت ملك لإقليم صغير في سورية اسمه
ميتاني ، وقد تزوج أمنحوتب وهو صغير - في - وهي ليست من أسرة
ملكية ، وأكبر الظن أنها لم تكن مصرية ، ولهذا شاد أمنحوتب هذا المعبد
ليتألف قلوب الرعية ويرضى كهنة طيبة ، وقد أريد بالرسوم والنقوش التي
تصور ميلاد الملك وتويجه محو كل شك في حقه في ارتقاء العرش .

وقال إبراهيم بعد أن أفضى إلى ليلي هذا التاريخ القديم :

- أحسب هذا مثالي . .

فعطفت إليه وجهها وابتمت وهي تتوقع أن يفاجئها بملاحظة مضحكة ،
أو مفارقة غير منتظرة ، على عادته ، ومضى هو في كلامه فقال بلهجة
جادة . :

« . . . أنا أيضا أرتقي عرشا أكبر ظني أن ليس لي فيه حق شرعي ،
فليتني أستطيع أن أشيده معبدا ضخما لإلهي المعبود ، أسوغ به ما استوليت
عليه » ولم تكن ترتقب منه هذه اللفتة الجادة فغاضت ابتسامتها ، وعجبت
لتعاقب الوجوم والبشر على وجهه ، والصحو والغيم في سماء نفسه ، وأحست
أن هذا لا بد له من علة ترجع إلى ما لقي في حياته وأنه لاشك قد قاسى
وتعذب ، فرق له قلبها ، وأرادت أن تجلو صدره فقالت :

- ما لوجهك فيه كل آيات التعاسة ؟

وزمت شفيتها وكانت ترتجفان ، فألقى إليها إبراهيم نظرة عتب ، ولم
يقبل شيئا ثم التفت إليها فجأة وأمسك بكتفها المستديرتين ، فانتفضت
للمسه ، وقال :

- ليلي . ستشقين بسببي غدا ، غدا !

وهز كتفها بعنف ، فقالت :

- كلا ! لن أشقى . أو فلأشقى ! ميان ، انما تنشأ الأحران لأن
الإنسان يفرض لسعادته ثمنا . ولست أتقاضاك ثمنا ، فدع هذا ، على أنك
أدبت ولا تزال تؤدي لي ثمن سعادتي ..

فقال : « كيف ؟ » مستغربا .

قالت : أأست تحمينى من التسعة عشر ؟ .

فابتسم ولكنه قال :

— ليلى . واجهى الأمر جادة . أرجو .

فقالت من غير أن تعبس :

— ماذا كنا نستطيع أن نفعل غير ذلك ؟ كيف كان يسعنا أن نقاوم .

لقد كانت لحظة شعرنا فيها أن كل حاجز بيننا قد انهار ، وأنها لحظة إذا أفلتت فبهات أن تعود ! ويجب أن تبقى ليلتنا تلك فى ذا كرتينا أنفس ماندر وأجل ما استمتعنا به . فبالله عليك لا تمط وجهك ولا تقسد على تلك الذكرى !

فوجم إبراهيم وحار ماذا يقول ، وجلست هى على رجله وقالت له وذراعها حول عنقه :

— لعلك فكرت فى الزواج ؟ هيه ؟ لا أستغرب أن تكون قد فعلت

فإن رأسك هذا دائب العمل كالزمن ، لاينى ولا يتوقف ، كلا يا صاحبي ، ان الزواج نقلة الى حالة أخرى . . لانعود بعده ليلى وإبراهيم . كما نحن الآن ، ولا تبقى هناك متعة نستفيد منها من تلاقينه ومن خلواتنا . . لازواج بيننا . . فلنبق هكذا . . دائما . . أنت إبراهيم لأكثر . . وأنا . . ليلى . . لا قيد ولا رباط سوى هذا الحب ! . الآخر . . الطليق كالعصافير . . ان فى عينيك دهشة . أليس هذا بعض ما علمتني ؟ أيجدق التلميذ درسه وينساه أستاذه ؟ أوه لا ! لست وحدك معلمى . لا تخف ، الدنيا كلها علمتني . الحياة هى التى أجرت ارادتي وخواطري فى هذا المجرى ، وما كنت أسالك كالتلميذة الا لئى كنت أحب أن أسمع منك خواطر نفسى وهواجس ضميرى بلسانك وبقوة بيانك . وكنت أخشى أن تخيب أملى فيك ، فلما صدقت فراستى كنت أصغى اليك وأنا أنتفض من السرور والدهشة أيضا . . لقد خلقنا — أنا وأنت — لنحيا هكذا . . لسنا نصلح لذلك الحب التقليدى . .

ولكنك لم تقل لي قط أنك تحبني أوه .. لا .. لا تقلها .. لا تبذل المعنى
بلفظة . لا تقمده ، دعه يطل من العين فقط ويختلج على الشفة .. ويضطرب به
الجسم كله .. أو تتكلم العصافير ؟ والحماثم ؟ لا تقل شيئا .. قباني .. مرة
أخرى .. !

ولم يكذ إبراهيم قد سلاشوشو ، ولكنه تسلى ، ولم ينقص حبه لها
ولكنه تعزى بحب سواها . وقد ينكر القارئ أن يتسع القلب الواحد لحبين ،
غير أن الواقع كان كذلك ، وعلى أنهما كانا حبين من طرازين متباينين ،
لا يمنع أحدهما الآخر ولا يزاحمه ولا يصعب لذلك أن يعيشا في القلب
متجاورين كما يتجاور في القلب حب الوالدين ، وحب البنين ،
وحب الأخوة ، وحب الزوجة ، وحب الصديق ، حب الأدب أو الفنون
أو غير ذلك ، وكلها محاب ولكنها مختلفة في مصادرها ومظاهرها وآثارها ،
واختلافها هو الذي يوسع لها ضمير الفؤاد . والنفس الإنسانية أعمق وأرحب
وأغزر . وارد من أن تشقى أو تضيق بمعاشق شتى متنوعة ، وأين ذاك الذي
سبر غور النفس وغاص إلى أعماق أعماقها ونفذ إلى كل شعابها وتغلغل إلى
أخفى كهوفها وزواياها حتى يجوز له أن ينكر أن يتجاور فيها حبان لانسانين
كما يتجاور حب لواحد وبغض لآخر ؟ من الذي مسح هذا « التيه » المضل
ودرس طرقه وأحاط بمنعرجاته ، وألم بمباده ونهاياته ؟

وهكذا كان قلب إبراهيم يعمره حبان : حب شوشو الرائعة التي تستولى
على النفس محاسنها « جملة » — وكانت شوشو كما أسلفنا القول في ذلك
« فتاة » لا يحس الرجل مادتها ، ولا يلتفت حين يحادثها إلى « الشكل » وكانت
قدرتها هذه على صرف المجلس عن التأمل المادى لمعارف وجهها وخصائص
محياتها ، ليس مرجعها إلى لباقة أو كياسة مكتسبة ، وإنما كان مردها إلى
تلك السداجة الخفية التي تذيب القلب وتشيع السرور في الصدر وتثير كرم
النفس ومروعتها وكان لها نجرة النفس للفريرة وحرارتها وخفتها ، وكان
لإحساس المرء حيالها أشبه بإحساسه حيال الطفولة الجميلة البريئة .

أما ليلى فخلق آخر . وجمالها مختلف جدا . وفتنتها مستمدة من عناصر غير هذه ، فقد كانت أولى مزاياها اللين والمرونة حتى لكانت تبدو ساكنة وهي تنساب ، وكان جليسا لا يسعه إلا أن يشعر أن لها عينيْن اثنتين . والمرء في العادة لا يجعل باله إلى هذا الإزدواج ولا يلتفت إلى تلك التثنية ، حتى يغلب أن يستعمل لفظ المفرد ، والمعنى مثنى ، فيقول العين ويريد العينين ، ويذكر الجفن وهو يعنى الاثنين لأن النظرة من كليهما واحدة . وهما توأمان ومعناهما في الدهن مندمج ، ولكن ليلى كان لكل من عينيها إيماءتها . ولا اختلاف بين اللمعتين ، وإنهما لمتجاوبتان ولكنهما على ذلك فيما يحس الرجل مستقلتان . وكانت أمارات التفكير الكثير المرتسمة على محياها ربما أطفأت هذا الالتماع ، وإن لم تعف مع ذلك — إلا قليلا وإلى بضع دقائق — على شيء من الدلال فيها لم يكن على هذا بادي التكليف بحيث ينفي صدق السريرة . وكانت شفتاها — كحاجبيها — خطين حاسمين حادين ، وإن كانت تقويستهما لينة رقيقة . والمرء يترقع — ولا يستغرب منها — حين ينظر إلى نجبيتها الوضاء الذي ترد عنه الشعر ولا تدعه ينسدل عليه — الصراحة والجرأة صراحة النفس التي تأنف أن تغايط في الحقائق ، وجرأة القلب الذي ذاق وجرب ، والعقل الذي فكرو تعب .

فبينما كان إبراهيم ينعم بحب ليلى وقربها ، وكانت هي تساقيه الهوى صرفا غير مقطب ولا مكدر ، وبلا قيد أو تخرج ، كان قلبه يتلفت إلى شوشو وينثني بالصبوة إليها والتحرق عليها والتوجع لفراقها والبعد عنها ، وكان في كلا حبيه مخاصا : يجري في هواه الجديد بغير لجام ، ويرتد إلى شوشو بالقلب الكسير المستهام ، فكان جب ليلى الحمر يعب فيها العاشق الوهان يحسب أن سيغرق فيها وجده . فتستعر جوانحه وتضطرم النار في جبينه وتتقصف أضالعه . وكان تحرر ليلى يفتنه . وسداجة شوشو تسفيه ، وكان حب شوشو يتمثل له جاسما كالزهادة لمن لم يجد لعله نفسه شفاء في الرياء والضرب في زحمة الحياة . وكان يبدو له — بعد أن انتهى إلى ما انتهى

إليه — بمثابة الرفض للحياة . ورفض الحياة — على كل سحره لايزيد النفس إلا إحماء . والزهادة قد تكون منجى ولكنها يأس ، وهى ، على كل ماتدل عاياه من القدرة على التسامى فوق مغريات الحياة ، قلما يفضى إلا إلى أن تخسر النفس طيبها ورضاها ، والسعادة لا تجنى فى الحياة بان يرد المرء يده ، بل بان يمدّها الى التمار ليحنيها .

وكان حين يفكر فى جبهه الليلى يتصور الهروب من النفس ، ويخيل اليه أنه يسوم ذكاءها اطفاء . وأنه يبلدها وينشر الضباب على صفائها ولم لا ؟ أليس اللبيب هو الذى يحض نفسه مراحا ؟ أليس السعيد هو الذى يقهر نفسه باللذة ويضئنها ؟

فهما حبان مختلفان يمثلان فى مظاهرها وفى جوهرهما مذهبين مختلفين : رفض الحياة والاستغراق فيها . ولكنهما من حيث النتيجة سيان .

وسواء من قال لبس سوى الأرض ومن قال لن تنالوا السماء . وأبيقور — بعد — كزينون ، كلاهما مخطىء وكلاهما مصيب ، وقد التقيا باعجوبة من أعاجيب الحظ الساخر فى نفس ابراهيم .

بل هناك جب ثالث كان ملقى فى زاوية من نفس ابراهيم ، ولكن كونه غير طاف على اللجة ليس معناه أنه غير موجود . وما أكثر ما كان ابراهيم — حين يجيش صدره وتفور نفسه وتختلط الأعالي بالأسافل ويندفع الراسب الى مستوى الطافى — يذكر ماري ويشتاها . ماري الضعيفة التى تشعره بقوته ، المدعنة التى تؤكد له قدرته على القهر وتبرز له لذة الغلبة ومتعة السيطرة ، فيبتسم ويود لو أنها الى جانبه ليوحى اليها ارادته وليشعر بلذة الإسراع الى الاجابة والامتثال .

وقال ابراهيم وهو يفكر فى ثالث قلبه :

« عجيب .. عجيب .. حين أذكر « ماري » أحس سطوة القوة ، وصيال العزم ، وعتو الجبروت ، وأتصور شوشو فاحس وقار التجربة وسمت العلم وأبهة الشيخوخة ومحنو الأبوة ، وأكون مع ليلي فأراني كأنى أتعلم رقصة الحياة على ايقاع الشباب .. عجيب .. عجيب .. »

الفصل السابع

« حوط طريقى فلا اعبر ، وعلى سبلى جعل ظلاما »

لم يسمع الدكتور محمود الا أن يتقسم ، وهو يقرأ الرسالة التى بعث بها قريبه الشيخ على مع أحمد الميت ، يأمره فيها أن يحضر ولا يذكر سببا مرجحا لذلك ، ويؤكد له فيها - بلا مناسبة - أن كونه طبيبا ، مثل كون أحمد الميت ميتا - كلاهما كذب على الله والناس !

وكان الدكتور محمود يجاهد منذ عاذ إلى الإسكندرية ، ان يروض نفسه على السكون إلى اليأس من شوشو ، ولم يكن يدرى لماذا ينبغي أن يقنط ، ويثنى عنان الأمل ، ولكن الشيخ على صده عن الرجاء ، والشيخ على بطبيعة الحال أدرى ، وهو ناصح غير متهم ، غير ان المسألة مع ذلك غير مفهومة ، فهل كل ما فيها ان شوشو اصغر من سميحة ، وأن الكبرى تتقدم الصغرى - وتسبقها الى الزواج ؟ قد يكون هذا هو السبب ولكن لهجة الشيخ على تنىء بأن هناك شيئا بخلافه لم ير أن يفضى به اليه ويطلع عليه ، فاعسى أن يكون هذا الشيء الآخر ؟

وكان الدكتور محمود أشرف من ان يخطر له ان يتسقط الأخبار أو يستدرج الخدم ومن إليهم ، لعله يظفر منهم بما يحل هذا اللغز أو يهتدى على الأقل إلى طريق الحل ، فوطن نفسه على الصبر وترك ظلمة الجهل التى هو فيها تحيط به من غير ان يحاول تبديدها او إراقة شيء من الضوء عليها ، وضاعف جهده فى عمله ليكون ذلك اعون له على الاحتمال ، وساعدته طبيعته وظروف حبه لشوشو على ان ينتقل بها وب نفسه إلى دائرة الأحلام والذكرى المحببة التى تتشبهت بها القلوب .

وكانت ساعة القيام من النوم فى الصباح اقصى الأوقات عليه . فهو فى النهار ينصرف إلى عمله واذا ثقلت عليه وطأة الوحدة لم يغد جليسا يسامره اما فى الصباح فالأمر على خلاف ذلك .

تبدو له الحياة اول ما يفتح عينيه عليها مثاثبا ، وردية ذهبية ولكنه لا يكاد يفرك عينيه حتى تكرر اليه الذكرى الأليمة بكل قوتها وقد زادها تكرار الهجوم منها وتكرار التضعضع أمامها ، قوة على قوتها ، ففي كل صباح يفتح حياته بالشعور بمرارة الحرمان وقسوة الأقدار ، وفي كل صباح يهمس في اذنه قضاء الحظ ان حبه يجب ان يموت ، وفي كل صباح يرتد فزعا من هول هذا القضاء الذي لا لطف فيه .

ولو كان الدكتور محمود أصلب عودا لقاوم وكافح ورفض أن يدعن لهذا القضاء الذي فرضه عليه الشيخ على ، أو على الأقل جدا . لطلب من الشيخ على أن يبين له السبب فيما يقضى به عليه ليعرف في أى طريق يسير ، ولو كان من ذلك الضرب المرح الطروب الذي لا يعنيه من الحياة إلا مقدار ما يطلب من متعة تعود أمتع إذا كانت اخشن . لهر كتفيه ساخرا ولطابت نفسه بسرعة عن شوشو ، ولكنه كان من ذلك الطراز الذي يسعه أن يعبت ولا يعبا بالصدمات إذا كان لا يشعر بعاطفة قوية ، حتى إذا صار الأمر جدا ، انقلب حيا ضعيفا غير كفء لما تتطلبه العاطفة . وكأنيب مهنته — بما تنطوى عليه من تبعات جسام — قد عودته الشعور بالمسؤولية وأفرغت عليه روح الجلد الصارم في شبابه ، وعلمته ان ينظر من أتفه الأسباب إلى أخطر النتائج ، فلما أدرك أنه قد أحب شوشو وأنها قد استولت على هواه واستبدت بقلبه ، استحال إنسانا آخر .

وقال الدكتور لـ أحمد الميت في الطريق إلى القرية .

— هل مرض أحد ؟

فقال الميت : « لا ، أبدا ، كلهم بخير » .

فقال الدكتور كأنما يناجي نفسه :

— اذن لماذا يدعوني الشيخ على ؟

فهر أحمد الميت كتفيه ولوح بيده وقال — كأنما كان الخطاب له :

« تسألني أنا ؟ حصانك هذا أدرى مني . فقد تطوعت لحمل الرسالة لأهرب

من وجهه » وضحك .

فنظر الدكتور إليه بسرعة ، ولم تعجبه هذه الضحكة العصبية ، وشد
الاجام ثم أرخاه فأسرع الجواد وانطلق يخطف ، فكاد أحمد الميت الذى
فاجأته هذه الحركة يقع على ظهره ، وارتفعت يده بسرعة إلى قفاه ليرد العمامة
إلى جبهته ، ثم العباءة فوق ركبتيه وانحنى إلى الإمام قليلا .
وكان الدكتور يفكر فى أمر رفيقه وخرابة اعتقاده أنه مات ، وأنه الآن
غير حى ، وسلامة عقله فيما عدا ذلك ، فسأله :
— أحمد .. كم عمرك الآن ؟

فابتسم أحمد كأنما فطن إلى الغرض مما ظنه مداعبة ، ولم يجب فأعاد
الدكتور سؤاله :

— كم عمرك يا أحمد ؟ لماذا لا تجيب ؟
فرفع أحمد وجهه إليه مستغربا وقال :
— عمرى إيه ؟ سبحان الله العظيم . حتى أنت يادكتور !
فأفتر ثغر الدكتور عن ابتسامة العارف وقال :
— دعنا من عمرك الآن وقل لى كم كان عمرك لما مت ؟
فأرسلها أحمد نظرة طويلة ساكنة إلى الطريق ، ثم طأطأ رأسه وثنى عينيه
إلى حجره وقال :

— ايه .. سبحان العالم . ده شىء مضى وراح . لو كان فى العمر بقية ما
وافى الأجل ؟

فلم يستطع الدكتور أن يتابعه فى أسلوب تفكيره ، أو أن يدرك البواعث
على هذا التعليق ، فسأله :

— ألا تذكر شيئا من حياتك .. أعنى قبل أن تموت ؟
فأدار أحمد وجهه وقال بلهجة جادة :
— أذكر ايه ؟ أنا مت واللى كان كان .
فقال الدكتور : « أعرف ذلك ، ولكن ألم تحلم قط ، أعنى ألا ترى فى
منامك شيئا من حوادث تلك الحياة الأولى ؟ » .

فلم يعجبه هذا السؤال وهز رأسه مراراً قبل أن يجيب :
— أيوه بحلم . لكن يعنى ايش درانى إن اللى بشوفه هو اللى كان . . أهى
منامات تهاليس . .

فالح عليه الدكتور :
— وماذا ترى فى منامك ؟
— كثير ماتعدش . مين فاكر ؟
فقال الدكتور :

— هل تتكرر أحلام معينة ؟ هل ترى الحلم الواحد مرات ؟
فصمت أحمد هنيهة وهو مطرق ثم قال :
— أى والله برضه يحصل .

ثم رفع رأسه وقال :
— وأنت ايش دراك ؟
فابتسم الدكتور وقال :

— ألا تذكر واحداً من هذه الأحلام المتكررة ؟
فظل أحمد مطرقاً ، ولكن وجهه ظهرت عليه آثار الكد والتعب و
يجاهد أن يذكر ثم قال :

— مش جادر وحياتك يا دكتور . هم الدنيا بينسى الواحد نفسه
وعاد الدكتور يسأله :

— ألا تتكلم وأنت نائم يا أحمد ؟
فقهقه أحمد وقال :

— يعنى منين أبجى نائم ومنين أسمع نفسى ؟
فسكت الدكتور ولم يسأله شيئاً بعد ذلك .
ولما قابل الشيخ على قال له :

— أحمد الميت يستحق أن يراقب وهونائهم . فلا يبعد ان يتكلم بما هو مستمكن وراء الوعي ، والعلم بذلك وبأحلامه أيضا قد يفيد فإن شفاءه فيما أعتقد غير بعيد .

— ٢٠ —

اضطربت شوشو لما علمت أن الدكتور محمود قد جاء ، وكانت مع زوزو تلاعبها وتضاحكها ، وكانت الأيام القليلة التي قضتها في القرية بعيدة عن أختها قد ردت إلى خدوها صبغته الأرجوانية وإلى عينيها اللامعة التي أطفأها الكمد الباطن ، واستراحت من مكايده سميحة وبلادة نجية ، ونعمت بعطف الشيخ على وحلاوة روح زوزو ، وشجرت وهي معهما كأن المستقبل ليس حالكا كما كان يبدو لها في الإسكندرية ، وكانت تقضي أكثر وقتها مع زوزو ، وكانت زوزو طفلة ولا بد الأطفال من الثثرة ، ولا سيما مع من يطمثون اليه ويحبونه ، فأفضت زوزو إلى خالتها ببعض ما تعلم ، ومالا تستطيع أن تعلمه أو تفسره على الوجه الصحيح ولم تكن تحلم ، وهي تطلعها على أسرارها الصغيرة ان ستكون لها عواقب كبيرة ، فمن ذلك أنها أنبأتها أن خالتها سميحة ذهبت إلى امرأة « تبين البخت » وأنها بعد ذلك اشترت صندوق « شكولاته » وأعطته للمرأة التي تبين البخت وتركته عندها ثم عادت فأخذته بعد أن سحرت المرأة الصندوق ، وقد سمعت فيما بعد أن الصندوق أرسل إلى «خالها ابراهيم» في الأقصر .

وقصت زوزو أيضا على شوشو ما سمعته من الحوار بين سميحة والدكتور محمود ، وكانت زوزو تراها من الحديقة وهما لا يريانها لأن الشجرة تحجبها ، وروت لها ما تذكر من كلام سميحة وما قالته في أختها شوشو

فسألها شوشو : « وماذا قال الدكتور لها ؟ » .

فقلت زوزو : « لم أسمع كلامه يا خالتي ولكن خالتي سميحة كانت

محتدة في ردها عليه . لا لم يكن كلامها يعجب الدكتور ومن الذي يعجبه
هذا الكلام ، إنه عيب أليس كذلك ؟

وقبلتها بين عينيها ثم مضت في روايتها فحككت لها أن أباهما أخرج من
جيب الدكتور محمود علبة كبيرة فيها حلقات من الذهب لها قصوص
من اللؤلؤ ، وضحككت زوزو وقالت : « كان بابا يحسب في جيبه فحم
كوك !! »

ثم دنت منها حتى صار فيها على أذنها وتلفتت أولا ثم قالت :
« أقول لك يا خالتي بس اوعى تقولى انى أنا اللي قلت ؟ هيه ! بالك
الدكتور كان جاى ليه في اسكندرية ؟ - (وخفضت صوتها جداً) بس
اوعى تقولى (وألصقت فمها بأذنها) كان جاى يخطبك وبابا قال له
روح اربى نفسك في البحر » .

وبديهي بعد الذي اطلعتها عليه زوزو ، ان تضطرب شوشو حين يجيء
الدكتور ، وأن يدور في نفسها ما كان من مغالته لها قديما ، وان تسر
وتدهش وتحزن في آن معا ، وان تتوالى أمام عينيها صفحات حياتها ،
بكل ما حفلت به وما انتهت اليه ، وأن تتوجع لصمت ابراهيم الذي أعياها
تأويله إلا على أنه قد غادر الأقصر ، وذهب إلى مكان آخر وأن تسأل
نفسها فيم يجيء الدكتور ولا مريض هناك ؟ وهذا الدكتور مسكين أيضا ،
هواه لا سبيل إليه كهواها ، وقد احتمل الصدمة في صبر وأخفى الجرح
الدامي الذي في صدره ، وعاد يمشي بين الناس كأنه سليم معافى ، وكأن
دم القلب لا ينزف . فليست وحدها في محنتها ! وأحست شوشو بالعطف
على الدكتور ، وشعرت كأن ما أصابه قد اختصر المسافة بينهما وأدناهما وجعل
من الممكن أن يتصادقا وان كان عسيرا أن يتحابا ، أو على الأقل أن تحبه
هى ، وهو لاشك يعذرها .. يعذرها ؟ ولكن هل هو يعرف ؟ أتراه قد علم أنها
تحب ابراهيم وأن ابراهيم يحبها وهل يعقل أن يصدده الشيخ على من غير أن
يطلعه على السبب ؟ ولكن الشيخ على ربما كان قد اكتفى بمثل عذر نجية -

بأن شوشو هي الصغرى وان سميحة أولى بالتقديم . غير أن هذا عذر لا ينهض ولا يقنع الدكتور الذى لعله يجهل أن الشيخ على عجز عن تدليله ..
ولم يدعها أحد إلى مقابلة الدكتور ، ولم تنزل هي إليه ، فقد كان الوقت نهرا ، والشيخ على فى السلامك ، ومعه رجال كثيرون وحسبها هذا عذرا وبقيت طول النهار وحدها لا أنيس لها الا الخادومات تراقبن وهن يقمن بواجباتهن المنزلية وتتلقى أوامر الشيخ على من حين إلى حين بواسطة زوزو . وكانت شوشو ربما تمت أن يصعد إليها الدكتور لتراه ولتقرأ فى وجهه ما فعلت الصدمة فى نفسه ، ولكن علمها بما أفضت إليها به زوزو كان يجعلها تخجل حتى أن تتصور أنه سيصعد للسلام عليها ، فيحمر وجهها ثم يعود فيستقع .

وجاء الليل فلصقت زوزو بشوشو أمام الموقد ، ثم رفعت إليها وجهها الصغير وقالت :

— خالى !

— نعم .

خالى ابراهيم ..

فانقضت شوشو وقاطعتها ، صائحة بها :

/ — أين هو ؟ هل عاد ؟ أهو هنا ؟ هل تعلمين شيئا ؟
فضحكت زوزو وقالت :

— دعيني أتكلم ؟ ما هذه الأسئلة كلها ؟

فكبحت شوشو نفسها بجهد واضح وان كان صدرها قد ظل يعلو ويهبط كالبحر وانتظرت فقالت زوزو :

— هنا ؟ لا لا ! سيكلمه الدكتور الليلة .

ولم تفهم شوشو وقالت :

— يكلمه كيف ؟ وأين ؟ وهل عاد حتى يكلمه ؟

فقالت زوزو وهي تضحك مرة أخرى :

— أوه ! ألا تصبرين يا خالى ؟ كلا لم يعد — الدكتور سيكلمه فى التليفون .

اتفق بابا معه على ذلك .

فسألتها شوشو :

— في أي شيء يكلمه ؟ ولماذا لا يكلمه بابا ؟

فهزت زوزو رأسها وقالت :

— وهل أنا أعرف ؟ إسأل بابا .

— أسأل بابا ؟

فقالت زوزو ببخبت :

— آه أسأليه . لم لا ؟

فاغضبت شوشو عن هذا وقالت :

— ولكن لماذا يكلمه في التليفون ؟ ألم يكن خيراً من ذلك أن يكتب له

خطاباً ؟

فقالت زوزو :

— خطاب إليه ؟ وهل هو يرد على الخطابات ؟ لقد سمعت بابا يقول انه

بعث له بثلاثة خطابات وبتلغراف ولم يتلق أي رد ، ويقول بابا ان

الأوفق أن يتكلم الدكتور بالتليفون ليعرف هل هو في الأقصر أو سافر .

إذن ابراهيم لا يرد على احد — لا عليها ولا على سواها . وما أطيّب

قلب الشيخ على الذي لا يزال معنياً بها ؟ وما أفساه حين يكلف الدكتور أن

يقوم هو بهذا العبء ؟ لا شك أن الدكتور يجهل ما كان .

وانتفضت شوشو وقد خطر لها أن ابراهيم في الأقصر وانه يجهل

الرد على هذه الخطابات عامداً . من فرط مرارة نفسه . وعناده . .

وكبره .

وسقطت من عينها دمعة على خد زوزو النائمة على حجرها فهبت

تقول :

— نخالتي !

— نعم .

ومسحت لها دمعها ولم تتكلم .

الفصل الثامن

(ما اسمه واسم ابنه ان عرفته)

- ١ -

عاد ابراهيم وليلى مساء من الكرنك فى مركبة الفندق الضخمة فلما دارت ووقفت أمام السلم استغرب ابراهيم من نفسه أنه لا يكاد يعبأ بذلك وأنه لا يحس القدرة على الترجل والنزول وكأنما وطن نفسه على البقاء فيها فاضطجع وأغمض عينيه .

فالتفتت اليه ليلي وسألته :

ألا تنزل ؟ مالك ؟

وأحس هو فى هذه اللحظة أن الدمع سيطفر من عينيه ، وسرت فى بدنه رعدة ، فانتفض وزرر الجاكتة ، وتلفت حوله كأنما يبحث عن معطف ، ولم يكن الجوباردا ، وأنكر من نفسه هذا الضعف الذى استولى عليه لغير سبب ظاهر ، فقد كانت صحته جسنة ، وكان يجد مع الصحة القدرة على امتلاك النفس وضبطها وحكمها ، فلماذا يحس بالحاجة الى البكاء ؟ ما هذا الذى يأخذ بمخنقه ؟ ما لصوته يتهدج ؟ ماله يحس كأن عمره قد زاد بغتة عشرين سنة ؟

ولحمت ليلي هذا التغير المفاجيء الذى نم عليه امتقاع لوته وتهضم وجهه وذبول جفنه وفتور نظرتة ، فأعانتة على النزول ، وألهمت أن تدعه وشأنه وأن لا تثقل عليه بالكلام ، وأن تتركه يستعيد حالته الطبيعية على مهل ، فقد خطر لها أن لما بدا عليه سببا متعلقا بماضيه الذى تجهله ، وأشاحت بوجهها عنه وهى تصعد معه وان كان قد ظلت تراقبه خلسة من حيث لا يشعر ، وكان هو يجاهد أن يسترد ظاهره الساكن وابتسامته ،

الساخرة ، وبعد لآى ما استطاع أن يتكلف ما يشبه المأوف منه .
وصعد السلم بمشقة واضحة ، وكانت رجلاه كأنهما مثقلتان بالحديد
وأحس القرّة في عظامه ، وابتعدت كفاه فنفخ فيهما ، ودخلا الضالون
وهى إلى جانبه ترعاه بنظرها ، ويحنو عليه قلبها ، وتكاد تحوطه بذراعيها
من فرط اشفاقها عليه ، وقد أدركت أن علة ما طرأ عليه ، برد أصابه ،
أونحو ذلك ، وجلسا وطلب هو كأساً من الكونياك ثم أخرى وثالثة ،
وشعر بالدفء فانبسّطت أسارير وجهه .

وقال فجأة وبغير مناسبة ظاهرة :

— لست أشاطرك حبك للمطر . كلا ، أحب شيء إلى أن ألتقي بـ
ظهري وأن أنسى .

فسرها أنه عاد يتكلم وأن أول كلامه إشارة إلى أول لقاء وإن لم تدر
بماذا تجيب فقالت :

— أعرف ذلك .. أعنى منك .. ولكن ما أكثر ما تمنيت أن أكون
في قافلة .. حبي للمطر لا يمنعني أن أشتى ذلك .. قافلة من الجمال في
الصحراء .. أصوات الليل لا بد أن تكون بديعة .

فسكت قليلاً كأنما يفكر ثم قال كالذى يحدث نفسه .

— ان الذى يفعله المرء ليس مهماً وإنما المهم أن يستطيع تسويغه .
فلم تفهم ليلى ولم ترى علاقة قريبة أو بعيدة لهذه الملاحظة بما قالته ،
وازداد ذهوله ، وتكرر منه الكلام الذى يشبه مناجاة النفس ، فنصحت
له بأن يذهب إلى غرفته ويستريح ، ورافقته إليها ودخلتها معه وحتمت
عليه أن يتناول قرصاً من الاسبرين وتركته لتأمر له بالشاي بينما يكون
هو قد خلع ثيابه وورق في سريره .

* * *

رقد إبراهيم وهو يسعل قليلاً وينكر من نفسه هذا السعال الذى لم
يعانه من قبل على إفراطه في التدخين ، وأحس وهو مستلق بألم في عظام

صدره وبصعوبة فى التنفس وبرعدة تعاوده ، ولكنه عزا هذا كله إلى
البرد والتعب ولم يعره اهتماما وشرع يتسلى بالتفكير ؛ غير أن ذهنه كان
يأبى أن يخضع لإرادته ، وكانت الحواطر تمر برأسه بلا نظام ويقع بعضها
فوق بعض كأنها الجيش المهزم .

ودخل الخادم يحمل أدوات الشاى لاثنين ووضعها على منضدة صغيرة
أدناها من السرير ثم خرج من غير أن يتكلم كأنما لم يكن فى الغرفة أحد .
وكان إبراهيم أثناء ذلك لا ينظر إلى الخادم بل إلى السقف كأنما يفتنه
منه شيء ، ولكنه قال لنفسه « إن الحجل من أن أكون مريضا فى
الأقصر - وفى فندق أيضا - هو الذى جعلنى أتقى النظر إلى الخادم . أليس
عارا أن يصيبني برد فى الأقصر ، فى هذا الجو الذى يستشفى به الناس ؟
وليت من يدرينى كيف أصابنى ؟ » .

وسعل ، وشعر أن التنفس يوشك أن يصير عملا متعبا ، فأنصرف عن
التفكير ونسى معرفة المرض فى الأقصر ، ليتفرغ لهذا الجهد الجديد الذى
يفرضه واجب التنفس ، وأحس بكسل عن الشاى وبفتور عام فأغمض
عينيه ومضى يعالج أن يتنفس بانتظام وهدوء .

ولم يشعر بليلى لما دخلت ، وإنما انتبه على يدها تجس يده فقال وهو
يتكلف الابتسام :

— أوه أنت هنا . لم أشعر بك .

فابتسمت له ولم تقل شيئا بل دست فى فمه ميزان الحرارة وقعدت
على السرير عند قدميه ، ثم مضت بالميزان إلى الشباك ووقفت هنيهة تتأمله
ثم نفضته ليسقط الزئبق ، وقالت :

— لا شيء يستحق الذكر .. نصف درجة بل أقل .. أربعة خطوط ..
والآن فلنشرب الشاى .

ورفعته فى رفق كأنما كان وليدا ، وسوت له الوسائد ليتسنى له أن
يضطجع وهو قاعد ، فبدأ يخالجه الشك فى صحة ما أنبأته به عن درجة
حرارته وقال لها :

— فيم كل هذا إذا كانت المسألة أربعة خطوط ؟
فابتسمت وزحفت إليه وقالت وهي تناوله ميزان الحرارة .
— إذا كنت لا تصدقني فما عليك إلا أن تعيد الميزان إلى فلك ثم تقرأه
بنفسك .. هذا هو .

فخجل وقال :

— معذرة ، هذا ذنب الحمير .

قالت : « الحمير » !

قال : « نعم .. حمير الأقصر . ليس في رأسي غيرها » .

فقالت : « لست أفهم .. » .

قال : « لك العذر ولكن الواقع أن أبرز الخواطر في رأسي وألحها على
مذ دخلت هذه الغرفة ، كثرة الحمير في الأقصر .. أحسب الأقصر قد
أعدتني بحميرها ! فقد صارت الحمير هي كل ما في رأسي ..
فسر ليلى أنه يمزح ، ولم تكن تعلم أنه جاد . واطمأنت إلى أن ما به
ليس أكثر من برد بسيط تزيله الراحة والدفء .
ونقر الخادم على الباب ، فأذنت له ليلى فدخل يجمل بضع زجاجات
ووقف ينظر ما تأمر به .

فنظر إبراهيم من الخادم إلى ليلى مستغربا وقال :

— ماهذه الزجاجات كلها ؟ ليست نبيذ أو شمبانيا ؟

فضحكت وقالت :

— كلا ! ماء ساخن للتدفئة .

وأومات إلى الخادم فوضع اثنتين إلى جنبيه وثالثة بين فخذه والرابعة
إلى قدميه ودس أطراف الغطاء تحتها لتثبت ثم خرج .

فقال إبراهيم :

— ما أسرع ما صرت ممرضة ! من أي مستشفى جئت ؟

فضحكت وقالت وهي ترفعه لتعد الوسائد لنومه :

— والآن ينبغي أن تنام .

فقال وهو يطيعها : « ليس ينقصك الا أن تقضى الليل إلى جانبي على هذا الكرسي .. ولكن كيف أنام من العشاء ؟ أدجاجة تحسبيني ؟
فقلت : « عالج . إن بك حاجة إلى النوم . أما أنا فسأتركك برهة لأعطيك فرصة ؟ »

فمجب وسألها : « برهة ؟ هل تعنين أنك راجعة ؟ »
فحنت عليه وطبعت على جبينه قبلة وقالت :
— نعم .



ولكنها لم تعد إلا بعد ساعة ، ذلك إن انتقلها إلى الغرفة المجاورة لغرفته استغرق من الوقت واستدعى من الأنخذ والرد أكثر مما كانت تتوقع وكان الباب الذي بين الغرفتين موصدا والمفتاح ليس فيه ، فاحتاج الأمر إلى البحث عنه . يضاف إلى ذلك أن أشياءها كانت مبعثرة فاضطرت أن تقضى زمنا في ترتيبها في الحقائق قبل نقلها ولم تشأ أن تجلس وحدها إلى المائدة في حجرة الطعام لئلا يثير لغطا لضرورة إليه ، فأوصت بان يرسل إليها في غرفتها الجديدة وأن يعد لإبراهيم مرق يرسل مع طعامها ليصيب منه في الليل إذا أحس بالجوع . وأمرت بأن لا يزعمجه أحد في أى جال من الأحوال . ثم مضت الى الغرفة وفتحت الباب المتوسط ودخلت على أطراف أصابعها فالفته نائما . وأشعلت في غرفتها سيجارة وراحت تفكر ماذا يكون العمل إذا اشتدت عليه وطأة المرض ؟ أن البوادر ليست حسنة لأن درجة الحرارة تسع وثلاثون لا نصف درجة كما كذبت عليه ، ولم تشأ أن تدعو الطبيب حتى لا تزعمجه . ولكنها ستضطر الى ذلك في الصباح إذا لم يتحسن . ولن تنقصه العناية والحدب فإنها قائمة بخدمته ساهرة عليه ولو اجتاج الأمر إلى دمها لبذلته له راضية مسرورة . ولكنها على

كل ما بينهما من الحب والمخالطة لم يخطر لها يوما أن تعرف عنه أكثر مما عرفت أول يوم . أكثر من اسمه ! وهو أيضا لم يعن بأن يسألها شيئا ، وقد قنع كلاهما بصاحبه واستغنى عن كل سؤال ، وقد كان هذا حسنا ولذيذاً إلى الآن . غير أن المسألة تغير وجهها فصار لأمر من أن تعرف بعض ما تجهل .

ولما وصلت في تفكيرها إلى هذا الحد : انتفضت كالجمومة فنهضت وهي تقول :

— كلا كلا ! إنه بخير ، ولن أسأل عن شيء ! يا لله ! لماذا تغزوا رأسي هذه الحواطر المزعجة ؟ كيف يطاوعني قلبي أن أتصوره بسوء ؟ لا لا لا ! هذا محال ، محال محال .

وانكشأت على السرير ودفنت وجهها فيه ويداه ممدودتان عليه ، وجاهدت مستميتة أن تنفى من رأسها كل خوف وأن تفرغ على نفسها السكينة وترد إلى قلبها الطمأنينة ، ولكنها كانت تحاول ذلك فقد ظل الحب المستغرق يوسوس لها بالخوف ويجسم الأمر فلم تطق صبراً ، وعادت إلى إبراهيم تنظر إليه وكان لا يزال نائماً ، ولكن ابتسامة كانت على شفتيه ، كأنما سره في منامه حلم ، فنازعته نفسها أن تقبله غير أنها كبحت رغبتها بجهد مخافة أن توقظه ورجعت .

وهكذا انقضى الليل في وساوس وهواجس ، تتخللها اغفاءات قصيرة وأصبح الصباح ولم تذق طعاماً ، ولا نوما هنياً .

— ٢ —

لم يتغير جو الغرفة وإن كان إبراهيم قد أصبح أسوأ حالاً مما بات على أنه سرعان ما وطن نفسه على المرض وراض نفسه على احتمال متاعبه ومقتضياته وكف عن المكابرة . من غير أن يفقد سكينة نفسه ، وكان التنفس سريعاً شاقاً والسعال قد صار أسوأ والألم في جنبه أحد ، ولكنه

مع ذلك كان يتسم للطبيب الذى دعتة ليلى ويسأل وكان الأمر يعنى إنسانا غيره :

— والآن يا دكتور ألا تحدثنى عن هذه البنيمونيا ؟ إن اسمها لا ينقل لى أى معنى ولا يحدث فى ذهنى أى صورة . وأحسب أن من حقى أن أعرف شيئا عن عدوى الذى يهاجمنى إذا كان يراد منى أن أقاومه . وكان صوته غير ضعيف ، ولكن الألفاظ كانت تخرج متقطعة فقال الطبيب :

— لا صعوبة فى إفهامك ما هى ، الرئتان مكتظتان بالدم — على الأقل واحدة منهما عندك ؛ والهواء مضطر أن يخلى المكان للدم ، فالرئة لذلك لا تكاد تعمل ومعنى هذا أن واجب الرئة الأخرى مضاعف ، وعلى القلب عبء هذا الإجهاد أظن هذا كل ما هناك .

فقال إبراهيم وهو ينظر إلى السقف ويرسم بخياله عليه صورة قلبه المكدود ورثتيه اللتين تهيب أحدهما بالآخرى أن تبذل أقصى ما فى طوقها لإمداد صاحبهما بما يحتاج إليه من الأوكسجين وقال :

— إن هذا ممتع جدا ولا شك .

فسأله الطبيب وهو لا يكاد يفهم :

— ممتع ؟ كيف ؟

وقال لنفسه : « إن البنيمونيا هى البنيمونيا ، وكل شىء فيها إلا الامتاع » فسأله إبراهيم :

— وما هو العلاج ؟ اذكره لى بدقة . فإنك كلما زدتنى بيانا كان ذلك أعون لى على مساعدتك . ألا تريد أن أساعدك على العلاج ؟ » .

فابتسمت ليلى كأنما تباهى بعليها وقال الدكتور :

— ليس شيئا كثيرا ، مسكن فى الليل ، وآخر لمساعدة القلب : وقليل من الكونياك كل بضع ساعات ، ولزقة لتخفيف التهاب وتهوين الألم

الذى فى جنبك . وأهم من هذا كله أن تكف عن الكلام فإن الحرارة
عالية والكلام يضرک ولا ينفعک .

فقال إبراهيم :

— لا تخف . ولكن الأمر فيما أرى يحتاج إلى ممرضة فهل من سبيل
إلى واحدة فى الأقصر ؟ .

فتدخلت ليلي وقالت للطبيب :

— لاداعى لهذا — اليوم على الأقل ، وعسى أن لا نحتاج غدا إلى
شيء ، فإنه كما ترى مريض لا يتعب .

فابتسم إبراهيم وقال :

— مهلا ! سترين كيف أتعبك ! فلا تكونى واثقة جدا .

وأحس إبراهيم وهو يقول ذلك كأنه انتقل إلى عالم جديد لا تبالى فيه
المرأة إلى أن تضيف إلى ليلتها الساهرة ، ثانية وثالثة إذا احتاج الأمر ، غير
عابئة بأنها تقضى نهارها وليلها مع مريض مقضى عليه بالصمت . أهو الحب
الذى يقويها ويشد أعصابها ، وطافت برأسه صورة شوشو وتمنى لو أنها إلى
جانبه ترعاه وتحنو عليه وتغمره بطهارة نفسها — وابنه ؟ ابنه ؟ هل كتب
عليه . . ؟ وكبح نفسه مشجعا متصبرا ، وأراد أن يتكلف البشر ويتصنع
الاطمئنان كما فعل وهو يحادث الطبيب . ولكنه هز رأسه متأففا ومط فمه
مستنكفا ، فإن التكلف لا يكون بين المرء ونفسه . ومن عسى أن يجذع ؟
إنه مريض طريح وليس فى بدنه ذرة من الصحة . كل من حوله أصحاء
إلا هو فإنه أسير المرض . . وهو وحده الذى يحمل عار هذا . . وسيقول
كل من يسمع بمرضه « مسكين مسكين ! » حتى نجية إذا اتصل
بها الخبر ستقول أنه مسكين . وسيدركها العطف عليه ، لقد أرادت أن
تخطم له قلبه وأن تقصف له ضلوعه ولم تعبأ بذلك ولم تبال ما تهدى
إليه من آلام العمر كله . ولم تحتس أنها صنعت أو يمكن أن تصنع سوءا
ولكن قلبها سيتفطر إذا علمت أنه مريض وأنه مصاب ولو بركام ! أليس هذا

عجيبا ؟ ؟ بل سميحة أيضا ! سميحة التي لاشك أنها تبغضه ستتألم مخلصه .
نعم مخلصه . مافي هذا ريب .. وإن كانت هي التي جنت عليه وعلى شوشو
إذن سيعطف عليه الناس ؟ ألا أنه لمسكين حقا ! وعز عليه أن يكون موضع
عطف أحد من الناس - قريبا كان أو غير قريب - وأنف أن يرثى له أحد .
واستكبر أن يكون ذكره مقرونا بالشفقة عليه فإن العطف يضع المرء في
منزلة دون الناس فبأى حق يعطفون عليه ؟ ماشأنهم هم ؟ ليكن مريضا
وليكن مشفيا على الموت أيضا فإن هذا الأمر لا يعنى أحد سواه ! وأقسم في
سره لئن كان لابد من الموت ليفعلن

ولكن ما الداعي إلى التفكير في الموت ؟ ألم يقل له الطبيب :
« إني أهنتك مع ذلك ، فإنك مصاب بأهون أنواع الينيمونيا لابدلك
الطراز الحديث منها الذي نسميه « برونكو - بنيمونيا » وهو ضرب لانعرف
أبن نحن منه لأن الحالة لا تكاد تتحسن في موضع حتى تسوء في موضع آخر
أما « اللوبار بنيمونيا » فأبسط ، تبدأ بسرعة ويطرد الأمر فيها إلى الأزمة
بغير قلب وبدون محاورة ، وقد تستمر ثمانية أيام أو عشرة ، والمهم هو
الأوكسجين والنشاط ، الحيوية على الخصوص . الإرادة . فلاتنق حيويتك
في شيء آخر ولا تبعثر إرادتك وقوتك ونشاطك . وسنعطيك كل ما من شأنه
أن يزيد حيويتك أو على الأصح يحفظها ويدخرها . ولكنك أنت العامل
الأكبر في الشفاء فلا تقلق ولا تنزعج لأن الانزعاج يضعف الحيوية » .
ولم يعجب إبراهيم هذا الكلام ، ولم يرقه أن يكون هو العامل الأكبر
في الشفاء ، وود لو أن الطبيب اعتمد على عنصر أجنبي عن نفس المريض ،
عنصر لا يتأثر بخوالج النفس وعواطفها وما تجيش به من الذكر والآمال ،
وجعل وهو ينظر إلى السقف ينحى على الطبيب ويتهمة ، وكان واثقا وهو
يفعل ذلك أنه ظالم له ، ولكنه شعر أن الظلم لذيذ ، وقال لنفسه أن هذا
الطبيب قوى صحيح ففي وسعه أن يحتمل مقدارا عظيما من الظلم من غير
أن يضيره ذلك .

وقال لليلى، وهو ينظر إلى السقف، كأنما نخجل أن ينظر إليها وهو مريض :
— ألا تظنين أن الأوفق أن تطلبي ممرضة لتساعدك ؟
وقالت وهي تدنو منه وتمسح فمه بالمنديل :

— غدا نرى . لا داعي لذلك اليوم ، وقد وافقني الدكتور . وفي هذا مايطمئن . ولذلك أصر على الإرجاء .

فسره تعلقها بما يطمئن، ولكن الحاجة إلى الاطمئنان معناها أن هناك داعيا إلى القلق ، فلم يرتح إلى هذا الحاضر . وذهب من أجل ذلك يلح عليها ويقول :

— أنا أرى أنه لابد من ممرضة ، ان المريض يجعل الغرفة كالسفينة الجارية أعنى أن آلاتها لابد أن تغزل دائرة ليلا ونهارا ، بلا توقف . والليل والنهار ليسا في البحر سوى اسمين .

وابتسم لنفسه وقد أعجبه هذا التشبيه ، وخيل إليه أن تشبيهه هذا جعل مرضه يبدو طبيعيا . وذهب يفكر في غرفته كأنها سفينة ، ولكن ليلى أصرت فكف عن الكلام وأغمض عينيه وقد أسخطه على نفسه أنه أظهر ضعفا بالحاجة على ليلى أن تدعو ممرضة . ونسى أنه تعهد للطبيب أن يساعد نفسه ، وهاهو الآن يبدو تأيلى جباناً خواراً ويفضح نفسه أمامها ! ولماذا ؟ هل كل ما يصاب بهذا المرض يموت ؟ كلا ! فلماذا نخشى هو أن يموت ؟ وهبة مات فلماذا إذن ؟ انه سيلقى أجله على كل حال ، فما الداعي إلى هذا الوجل السخيف ؟ أى معنى لهذا القلق المزرى ؟ وعلى أنه سيشفى لا محالة . نعم فإن أكبر عامل في الشفاء هو المريض نفسه . ولو أن الشيخ على مكانه لتغلب على المرض بقوة الإرادة — إرادة الفوز . ولو أن أمه هو كانت هي المريضة لغلبت المرض . بقدرتها المدهشة على الاستخفاف به ، أو إذا شئت فقل بعجزها عن إدراك حقيقته ومدى خطورته — لا بل بقوة الاستخفاف ، بالاستهانة ، بالإيمان القوي الذى يجعل النفس تتلقى كل ما يصيبها باطمئنان وابتسام وقلة مبالاة بما يكون ، وبثقة بأن المصير خير على التحقيق ، وأنه لا موجب للاكتراث .

وسكنت نفسه وهو يتصور أمه تبتسم للموت وتهش لاستقباله وتهز
كتفها استخفافا به وفرحا بما بعده من جنة الله ورضوانه . وأحس بأنه قد
صار أهلا لأن يكون ابنها ، وخلصت أنفاسه ، وخف الألم الذي في جنبه ،
وارتاح وهو يشعر بما أحدثته فضيلة الإرادة وبنجاحه في تغليب العقل على
الجسم وتحكيم الروح في البدن فقد كانت فكرة واحدة كافية للتأثير في أنسجته
بل في عضلات قلبه .

وقال وهو يبتسم :

— إني الآن أحسن . . لقد أفادتني !

فقالت ليلى وهي تحنو عليه :

— ماذا ؟ ما الذي أفادك ؟

فقال من غير أن يحول عينه عن السقف :

— أمى ! .

— ٣ —

من الممكن أن يغتفر القارئ لليلي أنها فتحت عدة خطابات باسم
إبراهيم واطلعت على ما فيها . ولا شك أن هذا غير جائز ولكنه لا شك أيضا
أنها ألقت نفسها مرغمة على ذلك ، فقد كان إبراهيم لائما ولا مستيقظا ،
ولم يكن في وسع أحد وهو ينظر إليه أن يعلم أيهما هو ، أما الواقع فذاك
أنه كان بين اليقظة والنام — يهدى ، وكان يحلم بشوشو ويرى نفسه في بيته مع
أمه وابنه وكانت شوشو تراءى له في حلمه كأنها سيدة البيت ، وسره هذا
الحلم فراح يعجب لماذا لم يخطر له أن يرى هذا الحلم من قبل ؟ وكانت شوشو
تبدو له رائعة بينة العطف بارعة في إدارة البيت كفؤا لمطالبه ، وكان هو
يحس أن مجرد وجودها شفاء ، وأن نظراتها سماوية وأن حركاتها تفرغ أعضائه
وترخي جفونه وتشعره السعادة ، وأن كل امرئ يعبدها ويستوحىها ويستمد
منها الهدايا والإرشاد .

وتعلق إبراهيم بهذا الحلم وصار يتشبث بصورة ويسحر نفسه بمناظره وكانت أنفاسه كأنما تعالج الخلاص من شرك وكانت مناظر هذا الحلم تروح وتجيء بين خيوط هذا الشرك فالأمر مختلط ولكنه على هذا للذيذ . ولم يكن يدري أن ليلي واقفة إلى جانبه تنظر إلى وجهه وتلاحظه وهو يربد ثم يصفو ، وتسمعه وهو يناجي شوشو ، ولا كانت هي تدري من عسى أن تكون شوشو هذه التي يذكرها في منامه . وقد حسبتها - ولها العذر أختنا له وان كانت الغيرة قد همست في أذنها لعلها زوجة أو حبيبة . ولكنها لم تسمع إبراهيم قط يذكر أحدا من أهله أو أقربائه . وأغرب من ذلك أنها كانت تراه يتلقى الخطابات فينظر إلى الظروف ثم يلسها في حبيبه من غير أن يفتحها ، وكان هذا يسر ليلي منه لأنها اتخذته دليلا على أنه لا يريد أن يشغل نفسه عنها حتى ولا بخطاب ، فلو أن له زوجة أو حبيبة لدنعه الشعور بالواجب أو الحب إلى قراءة هذه الكتب ولما وسعه في كل مرة أن يصبر حتى يخلو بنفسه ، وكيف يمكن أن تكون له حبيبة أخرى ؟ ألم يهبها نفسه كما وهبته نفسها ؟ ألم يقطعها قلبه كله ؟ أكان من المستطاع أن لا يزل لسانه أو تشي حركة واحدة بأن له سواها ؟ كلا !

وصرفها طول هذياته ؛ وهي إلى جانبه ، عن هذه الخواطر الشخصية فعادت تفكر فيه هو وفي واجبها حياله ، فلم يبق عندها شك في أن واجبها الأول أن تتصل بأهله إذا كان له أهل ، وصحيح أن الطبيب قد طمأنها قليلا ولكنه لم يستطع أن ينفي مخاوفها كلها . وقد علمت منه أنه لا يزال أمامه بضعة أيام قد تكون خمسة وقد تزيد ، قبل الأزمة ، ولا سبيل إلى الجزم بشيء قبل ذلك ، وإن كانت الحالة العامة ، وحالة القلب على الخصوص ؛ لا تدعو إلى القلق .

ومن غير المعقول أن نسأل إبراهيم عن أهله وهو يكابد كرب هذا المرض . فإن مجرد السؤال قد يضعف حالته النفسية ويوقع في روعه أن صحته ساءت وأنه في خطر ، فالطريقة للعلم بما تجهل أن تبحث بين أوراقه لعلها تهتدي إلى شيء .

ولم يكن أسهل من ذلك لأنها تتولى كل ما تقوم به الممرضة والأهل
تعاونها في ذلك إحدى خادمتي الفندق كلما هدد السهر قوتها ، فهي التي
تسقيه الداء وتقدم له الغذاء المسموح به وتغير له ثيابه ، وتفعل غير ذلك كل
ما يحتاج إليه ولا تكل أمره للخادمة الا بضغ ساعات في الليل تنامها في غرفتها
المجاورة له ، وقد استغربت وهي تبحث في حقائقه أن ترى كل الرسائل غير
مفضوضة ، وزاد عجبها أنها جميعا موضوعة في ظرف كبير أصفر فليس
عدم قراءتها براجع إلى نسيان ، فان آية العمد هنا لاخفاء بها ، ولا بد أن
يكون لذلك سر ، واحمر وجهها وهي تقول لنفسها وفي يدها الرسائل ،
أترى لشوشو التي يهذى بها علاقة بهذا السر ؟

رننصف ليلى فنقول إنها طردت بهذا الحاطر وهي تمضي إلى غرفتها
بالرسائل وآلت أن لا تقرأ منها إلا بقدر ما تتطلب الضرورة ، ولكنها لم تكد
تفض واحدة حتى ألقت نفسها تسترسل في القراءة وقد ذهلت عن كل شيء
حتى عن مريضها — إلا سطور الشكوى المرة والفجعية القاسية التي ينطق بها
كل حرف مما كتبت شوشو في رسائلها التي لم تتلق عليها ردا ، وننصف
ليلى مرة أخرى فنقول إنها لم تشعر بذرة من الغيرة ، كلا . ولا بشيء من
الشبهة أو السرور الذي كان خليقا أن يفيدها إياه علمها — الناقص — إن
إبراهيم لا يجازي شوشو حبا بحب ، بل لا يعنى لسبب ما حتى بقراءة رسائلها ،
ومن أين لها أن تعلم أن حب إبراهيم لشوشو دفين في صدره وأن البركان
كأحر ما يكون وإن كانت فوهته لا تقذف بالحمم ؟ وإنما الذي شاع في نفس
ليلى هو العطف على شوشو ، عطف هو من كرم النفس لا من الشهامة المتنكره
حتى لقد بكت عيناها وهي تتصور الهول الذي تقاسيه شوشو والذي تم
عليه رسائلها

وأضحكتها رسالة الشيخ علي — أضحكتها عبارتها وإن كانت مع ذلك قد
كشفت لها عن جانب العناد والصلابة من نفس إبراهيم وأرتها مبلغ ما فطرت
عليه هذه النفس من الوعورة ، فلم يلبث ابتسامها أن غاض ، فذهبت

تفكر فيما تدل عليه هذه الرسالة العجيبة . ولم يخالجها شك في أن إبراهيم يطوى بين أضلاعه حكاية غريبة الأطوار .

ولكن اطلاعها على هذه الرسائل لم يفدها شيئا ولم يدينها من حل المشكل وكل ما عرفته أن هناك فتاة أو امرأة — فتاة على الأرجح فإن الجرح جديد — تحب إبراهيم — وأن أهلها واقفون في سبيلها ، وأنها في جحيم من العذاب والمكايدة ، وأن هناك رجلا اسمه « علي » ظاهر بين السطور أن له دالة على إبراهيم وأنه يحاول أن يتألفه من نفرتة ، ورسائل شوشو من الاسكندرية ورسالة « علي » من بلدة اسمها « م . . . » وقد تكون أو لا تكون هناك علاقة تنتظم هؤلاء الثلاثة : « إبراهيم ، وعلي ، وشوشو ، وطوت الرسائل وهمت بإعادتها إلى حيث كانت وإذا بالخدام ينبئها أن إبراهيم مطلوب إلى التليفون ، فماذا يجيب ؟

فسأله : « من الذى يطلبه ؟ » .

قال : « أبى أن يذكر لى اسمه . ولكنه يتكلم من بلدة م . . : » .
فنهضت وقد طاف برأسها أن لعله « علي » صاحب الرسالة وقالت :
— حسنا . سأخاطبه بالنيابة عنه .

ومضت تعدو إلى التليفون ، وكان الذى يخاطبها هو الدكتور محمود لا الشيخ علي ، فعلم منها أن إبراهيم مريض وأنه مصاب بالبنيمونيا وأن له ثلاثة أيام ، ووصفت له الحالة ونظام العلاج بأدق ما تستطيع ، ولم تستطع هى — من ناحيتها — أن تعرف أكثر من انه الدكتور محمود ، وانه سيكون فى الأقصر بعد غد .

ولم يسألها من هى ، ولعله ظنها ممرضة ، وكان واضحا من لهجته ولهفته ومن إعلانه إليها انتواءه الحضور إلى الأقصر أن له بإبراهيم صابة وثيقة ، ورجحت أن يكون من ذوى قرابته الدينين ، فعادت وهى تحس أن مسئوليتها قد خفت ، وان لها الآن أن تطمئن من ناحية الاتصال بأهله .

الفصل التاسع

(من هو جاهل فليمل الي هنا)

نقر الخادم على باب الشيخ على ودعاه أن يوافي الدكتور محمود في حجرة المطالعة ، وكانت الساعة لم تتجاوز السابعة ، فوقف يتمطى ويلعن الدكتور ويتسخط منه هذا النشاط ، وكانا قد وصلا إلى الأقصر قبيل منتصف الليل ، فطلب الدكتور محمود من عامل الفندق أن ينيء « السيدة » التي تتولى أمر ابراهيم أنه قدم وأنه يريد أن يراه أول شيء في الصباح .

ودخل الشيخ على غرفة المطالعة فلم يجد بها أحدا ، وكان جائعا وقلقا فلم يستطع أن يستقر في مكان ، وجعل يروح ويعجىء وهو يغمغم ويتمتم ، وأنه لفي إحدى هذه الروحات والغدوات وظهره إلى الباب ، إذا بصوت ناعم حلو يقول :

— بونجور يا دكتور .

وذكر بالصوت صوتا آخر يشبهه . فهم أن يلتفت إلى مصدره ولكنه تردد فإن الخطاب ليس موجهها إليه وإن كان يعلم أن ليس في الغرفة سواه ، فهل دخل غيره وهو لا يشعر؟ وخطا خطوة وهو يتوقع أن يسمع رد الدكتور على التحية ، ولكنه لم يسمع شيئا فعجب وتوقف ودار على عقبه وإذا به يرى الفتاة التي أسمعته ما يكره في عيادة طبيب الأسنان في الإسكندرية ، وكانت مقبلة عليه وعلى ثغرها ابتسامة وضيئة ، ويدها كأنها تهبأ للمصافحة ، ولم يكد يراها حتى جمد في مكانه وند عن صدره صوت لا يحسن وقعه في اذن فتاة ولو كانت دميمة بغیضة . ولم تكدها تراه حتى كأنها صدها جدار ، وغاضت الابتسامة ، وامتقع وجهها وارتفعت يدها إلى خدها .

ولكن الشيخ على ضبط نفسه بسرعة فابتسم وهو يقول :

— معذرة فاني لم أنس العلقه ، ولم اتوقع أن نلتقى بهذه السرعة .
فابتسمت بجهد واضح ، وتلفتت يمينا وشمالا ، وفي عينيها كل
امارات الحيرة والتردد والدهشة ، ولحظ الشيخ على هذا ، فرده إلى ما كان
بينهما من التناوب ، وسره ارتباكها وما توهمه من خجلها لما كان من تطاولها
عليه ، وأراد أن يسرى عنها فقال وهو يدنو منها :

— لا تخافى فاني وديع كالهرة وان كنت ضحما كالقيل . وما تحملت
مشقة السفر لأخذ بثأرى بل لأعود مريضاً . وقد كانت بيننا حرب فليكن
بيننا صلح .

ولم يصدق الشيخ على أنه هو الذى قال ذلك . ورضى عن نفسه لما قاله ،
فلج في الابتسام واجترأ فمد يده الكبيرة .

ولم يخالج ليلى شك حين سمعت هذا الكلام منه انه هو الدكتور قريب
إبراهيم ، فلم يبق لها مفر من أن تنىء إلى المحاسنة وأن ترد نفسها عما
همت به من المحاشنة ، وأحست أن كونه قريب إبراهيم من شأنه أن يرفع
الكلفة فتناولته كفها البضة وقالت وقد عاد وجهها يرف .

— انى مسرورة بلقائك . وأؤكد لك أن وجودك هنا من أكبر نواعى
ارتياحى واطمئناني .

وضحكت وهى تضيف إلى ذلك :

— لقد صدق المثل مرة أخرى : الى أوله خصام آخره صلح . .
أليس كذلك ؟

فدارت الأرض بالشيخ على ، ولم يعد يدرى أواقف هو على رأسه
أم على قدميه ؛ وشاعت السعادة في جسمه وفشت فيه الغبطة طولا وعرضا ،
واهتز كيانه كله وهو يضغط كفها الدقيقة اللينة ويرفعها إلى شفثيه وينحنى
عليها ويطبع فوقها قبلة صامئة طويلة .

فاضطرم وجه ليلى واضطربت ، وأسرعت فجذبت يدها وقد راتج
عليها فلم تعد تدرى ماذا تقول ، وأذهلها هذا السلوك الجريء
وتنازعتها عوامل شتى متضاربة ، وكبر في ظمها أن هذا رجل

مستهر . وأرعبتها نظرتة الناطقة باشتهاء المطمئن إلى تحقيق رغبته الواثق من وقوعه على فريسته .

وبينما كان الشيخ على يميل كالجبل ليلثم كف ليلي ، وعينه معلقة بعينها ، وعلى وجهه آيات الافتتان ، كان الدكتور مقبلا ، فلما هم أن يدخل أخذت عينيه هذا المنظر فكاد يجمد في مكانه ، فما رأى قريبا قط في مثل هذا الموقف ولا كان . يجري له في وهم أن للشيخ على عهداً بذلك ، ومنعه احترامه لقريبه أن يقدم على مفاجأته أو يجترى على مقاطعة ، فارتد على عقبه وذهب من حيث جاء وقد نسي إبراهيم لحظة وانصرف تفكيره إلى تصابي الشيخ على ومنظره وهو كالفييل يحنو على غزال ، فضحك وقال :
— ولكن من عسى تكون الفتاة ؟

ونخطر له أن لعلها ممرضة إبراهيم ، فما كان يظن أن التي كلمته في التليفون إلا ممرضة ، وله العذر ، ومن أين يعرف حقيقة الصلة التي بينها وبين إبراهيم ؟

وقال لنفسه أن هذه الفتاة لابد أن تكون الممرضة ، فما يعقل أن يستطيع الشيخ على أن يصل بمثل هذه السرعة إلى لثم الأكف إذا كانت الفتاة أجنبية أي إحدى النازلات في الفندق ، ولكن ماذا يمنع أن تكون صاحبة له التقى بها مصادفة ؟ وما دام الشيخ على يعرف كيف ينحني ويقبل أيدي الغواني فلماذا لا تكون له صلات مجهولة بنساء أخريات ؟
وحار الدكتور ماذا يصنع ، وليتصاب الشيخ على كما يشاء وليغازل من يحب فان هذا لا يكاد يعنيه ، وفي وسعه — أي الدكتور — أن يدعه وما يختار لنفسه ، والمهم عنده هو أن يقابل الممرضة ليعود إبراهيم من غير أن يزعجه أو يحدث اضطرابا أو يثير في نفسه المخاوف من جراء مرضه ، لابد من الاتفاق مع الممرضة قبل العيادة لتقوم بما يلزم من التمهيد فكيف يلقاها ؟ ان مواعده معها — ونظر إلى ساعته فألفاها قد جاوزت الوقت الذي عينته — في حجرة المطالعة ، وحجرة المطالعة يشغلها هذا الدون جوان وصاحبته ، فما العمل ؟ أيبعث إليها

بالخادم يدعوها ؟ إن معنى هذا يكون أنه سينيب عنه الخادم في مفاجأة قربه ومقاطعته إذا كانت الفتاة هي المريضة ، وابتسم وهو يحدث نفسه بأن مقاطعة الخادم لهذا الفصل الغرامى لن يسوء وقعها في نفس قربه أولاً ، لأن الشيخ على لن ينجعل على الأرجح من خادم غريب ، وثانياً لأن الخدم — على الأرجح أيضاً — أقدر على انقاذ الموقف .

واستقر رأيه على ذلك .

ولم تكن ليلي أقل اضطراباً وحيرة ، فإن عليها أن تحتل — من أجل إبراهيم — جرأة من توهمته طبيبا وقريبا لإبراهيم ، ثم لابد لها من صده وإلزامه حدود الأدب فهاكت نفسها بجهد وقالت :

ألا تجلس ؟

فقال الشيخ على إلى الكرسي وانحط عليه ، وقد نسي أنه على موعد مع الدكتور محمود في هذه الحجرة بعينها ، وأنه قد يدخل عليهما في أية لحظة ، ودار في نفسه أن ما تحدث عنه وهو يمزح من خطف هذه الفتاة التي أوجعته في عيادة طبيب الأسنان ، يوشك أن يتحقق فابتسم ابتسامة عريضة وقال :

— قلما تصدق الأحلام ، ولكن حلمى في هذه المرة صادق . ولعل هذا لأنه من أحلام اليقظة .

فلم تفهم ليلي ، وخافت أن يكون هذا الكلام مقدمة لما تكره فقالت :

— أرجو أن تنتظر لحظة . لن أغيب طويلا .:

فنهض وهو يقول بلهفة :

— ولكن لماذا تذهبين وتركينى بهذه السرعة ؟

فعمجبت لسؤاله ولكنها لم تر بأسا من الشرح فقالت :
دقائق ، فإن الواجب يقضى باتخاذ الحيلة إتقاء لعواقب المفاجأة .
أليس كذلك ؟

— يا عصفورى البديع ! .

ولما اختفت زاد على ذلك :

— لقد كدت والله آكلك !

وراح يتمشى .

ومن عجائب النفس الإنسانية أن الحالة التي تكون مسئولية عليها هي التي
تكسب المعاني ألوانها . بل هي التي تعين للألفاظ معانيها .

ولم تكد ليلى تسير بخطوات حتى قابلها خادم وقال لها باحترام :

— إن الدكتور محمود ينتظرك ياسيدتى فى الصالون .

فوقفت وسألته مستغربة :

— الدكتور محمود ؟ من عسى أن يكون ؟

فقال الخادم :

— الذى وصل أمس يا سيدتى :

فدهشت ليلى وقالت :

— ولكنى كنت معه الآن . منذ نصف ثانية ، وقد تركته هنا .

وأشارت إلى غرفة المطالعة . فقال الخادم مصرا :

— كلا ياسيدتى . ان الدكتور محمود فى الصالون وأنا آت من عنده

الآن ..

فتلفت ليلى كالحائرة ثم قالت :

— إذن من الرجل الآخر الذى هنا ؟ .

فقال الخادم : « لأدرى يا سيدتى » .

فأيقنت ليلى أنها كانت مخطئة حين توهمت أن هذا الرجل الذى

كانت معه هو الدكتور ، وثارت نفسها سخطا عليه لانه تركها تظنه طبيبا ،
وتحدثه بلا كلفة ، ومع أن الشيخ على لا ذنب له في هذا الخطأ ، ومع أنها
هى المسئولة عما توهمت ، فقد راحت تنحى على الشيخ على وتهمه وتلعنه
وأحست أن كفها التى قبلها قد اتقدت فيها نار ، وقفلت راجعة وهى
لا تعى ما تفعل ، واندفعت داخلة إلى غرفة المطالعة : وما كادت عيناها
تقع عليه حتى صاحت به :

— أيتها الوحش ! كيف تجرؤ ؟

وكان الشيخ على يبتسم حين رآها مقبلة ويهم أن يفتح لها ذراعيه
فأحس حين سمعها كأنما وقع على نافوخته جبل . وتنكرت الابتسامة
على ثغره فصار وجهه مشوها ، ولم يستطع أن ينطق بأكثر من « ايه ؟ »
بصوت مبحوح متهدج .

فصاحته به مرة أخرى .

— وحش . نعم . وثور ايضا . هذا أنت ويجب أن تعلمه .

ودارت خارجة وخلفته واقفا كالتمثال .



سلم الدكتور محمود على ليلي سلام طبيب على ممرضة ، بأدب وابتسامة
المتواضع ، وأشار إلى كرسي وقال بلا تمهيد :

— كيف مريضك الآن ؟

فلم يعجبها هذا منه ، وكانت أعصابها لا تزال متوترة مما وقع بينها
وبين الشيخ على ، فتجاهلت سؤاله وقالت بلهجة جافية :

— لقد انتظرتك في غرفة المطالعة . هناك كان موعدنا .

فرمى إليها الدكتور نظرة فيها من العجب والسخر معان ، وقال وفي ظنه
أنه سيردها إلى مستواها الذى يجب ألا تعدوه :

— معذرة . ذهبت ثم تراجعت .

وكان يحسب أن هذه الإشارة كافية ، فقالت ليلى بالحاج ولكن بفتور
— لماذا تراجعبت ؟

فزاد عجب الدكتور واعتدل في كرسيه قبل أن يجيب وقد خطر له
أنه ربما كان مخطئاً ، ولعل الفتاة التي رآها مع قريبه غير هذه .
— رأيت في الحجرة ناساً .

واقصر متردداً . فتجههم وجهها وقالت وقد انتوت أن تعلن الحرب :
— أتستطيع أن تفسر لي هذا الكلام ؟

فلفت وجهه إليها بسرعة وسألها :
أى كلام ؟

فقالت وهي تسدد إليه نظرها :

— كون وجود الناس يردك عن مقابلي ؟

ومع اعتقاده أنها ممرضة وان كانت في ثياب غالية ، كان في لهجتها
من العنف وفي نظرتها من القوة وفي هيئتها من السميت ما أكرهه على احترامها .
ففرك كفيه وطأ رأسه وهو حائر لا يفهم وقال :

— أرجو المَعذرة إذا كنت لا أفهم ما تقصدين إليه .

فقالت بلهجة الإصرار :

— هل كان موعدنا على خلوة ؟

فرفع رأسه فجأة وقال : « سبلي ! » .

ولكنها لم تهتز وألحت عليه :

أجب من فضلك !

فدار حتى واجهها وقال :

— أرجو المَعذرة مرة أخرى ، ولكنى لا أفهم عن أى شيء تتكلمين
فظلت ثابتة الحلاق لا تحول نظرها وهي تقول :

— اريد ان افهم لماذا منعك وجود الناس ان تقابلنى هناك بدلا من ان تدعونى الى هنا ؟

فأحس كأنه أمام محقق وقال متهربا :

— هل كنت هناك ؟

فلم تدعه يتحول بها عن الميدان الذى اختارته للمنازلة وقالت :

— أجبني أولا من فضلك .

فأطاعها وهو لا يدري لماذا يطيعها وقال :

— اعتذر للمرة الثالثة ولكنى حين هممت بالدخول أحسست أن وجودى

غير مناسب .. أعنى ..

فزادت شداً عليه وسألته مقاطعة :

— ماذا تعنى ؟ لماذا أحسست بهذا !

فتلعم وقال :

— ألا تعفينى ياسيدتى ؟

فجالت : « بل يجب ان تقول فإن الأمر يعنينى » .

فرأى الدكتور فرصة سانحة للتخلص وسألها :

— هل كنت أنت الواقفة مع الشيخ هلى ؟

فجالت لا أدرى مع من كنت واقفة ، ولكن الذى أدرى به أنه وحش

قليل الأدب » .

فكأنما شكته بسيف محمى فوثب إلى قدميه وهو يقول :

— سيدتى !

فجالت : « أيعنك أمره ؟ » .

فقال ، وهو يعود إلى الجلوس :

— انه قريبي يا سيدتى .

فلم تنهزم وقالت :

— ان كونه قريبك لا يمنع ان يكون كما اصفه : وحشاً قليل الأدب .

فتمتم : « ولكن .. ولكن » .

فقلت : « قد عرفت ماذا هو فى رأيي ، واطنك رأيت منه معي مايكفى لاقتناعك بآني لا اظلمه . أأست تقول انك ارتددت فلماذا ؟ لقد تركني اتوهم انه هو الدكتور وارفع الكلفة بيني وبينه من اجل ابراهيم فجرأه الخطأ الذى اوقعني فيه على تقبيل يدي ومغازلتى . . . والآن دعني منه : وقل لى بماذا تشير قبل ان تعود ابراهيم ؟

ولكن الدكتور لم يستطع ان يتابعها على نقل الموضوع بهذه السرعة واستغرب ان تذكر ابراهيم باسمه مجردا من كل تلقيب ، وشك لأول مرة فى انها ممرضة ، بل أيقن انها ليست كذلك ، فمن عساها تكون ؟ أيسألها ؟ نعم هذا واجب اتقاء لكل سوء تفاهم يحدث بعد ذلك . فقال :

— فهل تسمحين لى بتعريفى بنفسك ؟

فقلت بفتور : « اوه ! يمكنك ان تدعوني ليلي ، لا بأس .

» لا بأس ؟ ماذا تراها تعنى ؟ وبدأ يقول :

— هل افهم انك

فقاطعتة قائلة : « لا تفهم شيئاً من فضلك . ان ما فعله معي قريبك يكفيني فى يومى هذا .

فعاد الدكتور يعتذر ، ونفض يده وهو يائس من محاولة الفهم واتفقا على ان ليلي تتولى مصارحة ابراهيم بحقيقة السبب فى حضور الدكتور والشيخ على ، وذلك لأن ليلي اضررت على أن الحقيقة اولى واخف ضرراً ، وقامت ليلي لتمضى ما اتفقا عليه .

ولم تكذب حتى خف الدكتور إلى الشيخ على في غرفة المطالعة فلم يجده ، فراح يسأل ويبحث حتى وجدته يتناول طعام الإفطار فقعد أمامه وقال بلا مقدمة :

— ما هذا الذي فعلته ؟

فرفع الشيخ على وجهه الكبير وقال وهو مقطب :

— أهي مطاردة؟ أم مؤامرة؟ كل وأنت ساكت والا فلست والله مستولا عما يصيبك .

.. فابتسم الدكتور وقال :

— سمعا وطاعة . ولكني أردت أن انبهك إلى أنها ليست ممرضة .

فصاح به الشيخ على .

— أتريد أن أقطع لسانك بهذه السكين ؟

فضحك الدكتور وقال :

— وتأكله مسلوفاً أم محمرا ؟

فلم يجبه الشيخ على وأقبل على الطعام يلتهم منه ما لا يحسب الحاسب ، ولما فرغ اضطجع على كرسيه وقال :

— هل عند هؤلاء الناس قهوة؟ اعني الكفاية من القهوة ؟

فأمر بها الدكتور ، ثم قال وهو ينظر إلى الساعة :

— سأدعك لأرى ماذا صنعت ليلى . . .

فاعتدل الشيخ على وسأله :

— ليلى؟ من تكون هذه أيضاً ؟

فقال الدكتور وهو يرد الكرسي إلى الوراء وينهض :

— ليس المستول بأعلم من السائل ، كل ما أعرفه أنها ليست

ممرضة وحتى هذا عرفته استنتاجاً .
 فعاد الشيخ على إلى الاضطجاع وقال :
 — قد عرفت على الأقل اسمها . وسرى .
 فقال الدكتور وهو يبتسم :
 — ارجوان تحذر فإنها ليست فتاة عادية . ثم اننا لا نعرف من امرها شيئاً ، اعنى علاقتها بإبراهيم . ان في المسألة على ما يبدو لى لغزاً ..
 فقال الشيخ على متهمكماً :
 — واذت الذى ستحله ؟ هيه ؟ اهنتك مقدماً !
 ثم قال بلهجة الجدد :
 — متى ارى إبراهيم ؟ انى لم اجد لأجل الغاز بل لأراه ، ومتى رايته واطمانت نفسى فإن الوقت يتسع لحل الغازك .
 فقال الدكتور : « ساخبرك بعد ان اقابل ليلى » .
 فقال الشيخ على : « ما أسرع ما صرت تتكلم عنها كأنها اختك الا بأس ، وأنا ماذا اصنع بنفسى بين هؤلاء الناس إلى أن يجيئنى الاذن ؟ »
 فقال الدكتور : « يمكنك ان تمشى فى الحديقة قليلاً ، او تنتظر فى الصالون ، انها مسألة دقائق او نصف ساعة » .
 فنهض الشيخ على وهو يدمدم ويقول :
 — اتمشى . انتظر . انفلق . ماذا يهم : ألسنت وحشا ؟ ثورا ؟ أليس كذلك ؟ ولى حوار أيضاً ؟ هيه ؟
 وخرج يدب ويرج الأرض .

الفصل العاشر

((ولا يعلم أن الأخيلة هناك وأن في أعماق الهاوية ضيوفها))

— ورأيت هذا الفيل الطيب القلب ؟

وابتسم ، وبوده لو يستطيع أن يضحك ، ولكنه كان أضعف من أن يحاول ذلك أو ينجح لو أنه حاوله ، وكان — وهو ينظر إلى سقف غرفته — يتصور الشيخ على يميل على ليلي ويرفع كفها الرخصة ليقبها فيتركيانه كله من فرط السرور بها. المنظر ، وقال وهو يحول وجهه إلى ليلي :

— لست أتف عليك خرطومه ياليلي لما أفلت أبدا . اتعرفين أنه بعد أن قص علينا ما فعلت به في الاسكندرية ، اندرنا جميعا — ولا سيما زوجته — أن يخطفك ؟

فضحككت ليلي ، ووسعها الآن أن تضحك بعد أن روت لإبراهيم ما حدث بينها وبين الشيخ على في الأقصر والاسكندرية جميعا وعرفت ما حفل به الموقف من عناصر الخطأ المضحك وقالت :

— لقد غفرت له ، فاغفر له أنت أيضا ..

فقال إبراهيم مقاطعا : « ماذا ؟ »

قالت : « تقبيله يدي .. اتغفر هذا ؟ »

فابتسم إبراهيم وقال وكأنه لم يسمع :

— ولا يزال فيلنا هائجا ، بلهله حقيقة الموقف ، وأحسبه الآن يصب غضبه على رأس الدكتور محمود المسكين ، اني اعرف الشيخ على وأكاد أكون على يقين مما يفعله بالدكتور الآن ..

فقالت ليلي وهي تنهض وتمسح لإبراهيم جبينه :

— يحسن إذن أن أدعوها الآن فقد بدأت أخشى أن يحقق بالدكتور
سوء . . .
فقال إبراهيم : لا لالا : إن غضبه لا يضر أحدا ، ألم أقل لك إنه
فيل طيب القلب ؟ » .



وقال إبراهيم وهو يعد كفه ويصافح الدكتور محمود والشيخ على .
وعلى فمه طيف ابتسامة :
— أشكركما جدا . تفضلا . أحسب زوجتي قد أخبرتكما بكل شيء
تفضل هنا يا دكتور . إلى جانبي .
قال ذلك بصوت عادي متزن النبرات لا أثر فيه للاضطراب . . وإن
كان ضعيفا خافتا بسبب المرض ، ومن غير أن ينظر إلى ليلي أو الشيخ على
فأما الدكتور فاستغرب أن يكون إبراهيم قد تزوج في هذه الفترة القصيرة
ولكن الخبر لم يصدمه ، لأنه لم يكن يعرف شيئا يجعل زواج إبراهيم من أية
فتاة أمرا موجبا للدهشة وشعر بأن عليه أن يعتذر ليلي من توهم أنها ممرضة
ومما أدى إليه ذلك من استخفافه بها حين التقى بها في الصالون ، فالتفت إلى
ليلي وقال قبل أن يجلس :

— لقد كنت سيء الأدب فألتبس الصفح .

وعجب ليلي التي كانت تطفر إلى جانبيها وهي تدعوها إلى غرفة
إبراهيم ماذا أصابها فجأة ، فقد كان وجهها ممتعا وجبينها مقطبا وفي
نظرتها سهوم وشروء ، ولاحظ أن ابتسامها له وهي تقبل اعتذاره ،
متكلف ، فعجب ، وقال لنفسه : لم أعد أفهم شيئا ، فلإن هذه الألغاز
أكثر وأشد تعقيدا من أن أقوى على حلها . حسن ! إن واجبي الأول هو
نحو هذا المريض . وبعد ذلك يتسع الوقت لحل الألغاز إن كان حلها سبيل .
وجلس .

وأما الشيخ على فقد وجم ، ودارت به الأرض ، وكاد يعثر وهو يمشي

على الكرسي : وكان كرسيا من القش له ذراعان ، فلما هبط عليه ألفاه
لا يتسع له ، فنهض ليتخذ سواه ، ولكنه كان قد انحسر فيه فظل عالقا به
ومرتفعا عن الأرض وراءه ، فثارت ثائثرته ونسى أنه في حجرة مريض
وانتزعه بعنف ثم تناوله ورماه بقوة ، وصاح بهم جميعا :

— إن لم تحطموا هذا الكرسي حالا . .

وأمسك ، وقد تذكر أين هو ، فسار إلى الكنبه وانحط عليها فأنت
متوجعة وأغمض عينيهِ وراح يفكر في إبراهيم وعناده وكبره ، وفي هذا
الخلق الوعر الذى دفعه إلى الزواج من فتاة غير شوشو التى يحبها وتحبه .
نعم يحبها ، فما كانت ذرة من الشك تخالج الشيخ على أن إبراهيم لا يزال
وسيطا يحب شوشو كأحر ما أحبها ، بل كان الشيخ على واثقا أن مرض إبراهيم
ليس البنيمونيا فإن هذا وراء أطباء سخفاء ، وإنما الذى به هو من أثر الصراع
الهائل بينه وبين نفسه ، وليس هو بالشيخ على إذا لم يكن ظنه صائبا ، بل
هو لا يعرف إبراهيم إذا لم يكن الأمر كما يتصوره . وكر الفكر به إلى
شوشو المسكينة التى لم يكن ينقصها أن تهوى على أم رأسها هذه الضربة ،
شوشو التى اضطره سفره أن يعيدها إلى الاسكندرية . . إلى مكابدة سميحة
وغباء نجية وكثافتها ، ولتد صار واجبه الآن نحو هذه الفتاة أقسى وأفدح
فماذا يصنع ؟ أليس الأولى به أن يطير راجعا إلى الاسكندرية ؟ ماذا
يصنع هنا فى الأقصر ؟ إنه ليس بطبيب ، وقد خرج الأمر من يديه فيما
يتعلق بإبراهيم ، وهو هنا لاتنقصه العناية . له طبيب يعالجه وهذا طبيب
آخر معه . وثم هذه الفتاة المجنونة ترعاه وتسهر عليه ، فايس إبراهيم هو
الذى يحتاج إلى العناية بل شوشو .

وتوجع الشيخ على وهو قاعد على الكنبه وجعل ينفخ ويتلوى غير شاعر
بمن حوله أوعاىء بهم . وكانت عيونهم لم تتحول عنه منذ رمى الكرسي
وأضحكهم بثورته ، ولم يلبثوا أن رأوا وجومه وتملله فغاض الابتسام ،

وإن كان لم يظن أحد إلى ما في رأس الشيخ على غير إبراهيم ، ولم ينقد الموقف غير الدكتور ، فقد التفت إلى ليلي وقال :

— هل تسمحين بأخذ الشيخ إلى مكان آخر ربما أفحص الأستاذ ؟

فقالت ليلي وهي تدنو من الشيخ على :

— تفضل معي .. دقائق ثم نعود .

فانتبه الشيخ على ووثب ، وهو يقول أو يصبح على الأصح :

— معك ؟

فلم يسعها إلا أن تبثسم وقالت :

— نعم . وثق أني سأكون وديعة جدا .

— ٢ —

وتقدمته ليلي إلى غرفتها ، وأوصدت الباب وراءه وقالت وهي تسير إلى الكنية :

— هل أدهشك أني زوجة إبراهيم ؟

ولم يكن يتوقع أن تفاجئه بهذا السؤال ، وخاف أن يكون تمهيدا لهجوم جديد فعلة ثالثة ، غير أن ليلي كانت تبثسم ، ولا بتسامتها سحرها فقال :

— لا تؤاخذيني ، إنني لم أفق بعد . ماذا كنت تقولين ؟

فقالت ليلي ، ممضية عزمها على الوصول إلى غرضها من أوجز

طريق :

— أقول إنه في وسعي أن أؤكد لك أنك تستطيع أن تعتمد على .

فتذكر العلقين ، وقال :

— لاشك . لاشك . وهل هذا أول عهدي بك ؟

فجلست إلى جانبه وهي تكتم الضحك وقالت :

— دع هذا الآن ، وقل لي هل تعرف شوشو ؟

فغام وجهه بل أربد ، ونسى التي بجانبه وهو يقول :

— أعرفها ؟ لاحول ولا قوة إلا بالله ! مسكينة . مسكينة .

فقلت ليلي :

— أعرف ذلك . أعنى أنها مسكينة . ولكن هذا كل ما أعرفه فزدنى بها علما ، حدثنى عنها .

وكان فى لهجتها من الحنو ، وفى وجهها من آيات العطف ما بهت له ، وطاف برأسه كخطف البرق أن لعل لإبراهيم — إيثارا منه للصراحة والاستقامة — قد ذكر لها طرفا من علاقته بها ، وخاف إذا هو أجابها إلى ماتطلب وحدثها عن شوشو ، أن يجاوز القدر الذى رأى إبراهيم أن الحزم يقضى بالاكْتفاء به ، والصراحة لا تستوجب أكثر منه ، فقال وهو يحاورها :

— إذا كنت تعرفين أنها مسكينة فقد عرفت كل شيء . . فماذا تبغين ؟

وأدركت ليلي أنه متردد ، وفطنت إلى الباعث له على ذلك ، وشاورت نفسها بسرعة فاقتنعت بأنه معذور مادام يعتقد أنها زوجة إبراهيم وایقنت أن من الإحراج القاسى أن تطالبه بالصراحة أو تدفعه أو تستدرجه إليها مادام أن هذا هو اعتقاده ، وقررت أن تخطو الخطوة الحاسمة وتهدم كل حائل دون الوقوف على الحقيقة فقلت :

— إذا كان ما يدعوك إلى التردد هو ظنك أنى زوجة إبراهيم . . فوثب إلى قدميه وقال :

— ظنى ، ظنى ؟ لست إذن . .

فجذبتة إلى الكنبه ورفعت اصبعها إلى فمها مخدرة وقالت :

— لا ترفع صوتك لئلا يسمعا . كلا . است زوجته . ولم أكن أتوقع أن يقدمنى إليكما على أنى زوجته . لقد فاجأنى بذلك كما فاجأك تماما . . ولا شك أنه فعل ذلك مدفوعا بمروعة نفسه . . الشهامة هى التى ألجأته إلى وضعى فى هذا المركز . . الى رفعى هذا المقام . أراد أن ينقذنى . . أفهم ؟ . أيعملك الآن مانع أن تحدثنى عن شوشو ؟ لقد قرأت رسائلها

إلى إبراهيم .. رسائلها التي لم يفتحها هو ولم يقرأها .. فتحتها أنا . وجدت
نفسى مضطربة إلى ذلك . لأعرف هل له أهل فأبلغهم أنه مريض . لاشك
أنى ارتكبت ذنباً فثايماً .. ولكنه كان ذنباً لا مفر من ارتكابه ، ولو كان
أى إنسان آخر مكانى .. لو أن مدير الفندق الذى لا يعنيه من أمر إبراهيم
شئ . كان مكانى لما اجترأ أن يسأله عن أهله وهو مصاب بهذا المرض
الخفيف . واكنى مع الأسف لم أتبين من الرسائل شيئاً سوى أن من تدعى
شوشو تقاسى مثل أهوال الجحيم ؟

فقال الشيخ على ، والدمع يترقرق فى جفنيه :

— هل قلت إن إبراهيم لم يفتح هذه الرسائل ؟

فقالت : « نعم . وجدتها محفوظة فى ظرف كبير وليس بينها واحدة
مفوضة حتى ولا رسائلك أنت » .

فهز الشيخ رأسه وقال :

— لم يكذب ظنى . ما أعمق الجرح الذى فى صدره !

ووضع يده على كتف ايلي وقال بصوت يفيض عطفاً ورقة :

— لقد كدت أصعق حين سمعت أن إبراهيم يقول إنك زوجته ..
معذرة . فليس لشوشو من يحزن عليها غيرى . لست أباهاً ولا أخاهاً —
ولا هى لها أب أو أخ ولكنى ابن عمها ، وزوج أختها . غير أنها مع هذا
أقرب إلى قلبى من زوزو — زوزو بنتى . أفهمين ؟ أحب إلى من بنتى
فهل تعذرينى ؟

فهزت رأسها أن نعم . أفهم وأعذر — ومضى هو فى كلامه فقال :

— واكنى لم أفقد ثقى بالله . كان شئ يهوس فى أذنى أن الله أكرم
وأعدل من أن يرمى شوشو بقاصمة الظهر إنهما حبيبان ، صدقيني .
لا تصدق إبراهيم . لا يخذلك ظاهره الساكن ، إنه بئر لا قرار لها . لا أعنى
أنه كاذب أو خاش . ولكنى أعنى أن ما يدفنه فى صدره لا ينشر . وهو

قاس جداً . . . على نفسه . . . مجنون إذا شئت واكنه جنون رائع لأنه
جنون الإرادة القوية .

وقص عليها الحكاية ثم حلق في وجهها وهو يسألها :
— فهل لك في حلتي ؟ انى اتوسم فبك القدرة على ما عجزنا جميعا
عنه ، وإن كنت لا أعرف مكانك من نفس إبراهيم على التحقيق ، ولكن
حسب أى امرىء ماسمعنا منه الآن .
فقالت ليلي مقاطعة :

— لقد كنا — أنا وإبراهيم — حبيبين أيضا ...
فقال الشيخ على : « كنا ؟ ماذا تعنين ؟ » .
قالت : نعم كنا . أما الآن فلانى أخلى مكانى لشوشو »
ولم يكن يبدو عليها شىء من التزيق الذى احتملته فى صدرها حتى
استطاعت أن تنطق بهذه العبارة . وراع الشيخ على ظاهرها الساكن الذى
تكذبه نظرتها الميتة ، فلم يملك نفسه فجذب رأسها وطبع على رأسها قبلة
أبوية وقال :

— لست امرأة ، إنك ملك . لم أكن أعرف أنكما .. تالله ما أغبانى !
كلا ! لست أقوى أن اسلبك إبراهيم . إنه لك . وأنت أيضا أهل لذلك .
وفى هذه اللحظة سمعا نقرا فنهضت ليلي خفيفة لتفتح الباب .

الفصل الحادى عشر

« مثل ندى حرمون النازل على جبل صهيون »

وضعت ليلى يدها على أكرة الباب الموارب بين الغرفتين ووقفت منصتة لا تنظر ، فقد كان السكون الخيم فى غرفة إبراهيم رائعا ، ولعل القارىء يعرف ذلك السكون الذى يسود النفس فكأنه يدخل الجسم وينفذ إلى القلب ثم يذهب يغرد ويشدو بمدح لاشئ . أو لعله يجرب ذلك الشعور العميق الذى يستولى على النفس فجأة ويشيع فيها وينشئ . . . والذى لا سبيل إلى العبارة عنه — ذلك الإحساس الذى يخيل للإنسان أنه دودة تضطرب فى أحشاء الزمن . أو أنه راقد بوجه من الخشب وهو يعجب لنفسه ولما حوله ويقول فى أعماق سريرته : « ما هذا ؟ ما معناه ؟ من أين جاءنى هذا الخشب الخشن ؟ وما هو معنى أن يكون الإنسان حيا ؟ » وما أظن إلا أن كل إنسان قد جرب ذلك السكون الذى يجعله يتوهم أنه يحلم بنفسه وأن حياته وجسمه وكل شئ — كل أولئك ليس سوى حلم يتراءى له ، وإن كل ما يبدو لعينه ويجده قلبه ويجهنه صدره ويقع له — هذا كله قد حدث من قبل فى مكان آخر ووقت غير هذا . . .

ومضت ليلى خفيفة إلى السرير ففتح إبراهيم عينه ببطء على سواد الليل — فقد كان النوم لا يثاويه فى النور — وقال :

— من أين جاء هذا العرق كله ، لكأنى فى مغطس :

ولم يكن الكلام موجها إلى أحد بعينه ، وأعله لم يكن يحسب أن فى الغرفة سواه ! ولكن ليلى حنت عليه ودست يدها تحت المساءة البيضاء ثم قالت وقد أشرق وجهها وتهللت أساريره وأن كانت الظلمة قد حالت بين إبراهيم وبين الرؤية :

— مبروك . . مبروك .

فرفع إليها عينها فيها من الدهشة والسرور الغاض معان وقال :

— مبروك ؟ ماذا تعنين ؟

— إنها آية الشفاء ، ألم تكن تعلم ؟

فقال : كلا . .

فقلت وهي تضحك :

— نعم ، وقد كنت جالسة انتظر . فقد أنبأني الدكتور محمود — ما أصدق فراسته — أنه يتوقع أن تكون الليلة هي الفاصلة ، فلما أن يشتد المرض ويتفاقم الحال ، ولما أن تهبط درجة الحرارة ويكثر العرق ويبدأ التماثل للشفاء ، وهذا هو الأرجح فيما رأى ، وقد حقق الله ظنه ، ألا تحس أن الحمى قد خفت كثيرا ؟

فلم يجبها إبراهيم ، ولم تلج ليلي في الإجابة ، لأنها كانت أعرف به من أن تثقل عليه ، ثم لأنه كان عليها أن تغير له ثيابه وتلبسه أخرى جافة . وذهب هو يفكر في العرق الشافى الذى أنبأته ليلي أنه بشير التعافى . وقال لنفسه اذا كان هذا كذلك فان أول ما يجب عليه هو أن يعصر نفسه حتى لا تبقى في بدنه قطرة من الماء كأنما كان هذا شيئا تنفع فيه الإرادة .

والتفت إبراهيم ليلي — على نور الكهرباء — وقال :

— والآن ماذا يجب على أن أصنع ؟

وقالت : « تنام وتعرق ولا تجهود نفسك بالتفكير . وبرغمي أقول ذلك فلاني فرحة . . »

قال : « سمعا وطاعة . اطفئي الأنوار إذن واذهي إلى غرفتك فما أظنك اغتمض لك جفن في ليلتك هذه — ليلة الفصل . هه ؟ فابتسم له قلبها في عينيها ، والتمته ومضت عنه في صمت .

* * *

ولكنها لم تنم ، فقد تمثلت لما شوشو — لا على حقيقتها بل في

صورة أفن من الحقيقة وأروع وأبعث على العطف - وتعاقبت على ذهنها صور من الجمال والشقاء والكمد لم تطق معها الاستقرار وودت لو أن عندها منها صورة ، وتذكرت مدار بينها وبين الشيخ على وصجبت له ولنفسها كيف تصارحاً بسرعة على ما كان بينهما من الجفوة وفساد الحال ، وأحست أن قلبها يغمره الإكبار للشيخ شلى الذى وسع قلبه كل هذا العطف والانخلاص حتى لقد أفاض عليها من مروءته وأعداها بكرم النفس فبدلت له الوعد بالتضحية فى سبيل شوشو ، وإن كان حبها لإبراهيم واسعاً عظيماً ، وجرحها ذلك إلى التفكير فى إبراهيم . أترأه يحبها ويحب شوشو فى آن معا : أما أنه يحب شوشو فهذا مالا مجاز للشك فيه بعد الذى سمعته من الشيخ على وإن فى صمت إبراهيم فى الأحيان الكثيرة وشروء ذهنه واكتثابه وتلقيه ما تجيء به الأيام باستخفاف من لم يعد يحفل ماذا يكون غد - لدلائل على أنه يطوى أضالعه على هم مخامر ، وأى هم هناك غير حبه الخائب ! ولكن لماذا يخاب هذا الحب . ولم يوث ثمرته ؟ إنه متبادل إذا صبح ما سمعته من الشيخ على ، ومع ذلك يأبى إبراهيم أن يفض كتب شوشو إليه وإن كان يدخرها ولا يلقى بها فى النار أو يمزقها . فكأن إبراهيم يقاوم حبه لشوشو لسبب ما . ولكن بقية من الرقة أو الضعف أو الحنين الذى لم يغلّب تغريه بالتجفط بهذه الكتب فما أقواه وأضعفه . وأقساه وأرقه . ومن أولى من ليلى أن تستخلص من هذا كله ما يحفل به من دلائل الحب المكتوم والوجد المغالب والكبرياء العvisية ؟

وأما أنه يحبها - أى ليلى - فهذا أيضاً لا يرتقى إليه الشك فما تخفى آيات الحب . وليست ليلى بالتي يلتبس عليها التصنيع بالانخلاص فقد جربت الدنيا وخبرت الناس وطوفت فى الأرض وتعلمت كيف تميز بين الصحيح والزائف على صغر سنّها . ولئن خدعها رجل فلن يخدعها رجل ثان . وإبراهيم ، ألم يقل لها إنها ستشقى بسببه ؟ ولكنها لم تشق بل سعدت . وإذا كانت قد وطنت نفسها على الحرمان وآلت أن تخنق

حبها له من أجل شوشو فإن في ذلك سعادة لا تعدلها سعادة الحب الرخي المظمن . وهي التي قاست وتعذبت حقيقة ان يدركها العطف على أمثالها . وسيبقى لها حب إبراهيم تتعزى به . ولكن هل يبقى ؟ هل إذا اتصلت أسبابه بأسباب شوشو يظل تصبو إليها نفسه ؟ .

وجاهدت ليلى لتخمد ثورة الأنانية مخافة ان تطغى فتعفى على استعدادها للإيثار والتضحية ، وتعصف بعزمها على إنكار ذاتها . وأرعبها أنها بدأت تحس أن هذه ليست أنانية وأن الإخلاص للنفس واجب مقدم على الإخلاص للغير . وان الانسان لا يطالب بالإيثار إذا تقاضاه بحق النفس . وأن هناك حدا معقولا يجب أن يوضع ويلتزم . وان الدنيا لا تزيد بذلك فردا سعيدا ولا تنقص واحدا شقيا ثم إنها لم تكن لها يد فيما كان فليست عليها تبعة ولا يلزمها واجب من أجله . وماذا تصنع بنفسها بعد ذلك ؟ كيف تنتفع بالعيش بعد رد إبراهيم إلى شوشو ؟ وهل لو كانت شوشو مكانها أكانت تقدمها على نفسها وتؤثرها كما تنوى أن تفعل ؟ ثم ألا ينبغي أن يكون لإبراهيم رأى في الموضوع ؟ أمي كل شيء وليس لإبراهيم وزن ؟ لماذا أعلن إبراهيم إلى قريبه أن ليلى زوجته إذا كان يشتهي أن يرتد إلى شوشو ؟ أليس في هذا دليل قاطع على أنه اراد ان يحسم الموضوع ومثل إبراهيم لا يرد خطأه ولا ينكص على عقبه ، وإنه لمن الطراز الذي يهون عليه أن يمشى إلى الجحيم ولا يهون عليه أن يتلفت أو أن يرى الناس فيه ضعفا أو يحسوا منه الحنين إلى ماضى نفسه عنه .

والشيخ على لاشك يعلم ذلك ، فإنها ابرز صفات إبراهيم ، وإن كان لا يتوقع بها بل لعله لا يفتن إليها او يقدرها قدرها ، كالشلال الذي ينحدر بقوة الراغبة غير المحسنة ، واستراحت ليلى إلى هذا التشبيه وإن لم تخف عليها المبالغة فيه ، وقالت لنفسها إذا كان في وسع الشلال ان ينثني راجعا في تدفقه ، فإن في مقدور إبراهيم أن يكر إلى شوشو ، وقد يتلهف على هذه الكرة ، ولكنه لا يستطيع ، لأنه لا يريد بل

لأن الكرى ينافى طبيعته ، ولم يسر ليلى أن إبراهيم قد يشفق ويتلهف إليها قلبه ولكنه لا يقدر أن يرجع . وأحس أن هذا لا يكون فوزا لها بل أمهانا لوجودها ، وأنكرت من نفسها أن يخطر لها أنها تقبل هذا الموقف ثم جعلت تسائل نفسها : ألا يمكن أن يكون هذا هو الواقع ؟

وراحت تتصور أن إبراهيم لا يحبها ولكنه يتسلى بها ويتعزى ! وأن مزيها عنده أنه كان حقيقا أن يحبها لولا أنه أحب شوشو ، وحز في نفسها هذا وأوجعها ، وإن كانت قد جعلت تنفيه عن خاطرها وتطرده وترفض أن تصدقه ، وأبى لها احترامها لنفسها إلا أن تكرر إلى الثقة بإخلاص إبراهيم وصدق سريره فى حبه لها . ولكن هذا الخاطر المنفى كان من فضله مع ذلك أن شحذ عزمها على الوفاء بعهدتها للشيخ على :

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

الفصل الثاني

« وقالت سارة : قد صنع الله لي ضحكاً »

حارت ليلى ماذا تصنع ، وكيف تفي بعهدها للشيخ على أن تكون عوناً له في سبيل شوشو ، وكثيراً ما كانت الوسوس والهواجس تساورها . وربما قالت لنفسها إن هذا عهد ليس فيه ذرة من العدل وإنه ما من امرأة يجوز أن تكلف مثله لفرط منافاته للطبيعة ، والواقع أن ليلى اندفعت وهي مضطربة إلى بذل هذا الوعد الشاذ ، وكانت ساعة فاض فيها كرم النفس ومروءة القلب ، وقد وسعها - وإبراهيم مريض - أن تحتفظ بهذا المستوى ، فلما عوفي إبراهيم وعادت إليه الصحة واستغنى عن رعاية ليلى ، بدأت الشكوك تخالجها والشبه تدور بنفسها . وساعدها على ذلك أن إبراهيم صار أكثر صمتاً وأقل كلاماً . وأشدّ شروداً ، وأنها تحس ، وهي معه كأنه يذودها عن نفسه ، ويمنعها أن تطلع على ما يطرّف برأسه . ويشعر - بصمته وجهامته - مثل شوك القنفذ ، فكانت تقول لنفسها « مالى أنا ولشوشو ؟ لست أعرفها ولا انا رأيت وجهها ، فليس لها في حياتي وجود ، ولا لها في ذاكرتي محل ، إن هي إلا اسم - لم تبلغ حتى أن تكون خيالاً - أربعة حروف لا أكثر - أربعة حروف لا ترسم في نفسى صورة ولا أجد لها في ذهنى تخطيطاً . ومع ذلك تشغل هذا الحيز كله وتسد في وجهى فجاج الحياة وتسود في عيني نور الضمى فلماذا ؟ من وهم أنا خالقه ؟ أترانى أخشى أن يتلف قلب إبراهيم ، وأن ترده الصبوة إلى شوشو ؟ كلا فقد عرفت خلقه الوعر . وأنه ليحبها ما فى ذلك شك - ولكن من أين جاءنى هذا اليقين ؟ أمن أجل أن الشيخ على يزعم ذلك يكون هو الحق ؟ وأن إبراهيم ليحبنى أيضاً - أيضاً ؟ أقول أيضاً ؟

واضيعته اذن ! بل هو يحبني وحدى ولى قلبه كله — كل لفظة وكل صبرة وكل حنة وخفقة . لى أنا وحدى وكيف يمكن أن يشرك بى غيرى ؟ لست مغرورة . ولقد فتحت الدنيا عينى جيدا — فتحتها حتى لا غمض لهما — فلو أن فى قلبه حبا لها — لشوشو — لأحسست التفاتة قلبه . . للمحت طيف هذا الحب فى عينيه . كلا . ليس على هذا العرش سوى .

ومن مناقضات النفس الإنسانية أن ليلى ربما ساءها وكرهها أنها وحدها التى تستوى على هذا العرش وأنها استطاعت أن تقنع نفسها بأن ليس لها مزاحم ، فتعمد إلى غزلها فتنفذه لتثبت لنفسها أن لها شريكا ، بل إنها هى التى تجاهد لتزحزح شوشو وتخلى لنفسها مكانا إلى جانبها . وتحس أن هذه القدرة على العزل ثم النفض ، وعلى الإثبات ثم النفى ، قد أفادتها سرورا وإن لم تفدها راحة وسعادة .

ثم حدث ما قوى عزمها على ما يوافق طبيعتها ويلآئم مزاجها .

ذلك أنها كانت عصر يوم فى غرفتها تفكر فى ثوب تلبسه . فلما أعيها الاختيار نادت إبراهيم ليعاونها . وكان الباب بينهما مواربا كالعادة . فأقبل عليها يسألها ما الخبر ، وفى هذه اللحظة نقر الخادم على الباب فضمت إليه تفتحه فناولها خطابا فبدت يدها ، ولكن يدها ظلت تدور حول الخطاب لا تقع عليه . وتعلقت عينها برسم مستدير على الورق الذى يكسو الخائط وأحسست كأن الغرفة تدور بها وترجح أيضا . ولحت إبراهيم وهو مقبل عليها يسألها وفى وجه آية الفرع :

— ماذا جرى يا ليلى ؟ اجلسى .

وسندها بذراعه وقال الخادم وقد تقدم لمعاونته :

— إن لو أنها ممتقع جدا ياسيدى .

وقعدت ليلى على الكرسي ثم تنهدت وقالت : « كلا . لاشئ »

إن رسم الورق هو الذى أدار رأسى .

قالت ذلك كأنها تعتقد بإخلاص أن الرسم هو الذى أحدث لها هذا

الدوار لسبب غير مفهوم وعلة ليست بالواضحة . وذهب الدوار بأسرع
مما جاء فقالت باسمه :

— لقد انتهى كل شيء . أفقت تماما .

فقال إبراهيم : « ما أغرب هذا » وضحك .

وفتحت ليلى الخطاب في سكون ، وكان من الشيخ على ، الذى واظب
على الكتابة إليها كل بضعة أيام وأحيانا كل يوم بأسلوبه الموجز المضحك ،
ثم مدت به أصبعين إلى إبراهيم في صمت فقرا فيه :

« متى أراك ؟ لا للشوق إليك فلا تغترى ! أما إبراهيم فلا أدري
لماذا جهد أن يشفى ؟ أو بعبارة أخرى لماذا تكلف أن يمرض مادام أنه لم
يكن ينوى أن يموت ؟ سليه بالله لماذا يعيش ؟ وأجيبني أو لا تجيبني فانك
مثله أو شر منه » .

وفى ذيل هذه الأسئلة التى لا تستحق طابع البريد ، امضاؤه ، وهى
أغرب من الأسئلة ، فقد كان لا يوقع باسمه كاملا ومجردا بل بهاتين
الكلمتين « الشيخ على » وإن كان كما عرف القارىء لم يحرض على
زى الشيوخ .

ولم تقل لإبراهيم أن هذا ليس بأول كتاب منه ، ولعلها لم تطلعه
عليه إلا لخلوه من كل إشارة إلى ما تأمرا عليه ، ولم يجر لإبراهيم
في بال أن هذا الكتاب حلقة في سلسلة طويلة بدأت بعد أوبة الشيخ
على إلى بلده ثم إلى الإسكندرية . فلما قرأه ضحك وضحكت ووقف
الأمر عند هذا الحد .

وشاءت المقادير أن تتلقى ليلى بعد بضعة أيام كتابا آخر من الشيخ
على .

وكانت جالسة مع إبراهيم في الشرفة المطلة على الحديقة الخلفية وكانا
قد طلبا الشاي وذهبا في انتظاره يتحدثان ، فتناولته بكف غير ثابتة

وجعلت تنظر إلى الخط الواضح على الظرف وتتأمل اسمها مكتوبا بالخط الجليل على خلاف بقية العنوان . فخيّل إليها أنه ليس اسمها بل اسم امرأة غيرها ولعله اسم فتاة غريرة حديثة عهد بالدنيا والحياة والحب والأنوثة الناضجة على الخصوص . وأحست أن رأسها يدور ويدور . ونظر إليها إبراهيم فأزعجه اصفرار وجهها واتساع عينيها وثبات حملاتها وأن حول جفونها مثل مدار الكهف .

واضطرب رأسها واختل توازنها وقالت : « هذا هو الدوار مرة أخرى ! أترى سيغمي على هذه المرة ؟ » .

وكانت تسمع بوضوح مدهش تنفس إبراهيم إلى جانبها ، وتراه وهو يميل إليها وكأنه يتهيأ للوقوف ! وتفلت الخطاب من أصابعها إلى الأرض فصوبت عينيها إليه واتبعته نظرتها ! وهي تظن أنها تفعل ذلك عامدة وإرادتها وكانت الأرض فيما يبدو لها تدور بسرعة فقالت لنفسها « سيغمي على هذه المرة . ولكن ينبغي ألا يحدث ذلك وعلى وجه الخصوص أمام كل هؤلاء الناس . وإبراهيم لا يزال ضعيفا فهل تراه يقوى على حملي ؟ » . واضطربت رجلاها وإن كانت جالسة . وشاع في نفسها شعور جديد بعدم الاستقرار وبانتفاء كل اتزان فتمتمت في ضعف « أوه ! » .

— ٣ —

قال الطبيب بصوت رقيق : « لقد أغمى عليك . هذا كل ما حدث » . وتبين لها شيئا فشيئا إنها راقدة في سريرها في غرفتها . وأن ليس معها سوى الطبيب — على كرسى إلى جانب السرير — فرفعت عينيها إلى وجهه فألفته مشرقا وضاحا ولكنه مع ذلك ناطق بالعطف عليها .

فقالت : « ماذا ؟ » .

فقال : « ينبغي أن تكوني أشد عناية بنفسك . ولعله أولى بك أن تستريحى الليلة في فراشك »

فقلت وهي تحس أن كل مقاومة من جانبها قد زالت ، وأن استسلامها تام :

— أظن أنى حامل . . . و . . . يجب . . .

فقال الطبيب : « أوه ! هذه هي المسألة إذن ؟ » .

وعجبت لنفسها كيف وسعها أن تنطق بهذه العبارة في بساطة ومن غير تردد . ولم تقل للطبيب أهي زوجة إبراهيم أم خليلته بل لم تعبأ به ماذا عسى أن يظن . على أن الطبيب لم يعجب ولم يظن شيئاً ولم يعن إلا بالحالة التي أمامه ، فقال :

— حسن ، سرى . أظنك تستطيعين أن تجلسي الآن ، هيه ؟

وبعد نحو ساعة كان معها إبراهيم يحادثها ويؤنسها وهو جاهل بتلك الحقيقة الضخمة التي تنطوى عليها انطواء حقيقياً لا مجازياً . لأنها لم تفض إليه بشيء مؤثرة أن تكتم الأمر حتى تفكر على مهل .

الفصل الثالث عشر

« في وقت المساء ، ذا رعب ، قبل الصبح ليسوا هم »

يا لجمال المرأة ! إنه فتنة الحياة كلها مختزنة في كيانها الدقيق فما أعجب ألا يراه الناس كما يجب رؤيته ويحسوه كما ينبغي أن يحسوا ! بل ما أغرب أن يكون في الناس من يجنيه ! فهل يفعلون ذلك لفرط إحساسهم به ودقة إدراكهم له أو لعمى عنه وبلادة تقيهم وتحمي جلدهم أن يمتزق ؟ وماذا ترى يعميهم ؟ أهى « العلوم » ؟ أم ترى الذى يضلهم هو « الفن » ؟ أم هى الفلسفة التى تغويهم وتميل بهم إلى الأرباب المزيفة ؟

لا ندرى ولا نظن أن هناك من يدرك ، وكل ما نعلمه أن ليلي كانت راقدة إلى جانب إبراهيم وانها كانت ترامقه من خلال أهدابها الطويلة السوداء ، وأنه كان يجتلى فى صقال عينها تلك الفكاهة العميقة المجهولة التى لولاها لثقلت وطأة الكروب على كاهل هذه الحياة الأرضية .

ولثمها ، خير أنه أحس أن اللثام عبث وباطل ، ولأنها فراشات تتسامى إلى نار الجوع التى يحسها طاغية ، ومع أن ليلي جهدت أن تسقيه حتى تغثيه ، وأن تعطيه حتى ترضيه . فقد كان يتخيل إليه وهو مستلق إلى جانبها أنه يستطيع أن يرى الكون وأن يقدره ، مختزلاً فى جسم جميل ، ولا يستطيع أن يستحوذ عليه ولا يدخل فى مقدوره أن يجعل استيلاءه عليه تاماً كاملاً ، وكان هذا الشعور يكاد يجنه وكان يعنى نفسه بأن يسألها : « لماذا يعجز الإنسان عن الاستيلاء على جسم جميل واحد ؟ لماذا يشعر أن وراء ما ينال ، شيئاً آخر يشتهى ويراغ ، شيئاً أفق وأمتع ؟ أهى طبيعة الحب الخبيثة الماكرة ؟ أم هذا سر المرأة وسحرها ؟ وتالله

ما أضال هذا الجسم الذى يشيع فى نفسى الرغبة ! علوا وسفلا؟ ويا ليت من
يمكن يدى من طيف ذلك الحب الخادع الساحر ؟

واسودت نظرتة ولبحت ذلك فسأته باسمه :

— قل ، قل حالا !

فقال بلهجة اليائس :

— ليس لى حيلة . بزغنى هذا .

فمدت ذراعها البضة العارية وجذبت إليه وجهه وقالت :

— بل يجب أن تكون لك حيلة .

فقال وهو يتسم ابتسامة فيها من الرضى والمرارة معا :

— كل ذلك حلم . لا أنت حقيقة ولا هذا . ليلى !

فضمته إليها وهى تهمس فى أذنه :

— أوه ! أهذا كل شيء ؟

واغرورت عيناها بكرهها ، وإن كان ثغرها قد ظل يفتقر ، وراعها

ما تضمره لهذا القاب الذى يدق .

— ويلى ما أحقرنى ! سامحبنى .

وحنا على عروس أهوائه يقبلها ويرد الدموع عن مقلتيها ، وهى تنهد .

وهو يشعر أن جوعه قد صعد إلى السماء وهبط إلى الظلال وحدث نفسه

أن قد صدق من قال إن الحب قوامه التطلع .

ونظر إلى وجهها مرة أخرى فألفاه ساكنا : شعرها على الوسادة

وعيناها مغمضتان وأهدأها برسلة على خديها ، فأهوى على كتفها وجيدها

يلثمهما فقالت :

— هل تعرف فيما كنت أفكر ؟

ولم تنتظر جوابه فقالت وهى تضحك :

— فى الشيخ على . هل تصدق ؟ أحسبني سأ تزوجه يوما ما .

فقال بلهجة ساكنة :
 — بل ستتزوجيني أنا يا فتاتي البلهاء .
 وكان هذا ما تخشى أن تسمعه وإن كان مما تحب . فتكلفت البشر وقالت
 تعاتبه وفي مرجوها أن تنأى به عن هذا الموضوع :
 — صحيح ؟ بدمتك ؟
 قال : بدمتي !
 قالت ملحة : أتغنى ما تقول ؟
 قال : نعم .
 قالت : وتتجشم متاعب الزواج ولا تكل ولا تمل ؟
 قال : أعدك .
 قالت مسترسلة في حبها :
 — يا للحبيب الطيب القلب ، السخي النفس ، العريض الأمل !
 وقريبا ؟ جدا ؟
 قال : ليلى ! هل تسخرين مني ؟
 قالت : كلا ! لست أسخر .
 قال : إن هذه اللحظة رهيبة في حياتي . فأنصتي من فضلك . هل
 توافقين على الزواج مني ؟
 فرقص قلبها ولكنه هبط أيضا في صدرها . ثم هبطت نفسها وقالت :
 — يا حبيبي المسكين هل جنت ؟
 فقال : « إذن كنت تسخرين مني »
 قالت وقد غيرت خطتها بسرعة :
 — هل أتزوجك ؟ أنا ؟ إنه يسألني !
 قال وهو جائر ماذا يفهم :
 — ليلى !

فلم تمهاه وقالت :
 — هل تستطيع أن تتصور أن لا أتزوجك ؟
 فابتسم وهو يقول :
 — هل أستطيع ! ؟ كأني كففت عن أن أتصور ذلك ؟
 قالت : يا لغباء الحبيب ! وهو أديب أيضا !
 قال : أعيدى على مسمعى .
 فأسرعت تقاطعه :
 — إني أحبك ؟ لا شك في ذلك ! هذا قرار لا رجوع فيه . فهل
 تحبني أنت ؟
 فأتكأ على ذراعه وقال :
 — ابقى عينك مفتوحة فلإني أريد أن أنظر فيها
 قالت وهي تهز رأسها :
 — لا أستطيع .
 ولعلت عيناها ورقص الضحك فيهما وهي تقول :
 — إبراهيم ! شفتاك . . الأحمر !
 فقبلها غير عابيء بما علق بشفتيه من الدهان فقالت :
 — هذه القبلة ناقصة . لم تبلغ كماها .
 فسألها ضاحكا : أنظنين هذا ، ولكن من أين علمت بكل هذا ؟
 فشعرت أن سؤاله فتح لها بابا إلى إمضاء عزمها فقالت :
 — لا تكن غيبيا .
 قال : أغبي أنا ؟
 قالت : نعم يا حبيبي . هذا ما تعلمته في السيارات وأنا عائدة إلى بيتي
 بعد السهرات .
 قال : ليلي !

قالت : نعم ولكنه علم لا خير فيه . ليس فيه حياة . إنها لثمات
لا تبعث الإحساس الجنسي .

فنأى عنها قليلا وهو يحلق فيها ليتبين أجادة أم هازلة . وأيقنت من
وقع كلامها فمضت تقول :

— نعم لثمات فاترة ليس فيها حرارة أو قدرة على الأعداء . من
رجال من كل صنف وطبقة : من كبار وصغار — من أقوياء وضعاف —
من ظرفاء وثقلاء — من مؤمنين وملاحدة — من ضباط وو . .

فصاح بها وقد عيل صبره :

— ليلى ! لا أحتمل هذا !

فقالت بعناد : كذلك لم يكونوا يحتملون . أظن جمالى كان
يركهم مبهوتين .

قال : حسبك ! أمسكى !

قالت : يا ملاكى العزيز سأترفق بك . ولكن ماذا تصنع بوجهك ؟
أدره إلى .

فقال متكلفا : أحارل أن أنسى ماضيك هذا . ما أعطر شعرك !

فلم تدعه وقالت : الماضى لا ينسى . إنه أنا .

قال : لا يمكن أن يكون هذا صحيحا .

فألقت إليه نظرة حافلة بالألغاز وقالت وقد اكتفت بإثارة شكوكه :

— يالك من غبي ، سأقبل بجبينك .

ووثبت إلى الأرض وخلفته شارد الذهن موزع القلب ، يتصور هذا
الماضى الذى أطلعته على فهرس كتابه ، ثم سمع صوت حرير فالتفت
فرأى قميصا يزل عن جسمها إلى البساط وهى تتناول قميصا غيره بأقل
ما يتصور من الاحتفال أو العجلة ، فصاح بها :

— لينلى ! اقسمى !

فأجست أنها تنتزع أحشاءها وهي تقول :
— ألم أقل لك أنك غبي ؟ نعم أقسم بالله وكتابه :

— ٢ —

ثنى إبراهيم وجهه إلى الحائط وقد تنفس الصعداء — وهذا غريب .
ثم ذهب يفكر وهي تحسبه قد أولاها ظهره ريثما ترتدى ثيابها ، فخیل
إليه أن المرء لا يستطيع أن ينظر إلى الحياة باخلاص إلا بعين يمتزج فيها
التشاؤم والتسامح وأن الدنيا حافلة بالسوء والمقايح ، وأن الحياة فنا —
أقوى فنونها — التثبيط — وأن الإنسان يعيش في سنين وسنين ، ويتصل بمن
لا يحصى عددهم من الناس ولكن ما أقل الموافق منهم ، والذي يسعدك
أن يتوثق ما بينك وبينه من غير أن يكون هناك مقدار من الملل أو الاحتقار
أو الامتناع أو الحجل . واننا نعلم ذلك ونحن نسعى في الدنيا ونبغى
الناس ، وإن خاتمة كل حياة الأسف والندم هما جبل ينمو معنا طالما
من تحت أقدامنا ، وقلما نعرف اسمه في صبانا ، وما أكثر ما نتوهمه
جبلًا رائعًا جليلاً ، وأنه لرائع وجليل ولكنه مخيب للأمل ، ويعلو
الجبل أمامنا ويتضخم ، ونحن نصعد فيه ونتوغل فرحين بالحياة مغتبطين
بالعيش ، ثم لانبث على الأيام أن نتسهل وندير عيوننا فيما حولنا
ونرجع البصر فيما خلفنا وراءنا فتأخذ عيوننا شقوق الفضائح وفدافد اليأس
وأودية السقوط ، ومع ذلك نظل نصعد في جبل الندامة ، وماذا عسانا
نصنع غير ذلك ؟ ويحيى يوم نهرم فيه ، وتكل أرجلنا ، وتجف
أنسجتنا ونعي بالاصعاد فنقع على قة مريحة وننظر إلى جداول الحياة
المنحدرة ، الحياة التي تظل تفرق ويظل واسها خصبها وإن جففنا
نحن ونشفنا واحداً بعد واحد ، فنتعلل بذكرياتنا وتبدولنا هذه الذكريات
أجمل وأسبى من الحوادث التي ولدتها .

والمصادفة أصل كل حادث في هذه الدنيا التي ينخيل إلى المرء أن « الحياة » حدثت فيها بالمصادفة فإذا لم تكن هي الأصل — أو إذا كان هناك من يشق عليه أن يعدها كذلك — فلا أقل من أن نعرف بأنه ما من حدث إلا لها فيه أصبع غليظة ، وإن كل تغير أو انقلاب أو اتجاه جديد لا ينخلو من بعض نواحيه من مصادفة كان لها فضل كبير فيه ، والواقع على كل حال أن المصادفة كان لها تأثير حاسم في هذه الفترة من حياة إبراهيم فقد كان ، كما عرف القارىء ، يلهج بالزواج من ليلي . ولم يكن ذلك ليسترها أو يستر نفسه كما فعل حين عاد الدكتور محمود والشيخ على ؛ ولا ليصحح مركزها ، فما كان يجرى له في وهم أن يركزها حاجة إلى التصحيح ولا كانت وهي أنباته بالحياة الجديدة في أحشائها ، وإنما كان يدفعه إلى ذلك حبه لها ونزوعه إلى الاستقرار من ناحية وإلى المكاييدة والعناد من ناحية أخرى ، غير أنه بعد أن صارحته ليلي بما أوهمته أنه ماضيها الحالك ، تردد وأشفق ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون إلى الواقع أو الإضراب عن التفكير في المستقبل مقيسا إلى الماضي ، ومع ترده وإشفاقه كاد حبه لها يطفى على إحجامه ، وكادت معاودة التفكير الهادىء توسع في عينيه ما ضيقه العرف ، لولا أن ليلي مدت يدها فجأة فأنقذته .

وكان من المتفق عليه فيما بينهما أن الرحيل قد آن جدا ، فقد غاب عن أمه وابنه شهورا ، وعن عمله كذلك وإن كانت صلته به لم تنقطع إلا في فترة المرض ، وكان المقرر أن تسبقه ليلي — إلى الاسكتلندية موطنها — على أن توافيه بعد ذلك في القاهرة . وفيما عدا ذلك لم تكن هناك خطة مرسومة ولا نهج واضح ، لان ليلي كانت تتلفت وإبراهيم كان مضطربا .

وفي عصر اليوم الذي استعدت فيه ليلى للسفر في مسائه دخل إبراهيم غرفته فلمح خطابا ملقى بغير عناية على مخدة السرير ، وكان الظرف مقلوبا وحرفه غير ملصق ، فتناوله بغير احتفال ، ولم يكده يقلبه ويرى خطه حتى قعد على السرير وراح يقرأه وهو ذاهل وكان مما قرأ فيه :

— . . . نعم يا صاحبي . . . هذا آخر كل حب . . . الملal — الفتور . . . ولست أكتفك أنى مللت وأنى أصبحت أشعر بالفتور حين يناديني قلبك المضطرب . المستقبل كما ترى لأمل فيه ، ونخير لي ولك أن نقصر من الآن وما زالت في القلب صبوة . . .

« . . . ولو أن حبك لم يحجب نظرك . . . أو أنك لم تسلم نفسك لعاطفتك واثقا من استجابتي لها مطمئنا إلى ذلك لما استطعت أن أخدعك عن حقيقة ما أظهر واكنت حقيقا أن تفتن إلى تكلفي . . . نعم كنت أتكلف . . . أتصنع الذوبان بين ذراعيك وأنت تضميني وتعصرني . . . أتصنع أن أبدولك كأن روحى كلها قد صارت على شفتى وأنت تمصنها وتعضها ، وأطأت من عيني وأنت تحديق فيها وتمسح لي شعري . . . هي صناعة أتقنها يا صاحبي بالمرانة والتدريب فلا عجب أن خدعتك . . . »

ولم يستطع أن يقر أكثر من ذلك فقد كانت الصدمة عنيفة وعلى غرة وكان الاشمئزاز أقوى ما أحس ، ودار رأسه واسودت الدنيا في عينيه وخيل إليه أن هذه ليست خيبة أمل فحسب ، بل أنها جنازة كل أمل وكل حلم وكل خير — بل جنازة النفس الإنسانية .

وبعد عراك عنيف استطاع أن يصد نفسه عن الاسترسال في هذه الخواطر المقلبة ، فوضع الخطاب في ظرفه وألقى به على المخدة . وشاءت المقادير أن يرمى الظرف مقلوبا كما كان — أى أن تكون الكتابة إلى أسفل ، وان يكون

طرفه المفتوح إلى أعلى ، ونهض وفتح النافذة واعتمد على حافتها وأخذ ينظر وكأنه يعالج أن يرسل لحظة إلى قاع هاوية ، ولبت كذلك لا يدري كم ، وإذا بالبواب يفتح في خفة وهولاه بخواطره لا يشعر بما حوله ، ودخلت ليلى على أطراف أصابعها ، ورمت إلى السرير نظرة وإلى إبراهيم أخرى فوق من نفسها جموده وذهوله ومضت خفيفة إلى السرير فتناولت خطابها ودسته في صدرها وهي تحسب - لأنها وجدته كما تركته - أن إبراهيم لم يلتفت إليه .

ودنت منه وسألته في رقه « مالك ؟ » .

فسرت في بدنه رعدة منها وقال ببطء وبجهد واضح :

- لا شيء ! صدام بسيط .

ثم ابتسم سخرا من نفسه واحتقارا للعالم كلها ، فذولا عمق شعوره في هذه اللحظة بهوان الحياة ، لصفعها أو ركلها أو بصق في وجهها .

- ٤ -

لما صارت ليلى في بيتها على شاطئ البحر في الرمل قالت للشيخ علي في أولى زيارته لها :

- لقد تجوت ولما أكد ، كان هذا الخطاب قسوة شنيعة - عليه وعلى أيضا ، فلما رأيته حيث وضعته لم تمسه يد حمدت الله وتشهدت .

فقال الشيخ علي :

- وماذا كتبت في خطابك هذا ؟

فقرأت منه حتى بلغت قولها « ولو أن حبك لم يحجب نظرك الخ » فاندلعت النار في وجهها الأسمر وطوت الخطاب وهي تقول :

- كلا . لا أستطيع .. ولست أدري كيف اجترأت أن أكتب هذا الكلام ؟

فزام الشيخ علي ولم يقل شيئا واضطجع على ظهر كرسيه وجعل يفرك

جبينه العريض بأطراف أصابعه ثم التفت إليها فجاءة وسألها :

— أواثقة أنت أنه لم يقرأ هذا الخطاب ؟

فأزعجها سؤاله ونفى الدم من وجهها وقالت تطمئن نفسها :

— كيف يمكن أن يكون قد قرأه وقد وجدت الخطاب كما تركته ؟

ثم أنه لم يشر إليه قط !

فهر الشيوخ على رأسه وقال :

— لا أدري فما كنت معه . ولكنى واثق أنه اطلع عليه .

فأقبلت عليه تسأله : « هل كتب إليك ؟ هل فى خطاباته إشارة ولو خفية ؟ »

فقهقه الشيخ على ثم قال :

— يافتاى البلهاء لقد عاشرت إبراهيم كم شهرا ؟ ومع ذلك لا تعرفينه

كتب إلى حقا ؟ هو يكتب ؟؟ بل أجزم أنه قرأه . . وأن صداعه

كان تسمية .

ثم نهض وهو يقول :

— أخشى . . .

فسأله بلهفة « ماذا ؟ »

قال : « أخشى أن أكون قد جلبت عليك اجتقار إبراهيم ، لا أبالى أن

يكرهك ولكن الاجتقار ! الاجتقار ! »

القسم الرابع

« قعدت ورايت تحت الشمس
ان السسمى ليس للخفيف ، ولا
الحرب للاقوياء ، ولا الخير للحكماء
ولا الفنى للفهماء ، ولا النعمة
للوى المعسرة ، لانه الوقت
والعرض يلاقبانهم كافة » .

الفصل الأول

لأنه في الباطل يجيء ، وفي الظلام يذهب ، واسمه يغطي بالظلام

- ١ -

الأيام فيما يزعم الناس ، كفيلة بأن تعفى على كل شيء ، ولكن إبراهيم يقول — مغرباً ملفزاً — إنها قلما تستطيع أن تعفى على كل شيء سوى عجزها عن حل المشاكل الحقيقية للحياة . ولاندرى ماذا يعنى على التحقيق ، ولكن الذى ندرى أنه بعد عام ونصف عام من أوبته من الأقصر ، تلقى كتاباً طويلاً من ليلي — هو الأول والآخر فيما نعلم — ولم يتلقه ، بل وجده على مكتبه في منتصف ليلة من ليالى أكتوبر ، وكان قد عاد متأخراً . فخلع ثيابه وأكل تفاحة ثم أوى إلى مكتبته على عادته قبل النوم ، فقضى بضع دقائق يتأمل طابعه السورى ويعجب للخط — خط من يكون ؟ فإن الخط السورى على العموم أشبه بالفارسي — ولعل ذلك أثر من حكم الأتراك — وهذا أشبه بأن يكون خط امرأة ، ثم إن عليه المسحة المصرية وكأنه يعرفه وإن كانت ذاكرته الخوانة لاتسعه فمن عساها تكون هذه الكاتبة ؟

ولم يشأ أن يترسل في الحدس والتخمين لأن ذلك لا يوائم طبيعته النزاعة إلى الحسم ، فقدم وفض الكتاب فإذا هو ورقات عديدة مذيبة باسم « ليلي » .

فقال يحدث نفسه بصوت مسموع :

— نعم هو خط ليلي . فما أسرع مانسيناه ! فإذا عساها تصنع في سورية وماذا تراها تقول ؟ ولم يقرأ الكتاب من أوله بل تناوله من ختامه وهو يتسم فقرأ فيه :

« . . . ولا تكتب إلى من فضلك . فإني أستطيع أن أتصورك على أوضح مما تصف عبارتك وإن تكن الكاتب الذي يتلقف الناس آثاره ! على أني أظنك مشغولاً بالتأليف — أو هذا ما أرجوه ، فإنه أحلى في نفسي من أن أعرف أنك لا تصنع شيئاً . وهذا محتمل وإن لم يكن مرجحاً .

« . . . لقد كان فهمي للحياة مغلوطاً وسلوكي فيها مضطرباً . وإني الآن لا أدرك أن ضبط النفس — كبح القاب — هذا بمجرد أتم وأكمل ما يبلغه الإنسان ويقوى عليه .. » .

ووضع الكتاب وأطل من زجاج النافذة على الليل الموحش والصحراء المجذبة التي أقام بيته فوق رمالها الخائنة . وأحس بالبرد فزرز المعطف وقال لنفسه وهو يعود إلى الجلوس :

لقد سرقت ليلى النوم من جفوني لأول مرة فلنقرأ كتابها من أوله .
فقرأ بعد سطور :

« إن ذلك الفرع الشريد قد وجد مغرسه واهتدى إلى منبته — نعم وجدت ليلى التي ينبغي أن يتقرر عودها في ثراها . وإنه لحلم ولا كالأحلام . وإن الأحلام في عيني جميلة ساحرة . بل أجمل من أن أظن أنني أقدر على إحماها وأنت بعيد عني لا تشاطرنى التمتع بها ، فأنت ترى أنك مازلت حيث أحللتك من نفسي في الأقصر . ولكنك لا تستطيع أن تقدر سعادتي أو تجاربي مخلصاً في أحلامها ، فإن كثرة التفكير قد أشابت نفسك . ثم أنك طماع ! وأظنك توافقي على أن الطماع مضمّن للنفس . تعب للعقل وسواء أكان أم لم يكن كما أعتقد فإني أشعر أن الطماع لا محل له في هذه البلاد الجميلة . فأرجو أن تكتب في مذكرتك — إن كنت تفعل شيئاً من ذلك في العادة — إني أمنعك ، أحرم عليك ، أن تلحق بي هنا ! فيا للغرور ! كأنك لم تنسني ! كأنني لا أخشى — بل لا أعلم — أن سخطك على قد محا صورتني من صدرك .. » .

وهنا هز إبراهيم رأسه وقال لنفسه :

« كلا ! لن تبرح ذهني صورتك ، فإنك أقدر من خدعني وغشني .

لا . لن أتم هذا الخطاب . وما الفائدة ؟ ؟ أما لو أنني عرفت خطها قبل أن أفتحه ! ولماذا تكتب إلى ؟ ألتقول إنها سعيدة منعمة ؟ ومالى أنا ؟ لا أراى أشعر بفرح لها ولا أنا يسوءنى أن تكون كما تصف فلنطو كتابها ولنلق- به .. أين .. ؟ أوه ! هنا فى الدرج - فى أى مكان .

وطوى الكتاب ورمى به فى الدرج ، ولكنه لم ينام بل قعد يدخن سيجارة بعد أخرى وقد أحس أنه هرم جداً كالجبال . وجعل يقول لنفسه فى تعليل هذا الشعور ، إن كتاب ليلي ليس سوى صدى فاطر لتجربة قديمة - تجربة مية . والتجارب القديمة المية هى ذخى الشيخوخة وإحدى خصائصها .

ثم قال لنفسه : « إن كتاب ليلي هذا لا يحرك نفسى لأنى ما عرفتها قط تحرك ذلك الجانب الشرقى من نفسى . وإنما كانت دائماً فى نظرى رمزاً لذلك الظرف والركة الشيطانية - وغير ذلك مما يزيد الصقل الغربى ، وما أظنها كما تصف نفسها سعيدة أوراضية ، فإن رضاها الذى تحدثنى عنه أشبه بأن يكون عاطفة فهو زائل » .

وظل يفكر على هذا النحو حتى مطلع الفجر وحتى شك فى حقيقة ما حوله من أثاث وكتب وراح يتوهمها بعض ما يترأى له فى حلم سينسخه النهار ثم أخذه النوم وهو قاعد وجاءت الخادمة فى الصباح تكنس الحجرة ولكنها لم تكنسها ولم تجاوز عتبة الباب ، لأنها رأته ، ولعلها ظنته سكر البارحة فنام حيثما اتفق .

- ٢ -

بعد أن عادت ليلي من الأقصر إلى الاسكندرية اشتدت عليها متاعب الحمل المألوفة فى الشهور الأولى فكرها ذلك وأزعجها مشكله ، وأفرعتها فضيحتة ولم تجرؤ أن تستشير أحداً من أهلها حتى ولا أختها وهى أصغر منها وتقيم معها ، وكان لابد من حل ، فإن القىء وحده كفى بأن يفضح سرها ، وهبه لم يفضحه لأنه شىء كان يحدث لها فى الصباح أو الليل وهى بعيدة عن

أعين الرقباء فإن السر سينظر يبرز على الأيام حتى لا يبقى سبيل إلى إخفائه ،
وحدثتها نفسها في بعض ساعات ضعفها وألمها وخوفها أن تكتب إلى إبراهيم
بالحقيقة فإنه أولى من تكاشفه بها وأحق الناس بالحرص على مستواها ولكنها
نجلت وأحست أن هذه خليقة أن تعد إكراهاً أدبياً منها له على الزواج
منها ، وهي قد هجرته عامدة على فرط حبها له ، وخطر لها أن تستشير
الشيخ على فإنه أمين ناصح ، وقد توثقت بينهما الصداقة بعد عودتها إلى
الاسكندرية ، ولكنها قدرت أن الشيخ على سيرى من واجبه — ومن
حقها هي — أن يبلغ إبراهيم وأن يدعوها إلى واجبه — وهذا ما تكره
وتأنف نفسه .

ولما أعيتها الحيل وسدت في وجهها المسالك مضت إلى طبيب تعرفه
وكانت تذهب إليه أو تدعوه كلما أصابها برد أو زكام أو نحو ذلك مما
لا يصبر عليه المترفون . وكان الوقت مساء ووقت العيادة قد أوشك أن
ينتهي . فلم يطل انتظارها . وكان رجلاً كيساً ظريفاً يشعر مظهره أن
في وسعك أن تعتمد عليه ففاجأته بقولها :
— إني حامل ولا بد من الإجهاض .

فلم يبد عليه أنه دهش . وعجبت هي من اجترأها ، فأشار إليها أن
تجلس وقال كأنما يتحدث عن الجو .
— هل لك أن تخبريني لماذا ترين الإجهاض أمرا لا بد منه إذا كنت
حاملاً ؟ .

فقالت : « هذا سهل . لأن أباه ليس زوجاً لي ولا يمكن أن يكون
زوجاً لي » .

فقال : « إني آسف جداً . فلست أستطيع أن أجرى هذه العملية .
لم أحاولها قط في السنوات التسع التي اشتغلت فيها طبياً . ثم إن أصول
المهنة المرعية ... » .

فقاطعته .قائلة : « إني أعرف أصول هذه المهنة فقد كان أبي طبيباً كما تعلم . لا بأس . إذن دلني على رجل آخر موثوق به يستطيع أن يفعل ذلك ، واذكر أنني لا أريد أن أقضي نحيبي الآن وفي خلال هذا العلاج أو العملية » .

فقال باسم :

— اهبطي . فما أظن من المحتمل أن تموتى بذلك . إن البخطر إنما يكون من العدوى أو من الطبيب إذا كان من ذلك الطراز الذي يعيش من هذه العمليات ، وهذا الطراز يتفق غالباً أن يكون سكيراً وأن تكون يده غير متزنة على كل حال لا تفزعي . كم عمرك الآن ؟

قالت : « ستة وعشرون عاماً » .

قال : « إنك تبدين أصغر بكثير . على كل حال أظن الأطباء للذين يجرون أمثال هذه العمليات يقولون في العادة أنها ضرورية سواء أكانت كذلك أم لم تكن . فهل تسمحين لي بالكشف ؟ » .

ثم قال « لا أرى أن تتلكأى . إن الحمل منذ ثلاثة شهور على الأرجح . وأعرف رجلاً كان زميلاً لي في الدراسة ، وقد سمعت أن طريقته علمية مضبوطة وقد لا يعجبك ولكنك تستطيعين أن تتصورى حال رجل لا يعالج إلا كل امرأة هستيرية — وهذا طبيعي في مثل هذه الأحوال ، فإذا شئت فلإني مستعد أن أصحبك . موافقة ؟ حسن إذن دقي لي التايفون غدا مساء لعلني أكون تمكنت من الاتفاق معه » .

وكان يوم العملية السبت — صباحاً . فعنيت بارتداء أبهى ثيابها وكانت تقول لنفسها :

— من يدري ؟ ربما صرت جثة بعد الظهر . فلأكن في أحسن حالة . وتعطرت وانتقت من المناديل ما يوائم ثوبها فلما دخل عليها الطبيب قال :

— إنك بارعة الشكل فلعلك غير خائفة .

وكانت تحس أنها ميتة ولكنها قالت :

— كلا يادكتور هل نمضى ؟

وقال لها وهما فى سيارته :

— لا تخشى أن تموتى فلن تموتى . فإنك من ذلك الطراز السليم الذى
يحتمل أكثر من هذا بلا تأثير سىء . وسأكون قريباً منك ألاحظك وأعنى
بك — وليس هذا من أصول المهنة فى شىء ولكنى فى سبيلك أصنعه .

فشكرته وقالت :

— قل لى يا دكتور هل يطول الأمر ؟ هل تستغرق المسألة زمناً طويلاً ؟
فقال : « على الأكثر عشرين دقيقة . وأنصح كطبيب بعدم التخدير
إذا كنت تعرفين أنكى تحتملين » .
فقالت : « كما تشاء يا دكتور » .

ثم قال : « لقد وصلنا . والآن فاذكرى أنى بجانبك . وأن المسألة كلها
ستنتهى بعد نصف ساعة .

ودخلا حجرة ليس فيها بعد الكراسى شىء بصرف المرء عن خواطره .
وكان الطبيب ممسكاً يدها فى حنول يشجعها ، ودخل فتى وفتاة كلاهما
صغير جميل لا يتجاوز أحدهما السادسة عشرة فنظرت إلى الفتى كأنه
منقذها وكان يهودياً مشرق صفحة الوجه أزرق العينين وقالت للدكتور :
— يا دكتور . إن هذه الفتاة طفلة !

فقال : « نعم . لا حظت ذلك . آه هذا هو الدكتور افرام — الانسة
لىلى » .

ولم يرقها جمود وجه الدكتور افرام ، ولكنها اطمأنت إلى يديه
النظيفتين وقال الدكتور افرام :
— تفضلى .

وبدأ كل شيء يعوم في نظرها ، ولكنها استطاعت مع ذلك أن تذكر
أن غرفة العملية نظيفة وأن المريضة جميلة ، وأنها أعطتها جنيها وأن
وجهها نضح بشرا لهذه العطية ، وقال الدكتور أفرايم :

— لا تخافى يا سيدتى ، لقد نصح طبيبك بعدم التبنيج وله الحق .

فقالت ليلي للمريضة : « أسمحين لى أن أمسك يدك » .

فقالت المريضة : « بكل تأكيد ، وهل أنا هنا إلا فى خدمتك ؟ »

وقالت لنفسها إن هذه الفتاة طيبة فسأنفحها بعطية أخرى .



وقال الدكتور نبيه : « هذا أنت ، قد انتهى كل شيء على مايرام وسأحققك
الآن ، فنامى واستريحى ، وسأعود إليك بعد بضع ساعات لأرجعك إلى
بيتك لقد كنت شجاعة . فأهنتك » .

فابتسمت له ليلي شاكرة ، وقالت لنفسها « ليس بى ذرة من الشجاعة
ولنما أنفت أن أصرخ أمام ذلك الدكتور الثقيل الذى لم يترفع عن سماجة
التنكيت على ثمن اللذة ! » .

وبعد برهة دخلت الفتاة — مساعدة المريضة — بوجهها الصابح
وقالت :

— أتحسين بألم ؟ سيزول كل شيء حالا .

وشرعت تخلع المريلة وتلبس صدرية صفراء جميلة ، ويلي تنظر إليها
وتعجب بحسن قوامها ، قالت الفتاة مباهية :

— لقد أهدانيها حاييم .

فسألتها ليلي : « ذلك الفتى الصغير ؟ » .

قالت « نعم ، كم تظنين عمره ؟ » .

ففكرت ليلي ثم قالت : « هو طفل » .

فقالت الفتاة ضاحكة : « تسعة عشر عاما . وأنا أحبه ، وهو أيضا يحبني ، ولكن أمه . . أوه ، إنها من اليهود القرائين . فلولاها لتزوجنا وهو لا يعبأ بفقرى ، لكن . . أمه . . صعب » .

ولم يكن على وجهها ألم ، وهى تقص هذا ولا فى عينها أسف ، فلم تر ليلى أن من واجبها أن تحاول الترفيه عنها ، وأخذها النوم وهى تفكر فى إبراهيم وتساءل نفسها أتراه يذكرها الآن ؟ وماذا يصنع لو علم ؟

— ٣ —

قال إبراهيم لنفسه فى الصباح وهو ينهض عن المائدة ويقصد إلى غرفة المكتب حيث اعتاد أن يشرب القهوة :

— إن الليل عون للضعيف . لأنه يغير وجه الأشياء ، ولكن النهار يجلوها ويبيديها على حقيقتها ، فلا بأس الآن من العود إلى رسالة ليلى فما أظن أنها بعد عام ونصف عام تكتب إلى لتقول فقط أنها سعيدة ولتأمرنى بعدم اللحاق بها .

وكانت المرارة التى فى نفس إبراهيم من ذلك الضرب الأخرس الذى تعي الإنسان العبارة عنه ، لاكتلاك المرارة المضبوطة الحدود المحبوكية الأطراف ، الوضاعة كالماس ، وكان إبراهيم رجلا ينقصه التواضع وإن كان ينقصه الكبر أن يكون به كبر ، على حدة تعبير أبى فراس الحمدانى ، وكانت لغته صورة من روحه ، وألفاظه كأنما تدرك أنها درر . ولآلىء تلقى تحت عيون الحنازير وكان يرص العبارة فوق العبارة الأخرى ويكظها جميعاً بشخصيته حتى لتحس أن الفاظه ملأى بمعانيه هو ، ومثقله بخواجه هو ، وأزه لاسبيل لك إلى رأى أو إحساس فيما وراء هذا الكوم المكدس من الآراء والإحساسات وأن عليك أن تبتلع بلا تردد ولا مضغ .

وبهذه الروح انثنى الى رساله ليلى ، ولم يخطئ ظنه ، ولو أخطأ لا اعتد

ذلك من ذنوب ليلى ، وكانت الرسالة طويلة وفيها خلاصة تاريخها منذ توفي والدها إلى أن رفعت عنها وعن أختها الوصاية وفيها تشرح كيف أغواها الوصى وعبت بعفتها ثم حاول أن يتزوجها ليستولى على مالها بعد أن بدد منه جانبها ليس بالقليل ، ولكنها لم تشر إلى الجنين الذي أعانها الدكتور نبيهة على انتزاعه من بين أحشائها قبل مواعده ، وما الداعي إلى ذلك وقد تزوجها الدكتور نبيهة آخر الأمر . إنه سر لا يعلمه سواه فيحسن ألا يتجاوز إلى غيره وما دام أنه هو قد دفنه ولم يحفله بعد ذلك ! فما أولاهما هي بأن تتناساه .

وقال إبراهيم لنفسه : « يالها من فاجرة تتزوج رجلاً ثم تكتب إلى بلا مناسبة تقول أنها تحبني ! ولكن هذا غير عجيب ممن علمتها السيارات تصنع الحرارة في القبل والعناق » .

وزادت مرارته قطرة — إذا كان إلى هذا سبيل .

الفصل الثانى

فليسمع ختام الامر كله

هى مقدمة الربيع ، وكل شىء هادىء والشجر كأنه مستح أن يظل متعريا وحوله الخضرة مهتزة زاوية ، وكأنما هو يبذل أقصى ما فى وسعه ليكتسى ويخرج أوراقه النضيرة التى ستحجب أشعة الشمس التى أعانتها على الوجود وغذتها وأنمتها ، وقد خيل لأبراهيم وهو يجيل عينه فى خضرة الأرض ورونق السماء وصفاء الجو ، كأن بالازهار دهشة لهذا الدفء الجديد فى الدنيا ، فهى لا تزال تبدو كالمترددة المشفقة أن تبرز فى حفل من زينة جمالها مخافة أن يكون الشتاء انما يخادعها ويغالطها فى حقيقة الزمن ، حتى إذا اطمأنت عاد فحمل عليها بقره وصره .

وكان إبراهيم قد عاد إلى ماري بقلب مثقل وعين نفاذة ونفس غير مرتاحة إلى اعتياض الذى هو أدنى من الذى هو أعلى وكانت شوشو قد زوجت الدكتور محمود ونقل هذا عيادته إلى الاسكندرية واستطاع أن يوطد مركزه فيها ، وأن يوسع دائرة عمله ، وعلم إبراهيم أن شوشو راضية شاكرة وأنها وامقة موموقة كذلك حدثته أمه فى صبيحة ذلك اليوم فى مستهل الربيع وزادت على هذا بعد أن قصت عليه ما اتصل بها :

« لقد كنت أفكر فيها لك » .

فلولا خلو ذهنها من الحكاية كلها لاحظت سهومه وتحجر نظراته وكفه بعد ذلك عن الكلام ، ولكنها لم تكن تعلم شيئا مما عانى ابنها ، ولم ترموجبا للاحاح فى أمر لا جدوى فيه ولا طائل تحته ، وأوهمها

صمت ابراهيم أنه لا يزال يكره أن يقترح عليه الزواج ، كمهده مذ ماتت زوجته .

ولم يستغرب ابراهيم أن يتزوج الدكتور من شوشو ، ولم يخطر له أن يسأل كيف رضيت نجية أن يتخطى الدكتور أختها سميحة ، وإن كان هذا كله قد حز في نفسه ، ولم يدهشه ما سمعه عن حب شوشو للدكتور ، وقال لنفسه لعل هذا الحب الذي يصفون أكذوبة أراضت شوشو نفسها على مقتضياتها . أو لعله حب صادق جاء كرد الفعل . أو لعله كان كامنا في زاوية من زوايا نفسها وهي لا تدري ، وقد كان هو - ابراهيم - يحب ثلاثا من النساء في وقت معا وهو مدرك لهذا التثليث ، فلا عجب أن تحب شوشو اثنين وهي غير مدركة لذلك . فيكون أحد حبيها طافيا على اللجة ويكون الآخر راسبا في قاعها . وعسى أن يكون الراسب أرسخ وأقوى .

على أن ابراهيم رجح عنده أن حب شوشو له هو ، لم يكن حبا لشخصه وإنما كان عاطفة جنسية قائمة بذاتها ومستقلة عن كل شخص معين ، ومتعلقة بالرجولة بمعناها الواسع ، ومدلولها الاشمل ، فمن السهل أن تتحول من شخص معين إلى شخص آخر معين ما دام كل منهما موافقا صالحا ، لأن العاطفة في هذه الحالة لا تكون حبا لفلان بالذات ، بل فورة نضج أنثوى تبغى الرجولة والسلام ، وبدا لابراهيم أن هذا التعليل أصبح وأسد ، فإن الحياة المصرية وتقاليدها تعين على هذا النوع من الحب القابل للتحول - إذا صح هذا التعبير - والفتاة المصرية - في الأغلب والأعم - تذهب إلى الزوج وهي لا تحمل له حبا ، وإنما تحمل له نضجا جنسيا قابلا لأن يتعلق بشخصه إذا ساعفته الظروف وأحسن هو سياسته واستطاع أن يوجهه إلى نفسه وما أكثر ما يبدأ الزواج في مصر بلا خب . وليس بالنادر أن يبدأ بمقدار من الكره الخفيف . ثم لا تلبث المعاشرة والاحساس بالواجب - احساسا درج كل

من الزوجين على توطين النفس عليه — أن يفضيا إلى ما يشبه الحب المتبادل وإن كان من العسير أن يسمى حبا لانتفاء امتحان الوسط واغرائه . وذلك أن المرأة الغربية يقبل عليها الرجال ويهجمون عليها وفي مرجو كل واحد أن يفوز بها . وهذا امتحان لها وإغراء . ثم ينتهى الأمر بإيثارها أحدهم بعد أن تنخل عواطفها وخوالجها ، وتعرف أن هذا الاحد الذى تؤثره هو الذى تصبو إليه وتمثل فيه معانى الرجولة التى تطلبها أنوثتها .

وقد تخطىء في الغربة أو يدفعها ظرف غير الحب الى التمحيز ، ولكنها تجوز الامتحان على كل حال ، وكان حبها لاشك في أنه لشخص معين ، أما أختها المصرية فقلما تتاح لها فرصة هذا الامتحان ، والاختبار عندها في أضيق دائرة وقد لا يكون ثم اختيار بتاتا ، فحبها للرجل شبيه بالحب الذى صهر الامتحان ومركزه الإغراء ، ولكنه ليس به ، ونحن هنا كان إيمان إبراهيم بحب ليلي قويا وخيبة أمه فيه عظيمة .

على أنه ما عثم أن انصرف عن ماري أيضا — انصرف عنها بسبب لا يصرف سواه لفرط ما أنطوى عليه من الشدوذ ، ذلك أنه قصد إلى دارها عصر يوم — بعد أن اتصل به زوج شوشو بأيام ، فقالت له الخادمة إنها مستلقية على سريرها فليدخل عليها اذا شاء ، فألفاها نائمة . هذا هو السبب ، والقارىء معذور اذا استغفر به ولكن أعصاب ابراهيم كانت مضطربة مرتبكة ، فخرج وهو يقول لنفسه :

— إنه ليس ثم أبشع من منظر الانسان وهو نائم نائما فان النوم حالة ذهول ينبغي أن لا يطلع عليها أحد ، ذهول عن الدنيا القائمة القاعدة ، وبلادة حياك حركاتها الدائمة ، ولقد حاولت أن لا أنظر الى ماري ولكنى كنت أسمع أنفاسها ولا أستطيع أن أحول عيني عن وجهها المتعب المكبود ، وقد كان هذا حقيقا أن يدفعني الى العطف عليها . ولكنى أحسست بعد برهة أن معين عطفي قد نضب ، وأنى لم أعد أعبا أنائمة هي أم ميتة .

ولم يخبرها إبراهيم ولا حاول أن يلقاها ليشرح لها هذا ، لانه خشى أن لا تفهم فيبغضها ، وهو يكره أن يضطر أن يكره الناس .

- ٢ -

وقالت له أمه ليلة بعد أن ظلت برهة مطرقة تنظر الى سبحتها وتخالسه
النظر :

- يا بني ألم تفكر في الاستقرار ؟

ولم تزد . كأنما كان هذا سؤالاً أخطره بها منظر حبات السبيحة وهي تتداولها بأصابعها : فنهض إبراهيم وقال وهو يتمشى وكأنه يناجي نفسه :

- الاستقرار ؟ إن البيوت الثابتة انما اخترعت لان الانسان اشتى السلامة وطلب الأمن ، وأراد أن يكون مطمئنا الى ما يتوقع ، فان الخيال لعنة - أو هو كذلك في اعتبار أكثر الناس أو في تجاربهم ، وقل من يشعر بالراحة مع الخيال لانه مزعج مقلقل ، والحياة تظل تجربة حتى يكون للانسان بيت ، ويشعر أنه له ويصبح ملكا لهذا البيت مشدودا اليه مقيدا به ، والناس في العادة يرتاحون إلى هذا الشعور ويحبون أن يكونوا على يقين من أن هناك وسادة يضعون عليها رؤوسهم كل ليلة . وأن هناك امرأة يسمونها الزوجة ترقد إلى جانبهم . نعم فإن الانسان انما يطلب البيت لانه يطلب الزوجة ، وهو يطلب الزوجة لأنه يريد أن يريح نفسه من متاعب الإحساس الجنسي : كأنما يريد أن يفرغ من الأمر مرة واحدة وفي لحظة . . هذا هو الاستقرار . . وليس فيه ما يخدم الآداب والفنون أو يساعد على التقدم .
فنهضت وهي تتجتم بالدعاء له .

وكتب إبراهيم بعد ذلك يصف ليلته تلك :

« هي ليلة حالكة متراكبة الظلمة ، وفي الصدر ضيق ، فأين عن صحرائي أعدى ؟ صحرائي التي لا يلتقط الطير فيها حبا ولا يجاوب في خرابها قلب قلبا . ولا يغيرها صيف أو شتاء ، ولا يدوم عليها الا العفاء ؟

كذلك كانت قديما وكذلك أبقاها الله . . . لي ! ولكم توهمتها وأنا أضرب
فيها ، وأطوف في فيافها ووجها مستعارا يبدو فيه « الوجه الأعظم » متقنعا !
ولكم وقفت أدق رملها بقدمي وأفحص فيه بعصاي وأدمدم كالذى يريد
أن يرقبها بالعزائم ليشفيها من هذا السحر الذى ضرب عليها وألزمها المحل .
واقعد أعجب في الليالي القمرء كيف لا تحسر وتنفض عنها هذه الرمال وتبرز
للقمر الذى يناجيه ضوءه وينام على صدرها المتموج - في مثل وشى الرياض
تنفخ روحا وريحانا ، ويتداعى الطير على أيكها اعلانا ، وتهدل أغصانها
فتسمو « وتمس الأرض أحيانا »

وقالت الرمال لي وأنا أقتلع منها رجلى اقتلاعا إذ أخبط في الصحراء
والريح تجذب أطراف الرداء !

« بودى لو تماسكت حياتي . وثبتت ذراتي . ولانت مواطئى
لقدميك ، ولكنى مثلك لا حيلة لي فيما قضى به . . »

وهتف بي هاتف من جانب سائها التى عفت الظلمة آى الهدى منها :

« ليتنى أستطيع أن أسدد خطاك ، وأنير لك الطريق الذى تغوص فيه
قدماك وأريك غايتك قبل مذهبك ، ولكن لنا آيينا لانملك خلافه . وقانوننا
لأستطيع تأويله واعتسافه . وما نحن وأنت الا سواء . وهل تراك تملك
من أمرك كثيرا أو قليلا ؟ »



« وهبت الريح بي كالمجنونة . فعدت وكأنى أمشى على ماء لجى يعلو
ويهبط . وسفت الرمال في وجهى حيثما أدركته كأنما أرادت الحياة أن
ترجمنى ، وتسابقت زمامها إلى أذنى فوقفت مكانى لا أريه . وقلت لنفسى
« ماذا يصنع العود النابت في الخلاء هبت به مثل هذه الرياح الهوجاء ؟ يلين
أو يتقصف ! »

« فلت الى الأرض حتى سكنت الثورة وهدأت الفورة . وجعلت أفكر
في هذه الحياة الغريبة التي يمتزج فيها الصراخ بالغناء . ويختلط به الألم
والطرب . وأقول لاشك أن الحياة عمياء صماء فليتها توهب البصر هنيئة
لترى هذا الخليط من الحسن والقبح والخير والشر ! ويا ليت من يدري ماذا
تصنع إذن ؟ أترى يشور بها الخجل فتعصف بكل شيء وتمحوه ؟ أم تأخذ في
إصلاحه وعلاجه في صبر وأناة ؟ أما لو كنت أنا الحياة لتناوات ما أخرجت
كفاى من طينة الأرض المحدودة ودككته وحطمته ثم ذررته لهذه الرياح ! »
فهمست في أذني الرياح :

« ما الحسن وما القبح ؟ وما الحزن وما السرور ؟ وما الخير والشر وما
الاحساس والعقل ؟ والحصب والجذب . والصحة والسقم . واليأس والأمل ؟
والبكاء والضحك ؟

« فرفعت رأسي حائرا . وأدريت عيني واجما . ثم أطرقت مفعما ثم
نهضت أمشي »

« ودلفت بي رجلاي إلى المقابر فتخللتها إلى بجدت فيه شطر من ماضي
وقعدت واسندت ظهري إلى حجارته ، وأنا أقول لنفسي :

« الموت على الأقل راحة . فليت الحادى يعجل بنا ! فقد سئمت
الحياة ومللت النظر إلى وجهها الملطخ وثوبها المرقع . واشتقت أن أرقد
هنا إلى جانب . . . »

« فخلص إلى صوت من جانب القبر أن « لا » .

« قلت « كيف لا ؟ »

« واستدرت حتى واجهت أضواء القبر .

« قال الصوت : « لا » على التحقيق . ان لي هنا سنوات لاعلم عددها ولعلها
أقل مما توهمني وحشة الوحدة التي تطيل أيامي التي صارت كلها ليالي . أولعلها

كثيرة فما أدرى وقد حجبنت عني الدنيا ، ولو كان المرء يموت مرة واحدة لقلت لك صدقت؟ ولكنه يموت مرة كلما نسيه واحد من الأحياء ويشتمل عليه الفناء شيئا فشيئا ، وأنت على الأقل تذكرني فأبقى بذكراك . فلا تسلمني إلى العفاء بموتك ! ولسنا نألم الرقاد هنا ، وإن كانت ظهورنا توجعنا أحيانا من طوله . ولكننا نألم فتور الذكرى عنا واشفاءنا على التلف الأخير . وههنا في قبري - في حجرة أخرى - جد أعلى لي مسكين ، مسكين قد استوفى ميئاته جميعا ولم يبق منه شيء ! . . . وليت ادكاره ينفعه ! إذن لرددت إليه بعض الوجود . ولكن هيهات ! إنما يجدي الذكر ممن فوقها دون من هم في جوفها مثلي .

قلت « ولكن إذا تعلقت بالحياة فلا معدى عن إجابة دواعيها أفلا يسوءك ذلك ؟

قال الصوت « كلا ! سيان عندي أن تني لي أو لا تني : ومن العبث أن تتكلف لي الحفاظ فأنني بعد أن مت ، لا يسعني أن أوليك الشكر الذي تستحقه أو تنتظره . ولا التفت إلى وفائك أو غدرك ، وإني لأدرى فوق هذا أنك لا تذكرني لذاتي بل لما طابت به نفسك فافعل ما بدا لك . ولا تعن نفسك بي من هذه الناحية . ولكن ابق لي رقعة صغيرة زاوية من ذاكرتك أفيد بها عذوبة البقاء .

قلت « فاذا نسيتك كغيري ؟

قال الصوت « اذا نسيت ؟ آه ! ولكن مالنا وما لم يقع ؟ دع هذا إلى أوانه ، وعسى أن يكون بعيدا .

قلت « حسن . سأحيا من أجلك . وأتقى المهالك أكراما لك وضنا بك أن تلحقى الاموات جدا !

قال الصوت : « اتفقنا . فالى الملتقى !

فسرت في بدني رعدة خفيفة ولم يسرني أن تقول « الى الملتقى » ونهضت

عن القبر ممتلكا رغبة في الحياة . وضنا بها وحرصا عليها ، وعدت
أدراجي إلى داري خفيفا كأنما حططت عن كاهلي وقرا . جعلت أقول
في الطريق :

— نعم سأحيا من أجلها !

ولما أدت المفتاح في الباب همس في أذني الشيطان اللعين :

— تقول من أجل من ؟

وقهقه !

فغاضني ذلك وأخرجني أيضا . فأشحت بوجهي وأسرعت فدخلت
وأغلقت الباب في وجهه !

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

• سر من السلسلة •

- ١- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الأول)
- ٢- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الثاني)
- ٣- الغصن الذهبى (الجزء الأول)
- ٤- الغصن الذهبى (الجزء الثاني)
- ٥- كليله ودمنه
- ٦- ابن جبير
- ٧- فى موكب الشمس
- ٨- هاملت
- ٩- قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور
- ١٠- الفنون الشعرية غير المعربة (المواليا)
- ١١- رمز الأفعى فى التراث العربى
- ١٢- التراث القصصى عند العرب
- ١٣- تاريخ العرب قبل الاسلام
- ١٤- حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى
- ١٥- جماعة أبولو (الجزء الأول)
- ١٦- جماعة أبولو (الجزء الثاني)
- ١٧- الأساطير
- ١٨- ابراهيم الكاتب

رقم الإيداع : ٨٠١٦ / ٢٠٠٠

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقا) *

قسمة اشتراك
إصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة

الاسم :
العنوان :
رقم التليفون :
حالة بريدية رقم : باسم الهيئة العامة لقصور الثقافة بمبلغ :
التوقيع :

م	اسم السلسلة	موعد الاصدار	قيمة الاشتراك ٦ أشهر	قيمة الاشتراك سنة كاملة
١	أصوات أدبية	نصف شهرية	١٢	٢٤
٢	إبداعات	نصف شهرية	٦	١٢
٣	كتابات أدبية	شهرية	١٢	٢٤
٤	آفاق الترجمة	شهرية	١٢	٢٤
٥	آفاق الكتابة	شهرية	٦	١٢
٦	الدخائل	شهرية	٣٠	٦٠
٧	ذاكرة الكتابة	شهرية	١٨	٣٦
٨	مطبوعات الهيئة	شهرية	١٢	٢٤
٩	الدراسات الشعبية	شهرية	١٢	٢٤
١٠	عين صقر	شهرية	٦	١٢
١١	مجلة الثقافة الجديدة	شهرية	٦	١٢
١٢	مجلة قطر الندى	نصف شهرية	١٦	٣٢
١٣	مجلة آفاق المسرح	فصلية	٤	٨
١٤	آفاق الفن التشكيلى	شهرية	٢٤	٤٨
١٥	الجوائز	شهرية	٦	١٢
١٦	آفاق السينما	فصلية	١٨	٣٦

ضع علامة (✓) أمام السلاسل التى تريد الاشتراك فيها فى المربع الخاص بمدة ستة أشهر أو سنة كاملة

ترسل على عنوان الهيئة العامة : ١٦ ش أمين سامى - قصر العينى - القاهرة

ت : ٣٥٦٤٨٤١ - ٣٥٦٤٨٤٢ - فاكس : ٣٥٦٤٢٠٢

الرقم البريدى : ١١٥٦٢

شوشو فتاه يقول لك جسمها أنها ناهزت التاسعة عشرة ويشهد -عديتها
وحر كاتها أنها لم تتجاوز السابعة عشرة . وهي ذات قامة معتدلة وجسم غض
ووجه صبيح متألق ، ترتاح العين إلى النظر إلى معارفه جملة ، وتشغل برقعها
مجموعة عن التعلق بواحد منها على الخصوص . وقد قضت هذا الشطر الأول
من عمرها في عزلة ، قلما أتيح لها فيها أن تخالط الرجال الا أن يكونوا من ذوي
قرباتها الأديين ، فلم تألف أذن عبارات الإعجاب بحسنها ، و بقيت نفسها
مرسلة على سجيئتها ، وخلا كل ما فيها ولها من ذلك العمل الذي يدرب الفتاة
عليه تنبيه الشعور بنفسها وتوقعها من الجائس أن تأخذها عينه من فرعها إلى
قدمها وأن تجس محاسنها وتنقدها . وقد انفردت عيناها بمنزلة : هي أن من
يراهما لا يحتاج أن يعدو هما أو ينقل لحظه إلى سواهما ، ففيهما يحتلى نفسها
وروحها وطبيعتها وجمالها . مركزا . وهما سوداوان غير أنه سواد فيه من العمق
أكثر مما فيه من الالتماع . تحديق « فيه » تحديقك « في » بئر ، ولا تروا « إليه »
كما ترز « إلى » رسم .

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com